رواية

مكتبة
Telegram Network

روبرتو آرلت

المجانين السبعة

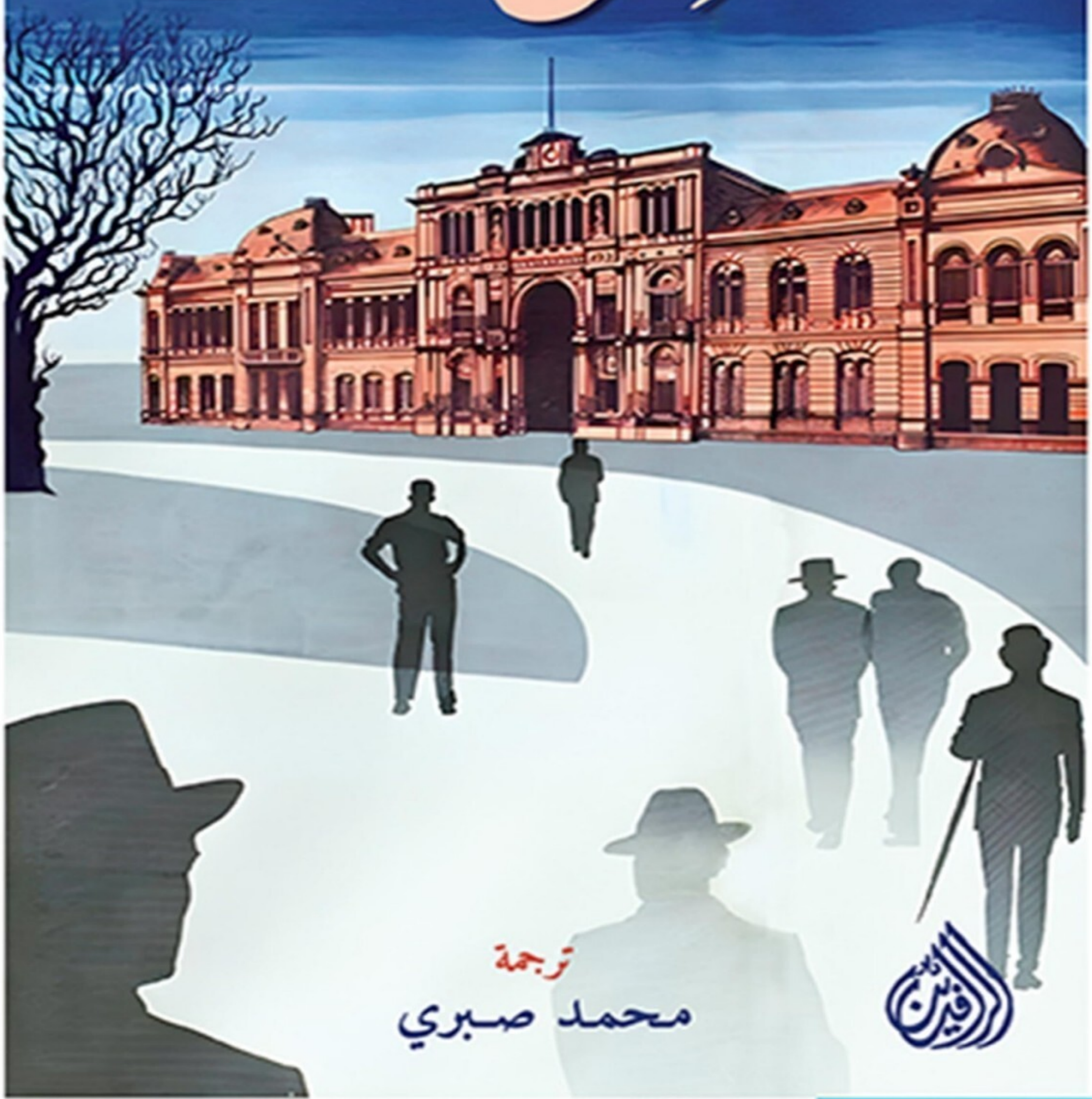

ترجمة
محمد صبري

«مكتبة ♔ النخبة»

روبرتو آرلت

المجانين السبعة

ترجمة

محمد صبري

تقديم ومراجعة

عبدالهادي سعدون

www.daralrafidain.com

المجانين السبعة

روبرتو آرلت

ترجمة: محمد صبري

تقديم ومراجعة: عبدالهادي سعدون

العنوان بالاسبانية:

Los Siete Locos

ترجمة عنوان الكتاب بالانكليزية:

Seven Psychopaths

By Roberto Arlt

Translated by Mohammad Sabri

الطبعة الأولى: أبريل ـــ نيسان، 2022 (1000 نسخة)

This Edition Copyrights@Dar Al-Rafidain2022

©: جميع حقوق الطبع محفوظة/All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

بغداد ـــ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647811005860/+9647714440520

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
daralrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 671 - 19 - 2

تقديم

آرلت ونمط الرواية الأخرى

د. عبد الهادي سعدون

بعد مرور أكثر من ثمانين عاماً على وفاة آرلت، لم يعد هناك شكٌّ في أهمية أعماله الروائية، وكونه رائداً مُجدِّداً ليس في بلده الأرجنتين فحسب، بل في عموم آداب أميركا اللاتينية. وإذا كان النقد آنذاك لم يلتفت لأعماله المهمة بسبب الحركات الأدبية الكثيرة التي اجتاحت خريطة الأدب اللاتيني، فالسبب أيضاً هو خصوصية أعمال آرلت وتمايزها العميق عن أنماط الرواية آنذاك، مما لم يُتِحْ له الوقتَ الكافي ليتمتع بالشهرة والنقد الوافي أثناء حياته القصيرة. يضاف إلى ذلك، النفور القوي منه كشخصية خلافية صدامية مستمرة. وكان علينا أن نصل حتى عام 1950 لنقرأ أول كتاب نقدي عن أعماله، والذي كتبه الناقد راؤول لارا بعنوان (المنُكَّل به)، ليعيد للواجهة بشكل أوآخر القراءة المختلفة لنمط آرلت وصنعته الروائية المتفاوتة عن أنماط مجايليه وابتكاراتهم السردية. شخصية آرلت الشكلانية المعقدة والمتصادمة مع مجتمعها وكتَّابها ونُقَّادها جعلت نتاجاته الروائية بمنأى عن الدراسة والنقد والتبنّي. وهذا التبنّي وهذه الرؤية الجمعية، أو تكاد أن تكون جمعية، لعل مصدرهما التنافر الشديد بينه وبين بورخيس على مدى سنين طوال، مما جعل النقد يُجادل ما بين رؤية آرلت المفعمة بالتغيرات المجتمعية للطبقات المسحوقة (الهامشي والفوضوي)، وما بين الثقافة المتعالية المصقولة (أو ما أُطلق عليها برجوازية الكتابة) لنمط بورخيس نفسه.

على أيّة حال لم تخفَ على أحد أهمية كتابات آرلت خلال حياته، وإن تم تتويجها على وجه الخصوص بعد وفاته عام 1942، لتشكِّل فترة الستينيات وما يليها فترةَ دراسة وتعمُّق بأعماله على مستويات كبرى. بل إن الكثير من أعماله تم تناولها من قِبل أهم النُقَّاد

والباحثين، ونُقِلتْ إلى خشبات المسارح، وحوِّلَتْ إلى سيناريوهات، لأكثر من مرة،لأفلام سينمائية معروفة عالمياً، كما هو الحال في الرواية المترجمة هنا (المجانين السبعة) بإخراج متميز من الأرجنتيني ليوباردو توريس عام 1973. كما أن العديد من الدراسات والآراء التي تناولت آرلت فيما بعد تَعُدُّ أرنستو ساباتو صاحب رواية (النفق) أحدَ تابعيه وتلاميذه الخُلَّص، خاصةً في مسألة التناول النفسي للشخصيات وأثر المجتمع المعاصر عليها. كما أن خوان كارلوس أونيتي قد كتب أكثر من مقدمة ودراسة عن أثر آرلت في الرواية اللاتينية الحديثة، ومثله ما نشره خوليو كورتاثار في كُتيّب صغير غير مكتمل عن أعمال آرلت الروائية. لكن المثال الأوضح تأثراً بنمط روايات صاحب (المجانين السبعة) هو الروائي الأرجنتيني ريكاردو بيجليا في أغلب أعماله الروائية وبالأخص (تنفُّس اصطناعي) المنشورة عام 1980، والذي يشير إليه بوصفه شخصيةً أدبية متأزِّمة وكنمط مختلف عن عموم أبناء جيله.

رواية (المجانين السبعة) للكاتب الأرجنتيني روبرتو آرلت التي نُشرت للمرة الأولى عام 1929، والتي تترجم إلى العربية للمرة الأولى من قبل المترجم الشاب محمد صبري بقدرة ومهارة عاليتين، يصوِّر فيها الروائيُّ العديدَ من المشكلات التي تطرحها الفلسفة الوجودية، وكذلك القضايا الأخلاقية مروراً بالوحدة والغمِّ نتيجة انعدام جدوى الحياة وهيمنة الموت في مواضع حياتية مختلفة يمر بها أبطال الرواية. وهو في الوقت نفسه عملٌ انتقاديٌّ اجتماعيٌّ واضحٌ للأرجنتين في عشرينيات القرن الماضي. كما أن حبكة رواية (المجانين السبعة) قد بلغت ذروتها في الرواية التالية لها، والتي تعتبر بمثابة الجزء الثاني منها، وهي رواية (قاذفات اللهب أو المنجنيق) والتي سيُصْدِرها عام 1931.

في الرواية مونولوج داخلي مطوَّل يقود أبطاله إلى ردود فعل تافهة أغلب الأحيان وواضحة على حدٍّ سواء، حيث يتم تجميل الجنون المطلق للمجتمع وقسوة الرأسمالية، وبرودة الصناعة وآلاتها التكنولوجية، مع ضعف وهشاشة الإنسان الفاني الذي خلقها. وهكذا يدخل البطل في المحن الميتافيزيقية لنظام عالمي كان مفعوله، وما يزال، مستمراً على المجتمعات باختلاف أنماطها وطبقاتها. وقد أشار الكثيرون في هذا العمل إلى تأثره بالكاتب

الروسي العملاق فيدور دوستويفسكي، لدرجة أن أُطْلِقَ عليه من قِبَل بعض النقاد اسم «دوستويفسكي بوينس آيرس». بطل الرواية أوغوستو ريمو إردوساين، اليائس بسبب نقص الأموال والآفاق المستقبلية، ينضم إلى مجتمع سري يسعى إلى تغيير النظام الاجتماعي السائد من خلال ثورة اجتماعية عنيفة وحاسمة ابتكرها (المُنَجِّم)، هذه الثورة التي سيتم تمويلها من خلال شبكة من بيوت الدعارة الموزعة في جميع أنحاء الأرجنتين تحت إدارة روفيان ميلانكوليك. أردوسين، ميتافيزيقي حتى النخاع، هو أيضاً مخترع فاشل مهووس بـ«الوردة النحاسية»، وهو مشروع يخبرنا عنه بتوجُّسٍ وخجلٍ من خلال فصول الرواية والذي لا يمكن أبداً تحقيقه، وهنا التركيز على الضحية واللامبالاة الدائمة.

البطل بكل المقاييس، اختراع عقيم (شِبْه شعري)، وخالٍ من أيّ منفعة ما عدا الجمالية المشكوك فيها أصلاً. ومع ذلك يستخدم آرلت البطل آردوساين باعتباره البقية الأخيرة المتبقية من الأمل في مواجهة الفراغ وعدم جدوى الحياة والعجز الذي يشعر به البطل باستمرار. بشكل عام، فإن هراء العالم كما هو منظم، يلوِّن الإدراك والوعي الذي تصنعه كل شخصية من شخصياته، ويأخذهم إلى أقصى الحدود الوهمية المخيفة. رواية الذات البشرية التي تحاول الحصول على بارقة أمل في ظلام الحقيقة الوحيدة، العالم في نهاياته أو بداياته الكارثية التي توَّجَتها أعوام القرن العشرين الأولى بالنزاعات والحروب المستمرة. أردوسين في الواقع شخصية على النقيض من النمط المعتاد للرواية وأبطالها، فهو يتَّخِذ الجانب الآخر من (اللا ـ بطل) لو جاز التعبير، للخوض بمتاهات طواحين هواء العالم الجديد/القديم ونزاعاته الوجودية.

إذا كان القارئ العربي (بل وحتى الروائي العربي نفسه) قد اعتاد على أنماط رواية الواقعية السحرية التي اجتاحت العالم منذ ستينيات القرن الماضي وحتى اليوم، والتي تعتبر ميزة القارة اللاتينية وثورتها الكبرى في تلك القارة والعالم أجمع، فالحق أن روايات روبرتو آرلت تنتمي زمنياً لتلك الفترة، بل ومن روادها الكبار، لكنها روايات متفردة غريبة غرابة كاتبها، ومتجددة في موضوعها الذي لم يُستهلك في عالم يمضي إلى حتْفِه بسرعة هائلة. الجنون إن لم يكن مرضاً يسيطر على أبناء العصر الحديث، فهي ميزة الاختلاف

والتساؤل والقلق المُضني بالبحث عن منافذ هواء جديدة لفهم العالم وواقعنا الحالي. إنها رواية القراءة المتأنية الواعية والتفكير الطويل. أما البحث عن خلاصات تامّة منها، فهذا يُعَدّ من المهام الصعبة. الرواية هنا كما هو حال أغلب أعمال آرلت، إنما تطرح تفاصيل الحالة وتتركها عرضة للريح لكشف المزيد المخفي منها. المخفي منا والمعرَّض للتهميش والتزييف والهجر في كل مرةٍ جديدةٍ.

(مدريد 2021)

إلى من ذكرها خير البرية في حديثه ثلاث مرات،

وإلى من أوصى به في الرابعة،

ليس لي طاقة بمكافأتكما!

أتركها إلى رب الأرض والسماوات

وأسأله لكما دوام الصحة والعافية

وأن يرزقكما حسن الخاتمة.

المترجم

مقدمة المترجم

روبرتو آرلت كاتبٌ أرجنتينيٌ ولد في بوينس آيرس في 2 أبريل 1900. لوالدين كليهما من المهاجرين: والده كارل آرلت كان من بروسيا بينما والدته إيكاترين أيوبسترابيتزر، من مواليد تريستا بإيطاليا. كانت اللغة الألمانية هي اللغة المستخدمة بشكل شائع في منزلهم. وكانت علاقته بوالده غير جيدة، حيث كان والده رجلاً قاسياً ومتشدداً، وفقاً لرؤية آرلت الخاصة. ظهرت ذكرى والده الظالم في العديد من كتاباته. على سبيل المثال، غالباً ما يتذكر بطل الرواية التي بين أيدينا في طفولته والده المسيء، ومدى ضآلة الدعم الذي كان يقدمه له. بعد طرده من المدرسة في سن الثامنة، أصبح آرلت خبيراً ذاتياً، وعمِلَ في جميع أنواع الوظائف الفردية المختلفة قبل أن يمتهن وظيفة في إحدى الصحف المحلية: ككاتب في مكتبة، ورسام امتهن العديد من الوظائف من بينها ميكانيكي، ولحَّام، مدير في مصنع الطوب، وعامل رصيف ميناء.

كانت عمليات إعادة التقييم النقدية قد أخرجت روبرتو آرلت وروايته «المجانين السبعة» من الغموض الأدبي ومنحت كلًّاً من المؤلف والرواية مكاناً مهماً في تاريخ الأدب الخيالي في أمريكا اللاتينية. على الرغم من أن آرلت يُعرف الآن بأنه الجد المفقود منذ زمن طويل لما يُسمَّى بـ «ازدهار الخيال الحكائي» الذي يربطه القارئ الأمريكي اللاتيني بأسماء مثل خوليو كورتاثار وخورخي لويس بورخيس وغابرييل غارثيا ماركيز.

كانت روايته الأولى، اللعبة المجنونة 1926، قصة شبه سيرة ذاتية لبطل الرواية، الذي ترك الدراسة وشرع في خوض سلسلة من المغامرات في محاولة أن يكون «بطلاً». تعكس الرواية مدى الفوضى التي سادت القرن العشرين في العاصمة الأرجنتينية، وفي نفس الوقت كمية الطاقات التي كان يتمتع بها شعب بوينس آيرس، خلال الرواية التي روتها شخصية سيلفيو القديمة.

كانت رواية آرلت الثانية هي الرواية المعروفة والتي نقدمها مترجَمةً في هذا الكتاب(المجانين السبعة)، رواية قاسية ووحشية وعامية وسريالية، وهي تعدُّ فاصلاً كاملاً واستراحة من الأدب المهذَّب الأكثر تميُّزاً في الأدب الأرجنتيني (كما يتجلى من خلال أعمال خورخي لويس بورخيس، مهما كان عمله مبتكراً من نواحٍ أخرى). وكانت روايته (قاذفات اللهب) هي الخاتمة لرواية (المجانين السبعة)، وكما يزعم البعض، فإن هاتين الروايتين معاً هما أعظم أعماله، والكثير من النقاد يعدون الروايتين بمثابة جزءٍ أول يتبعه جزءٌ ثانٍ. ما تلا ذلك كان سلسلة من القصص القصيرة والمسرحيات التي سعى فيها آرلت إلى تحقيق رؤيته لشخصيات غريبة، نصف مجنونة، ومنفصلة تسعى وراء مهام مجنونة في مشهد من الفوضى الحضرية.

كان آرلت صحفياً له أسلوب غالباً ما يكون فظّاً وصريحاً وحازماً. طريقته غير المصقولة في التعبير وسرد الشخصيات الأدنى في الحياة التي كان يحياها في روايته أعطت خياله نغمة طبيعية. لم يرَ العديد من معاصري آرلت في (المجانين السبعة) أكثر من رواية «بروليتارية» قاسية وخشنة، مليئة بالمشاهد الرهيبة، والكلمات الفظة، والشخصيات المهلهلة، والأخطاء النحوية التي لا تُغتفر. يصوِّر آرلت هذا النوع من القراء ببراعة عندما يتخيَّل كيف سيستقبل الناقد عمله بعد هذه الرواية: «السيد روبرتو آرلت يستمر في نفس الروتين القديم: الواقعية في أسوأ ذوق ممكن». لقد فعل آرلت بنفسه الكثير لتحسين صورته كمؤلف «بروليتاري». كان يشعر بالأشياء والاندفاع والاستهجان، ونظر إلى جانب الشاب الغاضب وتصرَّف به. وأشاد في عموده بعدد من الكتاب الواقعيين الاشتراكيين، من السوفييت والأرجنتينيين. لقد احتقر الإملاء والقواعد الصحيحة باعتبارهما اهتمامات صفوية، ولم يفكر في توحيد لغته الإسبانية غير المنتظمة.

ومع ذلك، اشتهر آرلت خلال حياته بـ«المحطات»، نتيجة مساهماته ككاتب عمود ـ بين عامي 1928 و1942 ـ في صحيفة «إلموندو» اليومية في العاصمة الأرجنتينية. استخدم آرلت هذه الأعمدة للتعليق، بأسلوبه الصريح والمتواضع المميز، على خصوصيات ونفاق وغرابة وجمال الحياة اليومية في بوينس آيرس.

بين مارس ومايو 1930، كتب آرلت سلسلةً من «النقش» كمقابلة لـ«إلموندو» في ريو دي جانيرو. في عام 1935 أمضى ما يقرب من عام في الكتابة أثناء سفره في جميع أنحاء إسبانيا وشمال إفريقيا، إبان الحرب الأهلية الإسبانية. في وقت وفاته، كان آرلت يأمل في إرساله إلى الولايات المتحدة كمراسل.

منهكاً ومرهقاً بعد حياة مليئة بالصعوبات والتحديات، رحل آرلت عن دنيانا متأثراً بجلطة دماغية في 26 يوليو 1942. وأكثر حدث مثيرٍ في حياته هو عملية إنزال نعشه من شقَّتِه، العملية التي تمَّت عن طريق رافعة، مما دلَّ على تأثير كتاباته في مماته كما أثَّرت في أحداث حياته.

الفصل الأول

المفاجأة

بعد أن فتح باب الإدارة، المغطّى بالزجاج الياباني، أراد أردوسين التراجع؛ شعر بأنه تائهٌ، لكن الأوان قد فات.

كان المدير في انتظاره؛ رجلٌ قصير القامة، ممتلئ الجسد، برأسٍ يُشبه رأس خنزير بري، ذي شعر رمادي مقصوص حسب تقليعة «همبرتو الأول»، ونظرة عنيدة متفحصة بحدقتين رماديتين مثل تلكما الموجودتين في السمك. يليه غوالدي، المحاسب، صغير، نحيف، لبِق، ذو عيون فاحصة، ثم مساعد المدير، ابن الرجل ذي الرأس الذي يُشبه رأس الخنزير، فتى وسيم يبلغ من العمر ثلاثين عاماً، بشعر أبيض تماماً، له مظهر ساخر، وصوت خشن ونظرة جادة مثل والده. هؤلاء الثلاثة، المدير منحنٍ على بعض التصاميم، ومساعد المدير مستلقٍ على كرسي بذراعين وواضعاً ساقه على مسند الظهر، والسيد غوالدي يقف باحترام بجانب المكتب، الجميع لم يبادلوا أردوسين التحية.

فقط اكتفى مساعد المدير برفع رأسه ثم قال:

ـ لدينا شكوى أنَّك محتالٌ وقمت بسرقة ستمئة بيزو منا.

وأضاف السيد غوالدي «وسبعة سنتات»، بينما كان يمرر مُجَفِفاً على التوقيع الذي وقَّعَه المدير على استمارة. ثم رفع هذا الأخير رقبته لأعلى بصعوبة، كما لو كان يبذل مجهوداً كبيراً لتحريك رقبته التي تشبه رقبة الثور. بأصابع محشورة بين عروات السترة، ألقى المدير نظرة حكيمة، بجفنين نصف مفتوحين، ودون ضغينة كان يتفحَّص وجه أردوسين الهزيل، والذي ظلَّ صامداً.

ـ يسأل: لماذا ترتدي ملابسَ بهذا السوء؟

ـ أنا لا أكسب أي شيء كصرّاف.

ـ وماذا عن الأموال التي سرقتها منّا؟

ـ أنا لم أسرق شيئاً. هذا كذب.

ـ إذاً، هل أنت في وضع يسمح لك بتقديم دفاتر الحسابات؟

ـ إذا كان هذا ما ترغبون فيه، فلنفعل ظُهر اليوم.

أنقذه هذا الجواب مؤقتاً. تشاور الرجال الثلاثة بأعينهم، وأخيراً قال مساعد المدير، وهو يهزُّ كتفيه، برضا الأب:

ـ لا، لديك من الوقت حتى الثالثة غداً. أحضِر النماذج والإيصالات الخاصة بك... يمكنك الذهاب.

لقد فوجئ بهذا القرار لدرجة أنه ظل واقفاً هناك بأسى، ينظر إلى ثلاثتهم. نعم إلى ثلاثتهم. إلى السيد غوالدي، الذي كثيراً ما أهانه على الرغم من كونه اشتراكيّاً؛ وإلى مساعد المدير، الذي ركّز مقلتيه بوقاحة على ربطة عنقه المهترئة؛ وإلى المدير، الذي أدار رأسه الخنزيري المتصلب نحوه، وهو يرمقه بنظرة ساخرة وفاحشة من خلال الخط الرمادي لجفنيه نصف المغلقين.

ومع ذلك، لم يبرح أردوسين مكانه...

أراد أن يقول لهم شيئاً، لم يكن يعرف كيف، ولكنه أراد قولَ شيءٍ من شأنه أن يجعلهم يفهمون كل البؤس الهائل الذي يُثقل كاهله طوال حياته؛ وظلّ هكذا، واقفاً حزيناً، والكتلة السوداء للسجل المالي تلوح أمام عينيه، وشعر أنه يطعَنُ في السِّن أكثر فأكثر بمرور

الدقائق، بينما يلف طرف قبعته السوداء بعصبية، وتلوح على مقلتيه نظرة حزينة لرجلٍ فارّ. ثم سأل فجأةً: ـ أيمكنني الذهاب؟

ـ نعم.

ـ لا، أعطِ الإيصالات لسواريز وغداً في الثالثة كُنْ هنا، دون تأخير، بكل شيء.

ـ نعم، كل شيء.

ثم التفت، وغادر دون أن يلقي التحية.

مروراً بشارع تشيلي نزولاً إلى ممر كولون. شعر بأنه مراقبٌ بشكلٍ غير مرئيٍّ. تكشَّفت الانبعاجات الداخلية المثيرة للاشمئزاز للشارع المنحدر بعد سقوط أشعة الشمس عليها. أفكار مختلفة تتأجج بداخله، متباينة لدرجة أن محاولة تصنيفها قد تستغرق ساعات طويلة.

وتذكر لاحقاً أنه لم يخطر له على بال مطلقاً أن يتساءل عمَّن وشَى به.

حالات الوعي

كان على علمٍ بأنَّه لِصٌّ. لكن من أيّ فئة؟ لم يهتم. ربما كانت كلمة «لِصّ» لا تتماشى مع شعوره الداخلي. كان شعورٌ آخر يتملَّكُه، ألا وهو حالة الصمت الدائري الذي يخترق جمجمته كاسطوانة فولاذية، بطريقة جعلته غير مدركٍ لكل ما له علاقة بالبؤس الذي يعيشه.

فكَّر تلغرافياً، التخلُّص من الافتراضات أمرٌ محفزٌ. كان يعرف الساعات الميتة التي كان من الممكن أن يرتكب فيها جريمةً من أي نوع، دون أن تكون هناك صلة تربطه بها. منطقياً، القاضي لم يكن ليفهم مثل هذه الظاهرة. لكنه كان أجوف بالفعل، لقد كان قشراً لرجل تحركه آلية العادة.

إذا استمر في العمل في شركة السكر، فلن يستمر كي يتمكَّن من سرقة المزيد من الأموال، ولكن لأنه كان ينتظر حدثاً غير عاديٍّ ـ استثنائي للغاية ـ سيأخذ منعطفاً غير متوقع في حياته، وينقذه من الكارثة التي رآها تقترب من بابه.

أطلق أردوسين على هذا الجو من الرغبة في النعاس والأرق الذي جعله يسير هذه الأيام كالنائم، مسمَّى «منطقة الكرب».

تخيل أردوسين أن هذه المنطقة تقع على ارتفاع مترين فوق المدن، وكان بإمكانه رؤيتها بشكل بياني تماماً، على شكل تلك المسطحات الملحية العظيمة أو الصحاري التي تظهر على الخرائط على شكل فواصل مليئة بالنقاط، السميكة كبيض سمك الرنجة.

ولدت منطقة الكرب هذه من رحم معاناة البشر. ومثل سحابة من الغاز السام انتقلت بشكل كبير من نقطة إلى أخرى، واخترقت الجدران وعبرت المباني دون أن تفقد شكلها المسطح والأفقي؛ كان ألَمٌ ذو بُعدين يمرُّ كمقصلة قطعت الحلق، ومن ثم تركت فيه الكثير من السعال.

كان هذا هو التفسير الذي أعطاه أردوسين لنفسه عندما شعر بالغثيان الأول من الحزن.

ثم ردَّدَ: «ماذا أفعل بحياتي؟»، ربما يريد أن يوضِّح مع هذا السؤال أساس القلق الذي جعله يتوق إلى وقتٍ لم يكن فيه الغد استمراراً لليوم بمقياسه الزمني، ولكن كان شيئاً مختلفاً وغير متوقَّع دائماًمثل التحول المفاجئ للمؤامرة في فيلم أمريكي، حيث متسوِّل الأمس هو رئيس جمعية سرية اليوم، والكاتب المغامر هو ملياردير مُتَخَفٍّ.

تركته تلك الحالة من التعطش للمعجزات التي ليس لها ما يسبر غورَها ـ لأنه كان مخترعاً فاشلاً ومجرماً على وشك دخول السجن ـ في حالةٍ من التأملات التي تتبع الحموضة الشديدة والأسنان الحساسة بعد مضغ الليمون.

في هذه الظروف كان يقوم بجمع الحماقات. جاء ليتخيَّل أن الأغنياء، الذين سئِموا من الاستماع إلى شكاوى البائسين، بنوا أقفاصاً هائلةً تَجُرُّ فِرَقاً من الخيول. قام الجلادون الأقوياء بمطاردة البؤساء بالقوس الذي يُستخدم للكلاب، وبدا له أمراً واقعياً حتى أنه تصوَّر مشهداً: أمٌّ، طويلة القامة وذات شعر أشعث، ركضت وراء أحد الأقفاص، بين القضبان، تنادي على ابنها ذي العين الواحدة، حتى أن أحدالجلادين شعر بالملل من سماع صراخها، فأفقدها وعيها بوابل من الضربات على الرأس بمقبض السوط.

مع انجلاء هذا الكابوس، قال أردوسين في ذُعرٍ ذاتيٍّ:

«ولكن أيُّ روحٍ، أيُّ روحٍتلك التي لديّ؟»، وبينما احتفظ خياله بالمحرك الدافع الذي أعطاه له الكابوس، تابَعَ: «لا بد أنني ولدتُ لأكون خادماً، واحداً من أولئك الأتباع المعطرين والفاسدين لإحدى العاهرات الثريَّات اللاتي يضعن مشابك الشعر بينما يدخنُ الحبيب سيجاراً، متمدداً على الأريكة».

وانتقلت أفكاره مرةً أخرى إلى مطبخ يقع في قبو قصرٍ فاخرٍ. خادمتان تتجولان حول الطاولة، بالإضافة إلى السائق وبائع عربي للأربطة والعطور. في هذا الموقف كان يرتدي سترة سوداء لا تغطي مؤخرته، وربطة عنق بيضاء. وفجأةً كان «السيد» يناديه، الرجل الذي كان يملك ضعف بنيته الجسدية، لكنه لم يحلق شاربه، ويرتدي نظارات. لم يكن يعرف ما الذي يريده صاحب العمل منه، لكنه لن ينسى أبداً النظرة الفريدة التي رمَقَهُ بها عندما غادر الغرفة عائداً إلى المطبخ كي يروي عن الأشياء القذرة للسائق، الذي شعر بفرحة الخادمات وصمت العربي بائع الأربطة، كان يقص كما لو أنه شوَّه ابنة سيدة عظيمة، مخلوقة معينة لعدة أعوام.

وظل يكرر في نفسه:

ـ «نعم، أنا خادم. لديَّ روح خادمٍ حقيقيٍّ». وقد صرَّ على أسنانه بارتياحٍ عندما أهان نفسه وحطَّ منها بهذه الطريقة.

وفي أحيان أخرى رأى نفسه يخرج من غرفة نوم عجوز عزباء متدينة، تحمل مبوَلة ثقيلة ممتلئة بالدهن، لكن في تلك اللحظة قابَلَهُ كاهن منزل عادي، وهو يبتسم دون أن يبدو عليه الانزعاج، قائلاً: ـ كيف حالنا مع الفرائض الدينية يا أرنستو؟

هو، (أرنست)، (أمبروز) أو (جوزيف)، سيهيم في الدنيا كخادم فاحش ومنافق. هزَّةٌ من الجنون رجَّتْهُ عندما فكَّر في هذا.

كان يعرف، أوه، كم كان على يقين من ذلك! أنه كان يُسيء إلى روحه ويعبث بها دون مقابل. ولقد عانى من حالة الرعب التي ألمَّتْ بالرجل وهو داخلٌ بكابوس يسقط فيه في هاوية لا يموت فيها، بينما كان يتشوَّه عمداً.

حيث إن توقَهُ للإذلال، كان مثل حماسة القديسين الذين قبَّلوا جروح البرَص؛ ليس من باب الشفقة، ولكن ليكون أكثر استحقاقاً لمحبة الله، من الشعور بالاشمئزاز لرؤيتهم يتقربون إلى السماء بمثل تلك الأفعال المقزِّزة.

ولكن عندما اختفت هذه الصور منه، ولم يبقَ في وعيه سوى «الرغبة في معرفة معنى الحياة»، قال:

ـ لا، أنا لست خادماً... أنا حقاً لست كذلك... وددتُ لو أطلب من زوجته أن تشفق عليه، وأن تشفق على أفكاره الرهيبة والمنحدرة. لكن ذكرى أنه أُجبِر على التضحية بنفسه مرات عديدة من أجلها ـ ملأتْهُ استياءً باهتاً، وفي تلك الظروف تمنَّى لو قتلها. وكان على يقينٍ راسخٍ أنها في يوم من الأيام سوف تُسْلِم نفسها لآخر، وسيكون ذلك عنصراً إضافياً للعوامل الثلاثة الأخرى مسبّبات معاناته.

لذا فعندما استولى على العشرين بيزو الأولى، أدهشته السهولة التي يمكن بها للمرء أن يفعل «ذلك»، ربما لأنه قبْلَ السرقة كان يعتقد أنَّ عليه أن يتغلب على سلسلة من الوساوس التي في ظروفه المعيشية الحالية لم يكن ليعرفها. ثم قال: ـ إنها مسألة إرادة وتنفيذ، لا

أكثر. و«هذا» هوَّنَ من أمر الحياة، ومع «هذا» أصبحت لديه أموال أعطته شعوراً غريباً، إذ إنه لم يكن من الصعب عليه كسْبُها. لكن ما أثار دهشة أردوسين بالفعل ليس السرقة، بل حقيقةُ أنه لم يحظَ بملامح لِصّ. لقد أُجبر على السرقة لأنه كان يحصل على دخل شهري ضئيل. من ثمانين إلى مئة وعشرين بيزو، لأنَّ راتبه يعتمد على المبالغ المحصَّلَة، حيث إن الراتب يتكوَّن من عمولة عن كل مئة يتمّ تحصيلها.

وهكذا، كانت هناك أيام يحصِّل فيها من أربعة إلى خمسة آلاف بيزو، بينما كان يعاني هو من سوء التغذية، كان عليه أن يتحمل الرائحة الكريهة لمحفظة جلدية مزيفة تتراكم بداخلها السعادة على شكل فواتير وشيكات وأوامر بريدية وأوامر توصيل.

وبَّخته زوجته على المصاعب التي يتعرَّض لها بشكل يومي. استمع بصمت إلى لومها له، ثم قال في نفسه:

ـ ماذا يمكنني أن أفعل؟

عندما راودته فكرةٌ صغيرةٌ، أنه قد يتمكن من الاختلاس من أصحاب العمل، شعَرَ بفرحة المكتَشِف. سرقة؟ كيف لم يخطر ذلك ببالِهِ من قبل!

وكان أردوسين مندهشاً من عجْزِه عن اكتشاف هذه الفكرة، وذهب إلى حدّ لوم نفسه على قلة المبادرة، لأنه في ذلك الوقت (قبل ثلاثة أشهر من ورود الأحداث) كان يُعاني من الحاجة بكل أشكالها، على الرغم من حقيقة أن مبالغ كبيرة من المال تمرُّ عبر يديه بشكلٍ يوميٍّ.

ومما سهَّلَ منمهمَّتِه الاحتيالية هو عدم وجود إدارة في شركة السكر.

الذُّعْر في الشارع

مما لا شك فيه أن حياته كانت غريبةً، لأنه في بعض الأحيان يتسارع الأمل بداخله فيقوده إلى الشارع.

ثم يصعدإلى الحافلة ويهمُّ بالنزول في باليرمو أو بلغرانو. اجتاز ممعناً التفكير في الطرق الهادئة، قائلاً:

ـ ستراني شابّةٌ، فتاةٌ طويلةُ القامة، شاحبة، ذات تركيزٍ عالٍ، تقود سيارتها الرولز رويس في نزوة. ستسير بحزنٍ،وفجأةً تنظر لي، ثم تدرك أنني سأكون حبَّها الوحيد في الحياة، وأن النظرة التي كانت حنقاً على كل البائسين، سوف تتحوَّل معي إلى نظرةٍ مغطاة بالدموع.

يتوارى الحلم وما يحتويه من حماقة، بينما يهبط هو ببطءٍ إلى ظلال الواجهات المرتفعة وأشجار الموز الخضراء، والتي ألقت بظلالها مكونةً أشكالاً ثلاثية على اللون الأبيض في الأسفل.

ـ ستكون مليونيرة، لكنني سأقول، «آنسة، لا أستطيع لمْسَكِ. حتى لو كنتِ تريدين أن أتزوجك، فأنا لست مهتمّاً». ثم سأقول لها: «وكل شيء عديم الفائدة، كما تعلمين؟ لا داعيَ لذلك، لأنني متزوج». لكنها ستقدّم لإلسا ثروةً لتوافق على الطلاق مني، ومن ثم سنتزوّج، وفي يَخْتِها سنذهب إلى البرازيل.

على الرغم من بساطة الحلم، لكن تمَّ إثراؤه بذكر البرازيل، التي عرضَتْ أمامه، خشنةً وساخنةً، خطّاً ساحليّاً ورديّاً وأبيض، مقطوعاً بحرفية عمودياً على البحر الأزرق الرقيق. الآن نزعت عنها عباءتها المأساوية وكانت ـ تحت خيوط من الحرير الأبيض لفستانها البسيط، مثل فستان مخلوقة مبتسمة في سِنّ الدراسة ـ خجْلَى وجريئةً في نفس الوقت.

وفكَّرَ أردوسين:

ـ لن نمارس الجنس أبداً. لنجعل حبَّنا يدوم، سنكبح الرغبة، ولن أُقبِّلها في فَمِها، بل على يديها.

وكان يتخيّل السعادة التي ستعتري حياتَهُ، إذا حدث مثل هذا المستحيل. لكنَّ إيقافَ الأرض عن دورانها كان أسهل من بلوغ ذلك العبث المستحيل. ثم قال في نفسه، حزيناً بشجاعةٍ غامضةٍ: ـ حسناً، سأكون «قوَّاداً».

وفجأةً حلَّ في ضميره رعبٌ أفظع من غيره من الرعب. كان لديه إحساسٌ بأن كل فجوات روحه كانت تنزف كما لو كانت تحت حدِّ مخرطة، وشُلَّ عقْلُه، متخدراً من الألم، وذهب بجنون بحثاً عن ماخور. حينئذٍ عرف شعور رعب الاحتيال، الرعب المضيء الذي يُشبه بزوغ يوم مشمس عظيم في منجم من النترات.

لقد سمح لنفسه بأن ينجرف بعيداً عن الدوافع التي تغيّر مسار الرجل الذي يشعر لأول مرة أنه على مشارف السجن، وقوى عمياء تدفع برجلٍ سيئ الحظ إلى المراهنة بحياته على بطاقة أو على امرأة. ولعل في السعي للفوز ببطاقة أو أنثى عزاءً قاسياً وحزيناً، لعل البحثَ في كل ما هو حقير ومغمور تأكيدٌ معينٌ على النقاء الذي قد ينقذه مرةً واحدةً وإلى الأبد.

وفي ساعات القيلولة الحارة، كان يمشي في الشمس الصفراء على أرصفة الفسيفساء الساخنة بحثاً عن بيوت الدعارة الأكثر قذارة. كان يفضِّل تلك التي رأى في مداخلها قشوراً برتقالية وخطوطَ رماد والزجاجَ المبطَّن بقطعة قماش حمراء أو خضراء محميّة بشبكة من الأسلاك.

دخل الفناء وقد انتابَهُ شعورٌ بالموت، تحت السماء الزرقاء المربَّعة. في العموم، كان هناك مقعدٌ واحدٌ مطليٌ باللون الأصفر، ترك نفسه يسقط عليه منهكاً، متحمِّلاً النظرة الجليدية للمديرة، وهي امرأة بشعة، نحيفة أو سمينة، بينما كان ينتظر خروج إحدى فتياتها.

نادت عليه عاهرةٌ من باب غرفة النوم نصف المفتوح، حيث يتسلل من الداخل صوتُ رجلٍ يرتدي ملابسه:

ـ هيا يا حبيبي؟

بينما دخل أردوسين إلى غرفة النوم الأخرى، سمع طنيناً في أذنيه، وفي الجوّ سحابةٌ من دخان السجائر تكاد تعمي عينيه.

ثم استلقى على سرير ملوّن بلون الكبد، فوق البطانيات المتَّسِخة من الأحذية، والتي تحمي فرش السرير.

فجأةً أراد البكاء، ليسأل ذلك الخنزير الرهيب ما هو الحب، الحب الملائكي الذي غنَّتْه الجوقات السماوية عند قدم عرش الإله الحي، لكن الألم سدَّ حنجرتَهُ بينما كانت معدته تنغلق مشمئزةً... مثل قبضة اليد.

وبينما تركت العاهرة يده المتحركة تستريح فوق ملابسها. قال أردوسين في نفسه:

ـ ماذا فعلتُ بحياتي!

شعاع من ضوء الشمس يمرُّ عبر زجاج اللافتة المغطاة بخيوط العنكبوت، والعاهرة تحرِّك يدها عليه ببطء، واضعةً خدَّها على الوسادة وإحدى ساقيها عليه، وهو يقول لنفسه بحزن:
ـ ماذا الذي فعلتُه بحياتي!

فجأةً تملَّكَهُ الندم على نفسه، وتذكَّرَ زوجته التي اضطرَّت لغسل ملابسها بنفسها رغم مرضها بسبب نقص المال، ثم قفز من على السرير، ودفع المال إلى العاهرة، دون مقابلٍ من متعة. هرب إلى جحيمٍ آخر لينفق الأموال التي ليست مِلْكَهُ، ومن ثم يغرق في جنونه الذي ينوح طوال الوقت.

رجلٌ غريب

في تمام العاشرة صباحاً، وصل أردوسين إلى بيرو. كان يعلم أن مشكلته ليس لها حلٌّ آخر غير السجن، لأن بارسوت لن يُمِدَّهُ بالمال بالتأكيد. بشكلٍ مفاجئٍ اندهش، فعلى إحدى الطاولات في المقهى كان الصيدلي إرجويتا يجلس.

كانت قبّعَتُه تغطي أذنيه، ويداه تلامسان إبهاميه على بطنه السميك، كان يومئ برأسه بتعبير غير مستساغ، منتفخ على وجهه الأصفر. عيون منتفخة زجاجية، وأنف كثيف معقوف، وخدود مترهِّلَة، وشفة سفليّة متدليّة تقريباً أعطته مظهرَ معتوهٍ. كان جسده الضخم مغلفاً ببدلة بلون القرفة، بينما يَحني وجهه، مسنداً أسنانه على المقبض العاجي لعصاه.

بسبب هذا التردد والتعبير المنبئ عن ملَلِه، كان يبدو وكأنه تاجر نساء بِيض. فجأةً، التقت عيناه بعيني أردوسين الذي كان سيقابله، ثم أضاءت وجهَ الصيدلي ابتسامةٌ طفوليةٌ. استمر فيالتبسم عندما صافح أردوسين، الذي فكَّر «كثيرون هم الذين أحبّوه لابتسامته تلك!».

كان السؤال الأول الذي طرحه أردوسين بشكل غير إرادي هو:

ـ هل تزوّجتَ من هيبوليتا؟

ـ نعم، لكن لا يمكنك تخيُّل الفوضى التي اندلعت في المنزل...

ـ ماذا؟ هل تعلم أنه من «الحياة»؟

ـ لا، قالت هذا لاحقاً. هل تعلم أن هيبوليتا كانت تعمل خادمةً قبل عملها في الشارع؟

ـ و....؟

ـ بعد فترة وجيزة من زواجنا، ذهبتُ أمي وأنا وهيبوليتا وأختي الصغيرة كعائلة. هل تدرك كيف هي ذاكرة هؤلاء الناس؟ بعد عشر سنوات تعرَّفوا على هيبوليتا التي كانت تخدمهم.

شيء ليس له اسم! عُدْنا أنا وهي من طريق وأمي وجوانا من طريق آخر. لقد انهارت القصة الكاملة التي اختلقتُها لتبرير زواجي.

ـ ولماذا اعترفَتْ بأنها عاهرة؟

ـ في لحظة غضب. لكن ألم تكن محقَّةً؟ ألم يتجدَّد الأمر؟ ألن تتحمّلني، أنا، ألَمْ يبيَضَّ شعري بسببهم؟

ـ إذاً كيف تسير الأمور؟

ـ حسناً... الصيدلية تُدِرُّ عليَّ سبعين بيزو في اليوم.

في بيكو لا يوجد من يعرف الكتاب المقدَّس مثلي. لقد تحدّيتُ الكاهن في نقاش ولم يرغب في قبول التحدي.

بدا أردوسين متفائلاً فجأةً بصديقه الغريب. ثم سأل:

ـ هل تلعب دائماً؟

ـ نعم، ويسوع كشف لي سرَّ الروليت، بسبب براءتي.

ـ ما الذي يعنيه ذلك؟

ـ أنت لا تعرف... السر الكبير... قانون التزامن الاستاتيكي... لقد ذهبت بالفعل إلى مونتي فيديو مرتين وجنيت الكثير من المال، لكن الليلة نخرج مع هيبوليتا لنجني ثروة.

وفجأةً ألقى الشرح المشوَّش:

ـ انظر، من المفترض أنك تضع مبلغاً على الثلاث كرات الأولى، واحداً لكل اثني عشر. إذا لم تظهر ثلاثة أرقام مختلفة، فإنه ينتج عدم توازن بالضرورة. تضع علامة، حينها، بنقطة ألف

الفائز. بالنسبة للكرات الثلاث التالية، سيبقى الصفّ هو نفسه الذي قمتَ بتحديده مسبقاً. بالطبع، رقم صفر غير محسوب، وستلعب العشرات في سلسلة من ثلاث كرات. ثم تقوم بزيادة المبلغ في الصف الذي لا يحتوي على علامة بمقدار وحدة واحدة. وتقلِّل واحد ـ أعني بوحدتي ـ الصف الذي يحتوي على ثلاث علامات، وتتيح لك هذه القاعدة المفردة استنتاج الوحدة الأصغر من الوحدات الأكبر، ويتم لعب الفرق على الصف أو الصفوف وفقاً لتلك النتيجة.

لم يفهم أردوسين. لقد كَبَحَ رغبته في الضحك مع نماء نسبة الأمل لديه، لأن إرجويتا كان مجنوناً بلا شك. فقال:

ـ يكشف يسوع تلك الأسرار لمن امتلأت أرواحهم بالقداسة.

عقَّب إرجويتا: «والأغبياء أيضاً». مصطنعاً نظرةً ساخرةً، بينما يغمز بجفنه الأيسر. منذ أن تعاملت مع تلك الأشياء الغامضة، ارتكبت أخطاء جسيمة، على سبيل المثال، الزواج من تلك العاهرة.

ـ وهل أنت سعيدٌ معها؟

ـ الإيمان بوجود الخير في الناس، عندما يحاول العالم كله أن يغرقك بالتشهير بك كمجنون.

عبس أردوسين بنفاد صبر، ثم:

ـ كيف لا تريد أن يعتبرك الناس مجنوناً؟ لقد كنت، على حدّ تعبيرك، مذنباً عظيماً. وفجأةً تحوّلت، ثم تزوَّجت من عاهرة لأن هذا مكتوبٌ في الكتاب المقدس. والآن تتحدَّث إلى الناس عن الختم الرابع والحصان الأصفر... بالطبع... يجب أن يعتقد الناس أنك مجنون لأنك لا تعرف حتى شيئاً عن هذه الأشياء ولو من بعيد. ألا يعتبرونني أيضاً مجنوناً لأنني قلت إنه يجب وضع مغسلة للكلاب وصُنع أزرار القمصان من المعدن؟ لكنني لا أعتقد أنك

مجنون. لا، لا أعتقد ذلك. ما فيك هو فائضٌ من الحياة والمحبة وحب الصداقة. الآن، بعد أن كشف لك يسوع عن سِرّ لعبة الروليت يبدو لي ليس ممتعاً كما يجب.

ـ فزت بخمسة آلاف بيزو في المرّتين السابقتين.

ـ لنقل إنها حقيقة. لكن ما يُنْقِذُك ليس سر لعبة الروليت، بل حقيقة أنك تتمتع بروح جميلة. أنت قادر على فِعل الخير، أن يحفّزك رجلٌ على أبواب السجن...

ـ «هذا صحيح»، قاطعه إرجويتا. لاحظ أن هناك صيدلانيّاً آخر في البلدة، وهو رجل عجوز بخيل، سرق الابن منه خمسة آلاف بيزو، فجاء ليطلب مني النصيحة. هل تعلم ما الذي نصحته به؟ أن يهدد الأب بسجنه بتهمة بيع الكوكايين إذا أبلغ عن ذلك.

ـ أترى كيف أفهمك؟ أردتَ أن تنقذ روح الرجل العجوز بجعْلِه يرتكب خطيئةً تجاه الابن والتي سيندم عليها طوال حياته. أليس كذلك؟

ـ نعم، في الكتاب المقدس مكتوب: «ينقسم الأب على الابن والابن على الأب».

ـ هل ترى؟ أنا أفهمك. لا أعرف ما هو مصيرك؛ مصير الرجال دائماً غير مؤكد. لكن أعتقد أن أمامك طريقاً رائعاً. أتعرف؟ إنه طريقٌ غريبٌ.

ـ سأكون ملك العالم. أنت تدرك؟ سأربح المال الذي أريده على كل الروليت. سأذهب إلى فلسطين والقدس وأعيد بناء هيكل سليمان العظيم.

ـ وسوف تنقذ الكثير من الطيبين من الضيق. كم عدد الذين احتالوا على أصحاب عملهم عندما دعت الحاجة وسرقوا أموالاً ائتُمِنواعليها.

ـ أتعرف؟ القلق... الرجل المكروب لا يدرك ماذا يفعل... اليوم يسرق بيزو واحداً، غداً خمسة، بعد غدٍ عشرين، وعندما يكتشف أنه مدينٌ بمئات البيزو. ويفكّر الرجل. مبلغ قليل...

وفجأةً فوجئ باختفاء خمسمئة، لا، ستمئة بيزو وسبعة سنتات. أتدرك؟ هؤلاء هم الأشخاص الذين يجب إنقاذهم؛ المكروبون، المحتالون.

تأمل الصيدلي لوهلة. تعبير خطير سرعان ما ذاب على وجهه المنتفخ؛ ثم أضاف بهدوء:

ـ أنت مُحِقٌّ. العالم مليء بـ«بالبلهاء»، بالأشخاص غير السعداء، لكن كيف نعالج تلك المعضلة؟ هذا ما يقلقني. كيف نعيد تقديم الحقائق المقدسة لأولئك الذين ليس لديهم إيمان؟

ـ ولكن ماذا إذا كان ما يحتاجه الناس هو المال، لا الحقائق المقدسة؟

ـ لا، هذا يحدث بسبب نسيان الكتاب المقدس. الرجل الذي يحمل الحقائق المقدَّسَة في باطنه، لا يسرق من ربِّ عَمَلِه، ولا يخيّب آمال الشركة التي يعمل بها، ولا يضع نفسه في وضعٍ يؤدي به إلى السجن يوماً.

ثم حَكَّ أَنْفَهُ بعمقٍ واستمرَّ:

ـ أيضاً، من منّا لا يخبرك أن هذا هو الأفضل؟

ـ من سيصنع الثورة الاجتماعية، إن لم يكن النصّابون، والتعساء، والقتلة، والمحتالون؛ أولئك الوضعاء الذين يعانون بلا أمل؟ أم أنك تعتقد أن الثورة سوف يقوم بها السفهاء والتجّار؟!

ـ حسناً، حسناً. لكن إلى أن تأتي الثورة الاجتماعية، ما الذي بوسع هذا البائس أن يفعله؟ ماذا أفعل؟

أمسك أردوسين بذراع إرجويتا، ثم هتف:

ـ لأنني على بُعد خطوة واحدة من السجن، أتعلم؟ لقد سرقتُ ستمئة بيزو وسبعة سنتات.

غمز الصيدلي ببطءٍ بجفنه الأيسر، ثم قال:

ـ لا تقلق. لقد حان وقت الضيق الذي يتحدث عنه الكتاب المقدس. ألم أتزوّج العرجاء؟ ألم ينقسم الابن على الأب والأب على الابن؟ الثورة أقرب إلينا من أيّ وقتٍ مضى. ألست أنت المحتال والذئب الذي يُهلِك القطيع؟

ـ لكن أخبرني، ألا يمكنك إقراضي تلك الستمئة بيزو؟

هزَّ الآخر رأسه ببطء:

ـ أقسم سأكون مديناً لك بها.

فجأةً حدث شيء غير متوقع:

نهض الصيدلي، ومدَّ ذراعه، وطقطق بأطراف أصابعه، وصرخ منادياً على النادل في المقهى الذي كان يحدِّق في المشهد بدهشة:

ـ ابتعد، أيها الأبله، ابتعد.

احمرَّ وجه أردوسين من الخجل، ثم ابتعد. عندما أدار رأسَه تجاه مكان جلوسه، رأى أن إرجويتا كان يلوِّح بذراعيه بينما يتحدث إلى النادل.

الكراهية

كانت حياته تنزف. ألَمُه كان يتفكَّك ويمتد نحو الأفق، لقد أجرى مقابلاتٍ عن بُعد ومن خلال «عربات» الترام، وفجأةً شعر أنه كان يخطو على آلامه الخاصّة، التي ترقد تحت قدميه. تماماً مثل الخيول التي يعوق سيرها ثورٌ، وتضطرب أحشاؤها من الرعب، فإنها مع كل خطوة تخطوها تتجمد الدماء في شرايينها. كان يتنفَّس ببطءٍ ويأسٍ من الوصول. إلى أين؟ لم أكن أعرف حتى.

في شارع بيدراس، جلس على عتبة منزل غير مأهول. مكث عدة دقائق، ثم بدأ يمشي بسرعة، وكان العرق يسيل على وجهه كأنه في نهارٍ صيفيٍّ لافح. وهكذا وصل حتى سيريتو ولافال.

وضع يده في جيبه فوجد حفنةً من الأوراق النقدية، ومن ثم دخل الحانة اليابانية. اصطفَّ سائقو السيارات والأشرار حول الطاولات. كان هناك رجلٌ أسود يرتدي طوقاً من الفشار وحذاءً أسود من القماش، يسحب الحشرات من إبطه، وثلاثة بولنديين، بخواتم ذهبية سميكة في أصابعهم، بلهجتهم غير المفهومة، كانت تدور حواراتهم حول بيوت الدعارة والقوّادين. في ركن آخر، كان العديد من سائقي سيارات الأجرة يلعبون الورق. بينما الرجل الأسود الذي كان ينظّف نفسَه يدور في المكان، كما لو كان يطلب بعينيه أن يصادق الجمهور على عمليته، لكنَّ أحداً لم ينتبه إليه.

طلب أردوسين القهوة، وأسند جبهته على يديه وجلس محدقاً في الرخام.

ـ من أين أتحصل على ستمئة بيزو؟

ثم فكَّر في غريغوري بارسوت، ابن عم زوجته.

لم يعد يشغله موقف إرجويتا. تجسَّدت أمام عينيه الصورة المجردة للآخر، لغريغوريو بارسوت، حليق الرأس، عظيم الأنف كمنقار طائر جارح، ذي العيون الخضراء والأذنين الطويلتين كأذني الذئب. انتابت يديه قشعريرةٌ حينما رآه، وأصاب الجفاف فمَهُ. سيطلب منه المال مرةً أخرى تلك الليلة. ربما في التاسعة والنصف سيكون بالمنزل كما هي عادته وسأقابله، سيقوم بسرد وابلٍ من المحادثات والذرائع الغامضة لزيارته، سيلٌ من الكلمات التي حملته إلى أردوسين، الذي مع جفاف فمه ورعشة يديه لن يتجرّأ على طرده من منزله.

لا بد وأن غريغوري بارسوت قد أدرك النفور الذي يشعر به أردوسين تجاهه، إذ إنه لأكثر من مرة قال له:

ـ يبدو أنك تكره محادثتي، أليس كذلك؟ الكُره الذي منعني من الذهاب إلى المنزل في كثيرٍ من الأحيان.

سارع أردوسين إلى إنكار ذلك، وحاول أن يُبدي اهتماماً بالثرثرة مع الآخر، جلسا يتحدّثان لساعات في آنٍ واحدٍ، بلا سببٍ ولا توقف ولا انقطاع، والتلصُّص دائماً على الزاوية الجنوبية الشرقية من الغرفة. ماذا كان يفعل في مثل هذا الموقف؟ وجد أردوسين مواساةً لنفسه أثناء تلك الحوارات المزعجة في التفكير بأنّ الآخر مرَّ ببعض المعاناة المأساوية غير المسبَّبة.

في إحدى الليالي قال غريغوري، بحضور زوجة أردوسين، التي نادراً ما حضرت هذه المحادثات، وكانت تحبس أنفاسها في غرفة أخرى حتى لا تسمع الصوت: ـ كم سيكون رائعاً لو أُصِبْتُ بالجنون ثم أطلقتُ النار عليك، ومن ثم قتلتُ نفسي لاحقاً!

كانت عيناه ما تزالان موجّهتين إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من الغرفة، وابتسم بأسنانه المدبَّبة، كما لو أن الكلمات التي تحدَّثَ بها من قبل لم تكن أكثر من مزحةٍ. لكن إلسا، التي نظرت إليه على محمل الجد، أخبرته: ـ اجعلها آخر مرة تتحدَّث فيها بهذه الطريقة في منزلي. إذا لم تفعل، فلن تضع قدمك هنا مرةً أخرى.

حاول غريغوري الاعتذار لكنها خرجت، وطوال الليل لم تظهر مرةً أخرى.

استمر الرجلان في تجاذب أطراف الحديث، الآخر أكثر شحوباً، وجبهته ممتلئة بتجاعيد مضطربة، مرَّرَ يدَهُ الضخمة من حينٍ لآخر على خصلات شعْرِه ذي اللون البرونزي.

لم يدرك أردوسين سبب كراهيته لبارسوت. بدا له الأمر في قمة الوقاحة، بل إنه يتناقض مع بعض أحلام غريغوري، التي بدت له طبيعيةً غامضةً وغريبةً وحساسةً، تحرّكها المشاعر

غير القابلة للتفسير.

في أوقات أخرى، تحوَّلت وقاحته الظاهرة أو الحقيقية إلى شيء مقزز، وأمام أردوسين، الذي قمع غضبه من خلال طمس زاوية شاحبة على شفتيه، ألقى بارسوت كلاماً بذيئاً لا مسمى له، من أجل الوصول الى متعته الوحيدة المتمثلة في إغضاب الآخر.

كان ألماً غير مرئيٍّ بغيضاً، بلا نهاية، ومزعجاً للغاية، لدرجة أن أردوسين بعد مغادرة بارسوت، تعهَّد بعدم استقباله في اليوم التالي. قبل ساعات قليلة من حلول الظلام، كان أردوسين يفكِّر فيه بالفعل.

في كثير من الأحيان سيصل الآخر، وقبل أن يجلس كان يبدأ في الكلام.

ـ تعلم... رأيتُ حلماً غريباً الليلة الماضية.

تحدث بارسوت ببطء، وهو محدقٌ في الركن الجنوبي الشرقي من الغرفة، دون أن يبتسم، مع تعبير مؤلم على وجهه القذر، بلحيته التي نبتت قبل ثلاثة أيام، عن شعور بالرعب كرجلٍ يبلغ من العمر سبعةً وعشرين عاماً، والقلق الذي سبَّبَتْه غمزةٌ في شكل سمكة عوراء، وربط السمكة ذات العين الواحدة بنظرة متطفلة لسيدة مُسِنَّة تصبو إلى أن يتزوج من ابنتها الوسيطة الروحانية، الحديث عن كل تلك السخافات فجأةً أنسى أردوسين استياءَهُ وأضحى يتساءل ما إذا كان الآخر مجنوناً. كانت إلسا تخيط، غير مبالية بكل شيء، في الحجرة الفاصلة، بينما كان الشعور بالضيق الشديد يكاد يجمّد أردوسين. شعر بقشعريرة من نفاد صبره، وشبَّكَ أصابعه على مفاصل الأصابع، والجهد المبذول لإخفاء هذا الارتعاش، أتعبه. إذا نطق بكلمة، فإنه يفعل ذلك بصعوبة غير عادية، كما لو كانت شفتاه متيبستين مثل ذيل حورية البحر.

مسنداً كوعاً على الطاولة ويُصْلِح ثنايا منطقة الركبة، ويشتكي أحياناً من أن لا أحد يحبُّه، وينظر طويلاً إلى أردوسين بينما يقول هذا. في أحيان أخرى كان يسخر من حاضره ومن

شبح ادَّعى أنه يراه في زاوية مرحاض المنزل الذي كان يعيش فيه، شبح امرأة عملاقة مع مكنسة في يديها وذراعين رفيعتين وخُطَّاف. بحث في بعض المناسبات، اعترف بأنه إذا لم يكن مريضاً سينتهي به الأمر بالمرض. وتظاهر أردوسين بالقلق على صحته، وسأله عن أعراضه، ونصحه بالراحة والنوم، وكما أصرَّ على ذلك، في إحدى المرات ردَّ بارسوت بطريقة غاضبة: ـ هل يزعجك وجودي كثيراً؟

في أوقات أخرى، كان بارسوت يصل مبتهجاً بشكل شرير، كمَرِحٍ سكران صغير، كان قد أشعل النار في خزان نفط، وجلس يتشنج في غرفة الطعام، وهو يربت على ظهر أردوسين، بإصرار مزعج، سائلاً: «كيف حالك؟ كيف تجري الأمور؟ كيف تجري الأمور؟».

ومضت عينا بارسوت، ووقف أردوسين هناك حزيناً، مرتعداً، متسائلاً ما الذي يُخْجِلُه من حضور هذا الرجل، الذي كان يجلس دائماً على حافة الكرسي ويحدِّق بعناد في زاوية غرفة الطعام.

وتجنَّبوا النظر في عيون بعضهم.

كان بينهما جمودٌ مُظْلِمٌ لا نهاية له. إحدى تلك المواقف التي يضطر فيها رجلان يحتقران بعضهما إلى أن يتحمَّل كلٌّ منهما الآخر لأسباب خارجة عن إرادتهما.

كان أردوسين يكره بارسوت، لكن بضغينة مبهَمَة مخادعة، يتكوَّن كرْهُه من أحلام يقظة سيئة وتخيُّلات أسوأ. وما زاد من حدَّة هذه الكراهية هو الافتقار إلى الدافع.

في بعض الأحيان كان يجلس ويخترع حيَلَ الانتقام الرهيبة، وبوجهٍ عبوسٍ كان يربط بين الكوارث. لكن في اليوم التالي، عندما طرق بارسوت الباب الأمامي. ارتجف أردوسين مثل الخائنة عند وصول زوجها، وحتى غضِبَ ذات مرةٍ من إلسا، لأنها تأخَّرَتْ في فتح الباب لبارسوت، مضيفاً تعليقاً يدل على محاولته إخفاء الجُبْن أمامها: ـ سوف يعتقد أننا لا نريد استضافته. لذلك من الأفضل أن نقول له ألا يأتي بعد الآن.

كان الدافع الحسيّ غير موجودٍ، وانتشر الاستياء الداخلي من خلاله مثل السرطان. وجد أردوسين في كل إيماءةٍ من بارسوت سبباً للغضب، وتمنَّى له الموت البشع. وبارسوت، كما لو أنه شعر بمشاعر الآخر، بدأ يُطلق العنان للسانه ويُلقي أكثر السباب فظاظةً وإثارةً للاشمئزاز. وبتلك الطريقة، لم ينسَ أردوسين هذا أبداً.

كان ذلك في المساء عندما ذهبوا من أجل شرب الخمر. وبجوار المشروب، أحضر النادل طبقاً من البطاطس المصنوعة في السلطة مع المستردة. طعن بارسوت قطعةً من البطاطس بعود الأسنان بلهفةٍ شديدةٍ لدرجة أنه سكب السلطة على الرخام الذي اسودَّ بسبب يديه ورماد سجائره.

راقبه أردوسين بانفعال. لذلك، ساخراً، التقط بارسوت قطعة قطعة، وعندما وصل إلى آخر قطعة، فرك بها المستردة المنسَكِبَة على الرخام، ثم وضَعَها في فَمِه بابتسامةٍ ساخرةٍ.

لاحظ أردوسين في اشمئزازٍ ثم قال: «يمكنك أن تلعق الرخام».

رمقه بارسوت بنظرة غريبة شِبْه استفزازية. ثم أحنى رأسه ومسح بلسانه الرخام.

ـ هل أنت سعيد؟

أردوسين شاحب الوجه:

ـ هل جُنِنْتَ؟

ـ ماذا؟ هل ستنتج سلالة سيئة؟

وفجأةً بينما يضحك بلطف، وهو يكرّر ذلك النوع من الجنون الذي كان يعاني منه طيلة فترة الظهيرة، قام بارسوت وهو يتفوّه ببعض التفاهات.

ذلك الفعل لن ينساه أردوسين أبداً: حليق الرأس، الذي اتخذ لوناً برونزيّاً، وشخصٌ منحنٍ فوق الرخام بلسانٍ عالقٍ على اللزوجة التي على الحَجَر الأصفر.

وفي كثيرٍ من الأحيان كان يتخيّل أن بارسوت يتذكّره من ذلك الوقت فصاعداً بالكراهية التي يحملها الشخص لمن كان يثق به كثيراً. لكنه لم يستطع السيطرة على نفسه، لأنه بمجرد وصوله إلى منزل أردوسين، صبَّ دلاءً من المصائب في أذنيه، رغم أنه كان يعلم أن أردوسين يغضب منها.

وأن تلك الأشياء تستثير ثقته، تستثيرها بحنان عابر ولكن عفويّ، حتى أن بارسوت شعر بأن استياءه تجاه الآخر يتبدَّد، حتى عندما كان ينصحه هذا الأخير بجدية. لكن كراهيته تلاشت بشدة، حيث إنَّ نظرةً خفيةً وسريعةً من أردوسين بيَّنَتْ أن الشفقة كانت تتلاشى وظهرت فرحة شريرة قبل أن يتلاشى مشهد حياته جزئياً، لأنه حتى عندما كان لديه المال ليعيش بشكلٍ متواضعٍ بالنسبة للدخل، فقد عانى من رعب الإصابة بالجنون كما حدث مع والده وإخوته.

فجأةً رفع أردوسين رأسه. كان الرجل الأسود ذو العنق الصغير قد انتهى من دورانه والآن كان الثلاثة «ماكروس» يوزعون رزماً من المال على أنفسهم تحت سمع وبصر السائقين الشغوفين الذين، من الطاولة الأخرى، كانوا يرمقونهم بطرف أعينهم. بدا الرجل الأسود وكأنه يعطس تحت تأثير المال، لذلك اضطر إلى النظر بأسف إلى الأشرار.

نهض أردوسين ودفع الحساب. ثم خرج قائلاً: إذا فشلت محاولتي مع غريغوري، فسأستعين بالمُنَجِّم.

أحلام المخترع

إذا كان أحدهم قد أخبر أردوسين، أنه بعد عدة ساعات سيتآمر على قتل بارسوت وأنه سيحضر لحظة هروب زوجته دون اهتراء، فلم يكن ليصدق ذلك.

كان يتجول طيلة فترة الظهيرة. كان بحاجة إلى أن يكون بمفرده، وأن ينسى الأصوات البشرية كي يشعر بأنه منفصل عن محيطه مثل شخص غريب في مدينة فاته القطار في محطته.

سار في شوارع أرينالي سوتال كاوانو المنعزلة، حول زوايا تشاركاسور ودريغيز بينيا، عند تقاطعات مونتي فيديو وشارع كوينتانا، منبهراً بمنظر تلك الشوارع الرائعة في الهندسة المعمارية، ونابذاً البائسين إلى الأبد. جعلت قدماه، على الأرصفة البيضاء، الأوراقَ المتساقطةَ للأشجار تتطاير، وثبَّتَ نظرته على الألواح البيضاوية للنوافذ الكبيرة، ضبابية المنظر بسبب بياض الستائر الداخلية. كان هذا عالماً آخر داخل المدينة المارقة التي يعرفها، عالماً آخر كان قلبه ينبض من أجله الآن بنبضات بطيئة وثقيلة.

توقف، ثم نظر إلى المرائب الفاخرة مثل الباتيناس، وعيدان أشجار السرو الخضراء في الحدائق، التي تحميها جدران من الأفاريز المسننة، أو الدرابزين السميك القادر على إيقاف هجوم الأسد. حيث يمتد الممشى الملبّد بالأحمر بين الأشكال البيضاوية للأبسطة الخضراء. كانت ممرضة ترتدي قبعة رمادية تسير على طول الطريق.

وهو مدين بستمئة بيزو وسبعة سنتات!

كان يحدق لفترة طويلة في الدرابزين، الذي كان يتوهج على الشرفات السوداء كقضبانٍ ذهبية مستديرة، والنوافذ مطلية باللون الرمادي اللؤلؤي أو تبدو كالحليب المخلوط ببضع قطرات من القهوة، والزجاج الذي لا بد أنَّ سُمْكَهُ جعل صور المارّة مشوّشة. هناك ستائر من الشاش فاتحة اللون لدرجة أن أسماءها يجب أن تكون جميلة مثل جغرافيا البلدان البعيدة. كم يجب أن يكون الحب مختلفاً في ظلال ورود الزنبق التي تغمق الضوء وتهدئ الأصوات!

لكنه مدين بستمئة بيزو وسبعة سنتات. وكان صوت الصيدلي يتردد الآن في أذنيه:

ـ أنت محق، العالم مليء بالأشجار من التعساء، ولكن كيف تدرك ذلك؟ بأي طريقة تُعَلِّم الحقائق المقدسة لأولئك الذين ليس لديهم إيمان؟

كان الحزن، مثل إحدى تلك الشجيرات التي يتسارع نموُّها بالكهرباء، ينمو عميقاً في صدره، محاصراً إياه حتى حلْقِه.

متوقفاً، ظن أن كل ندم هو مثل بومة تنتقل من غصن إلى آخر بسبب البؤس. كان مديناً بستمئة بيزو وسبعة سنتات، وعلى الرغم من أنه أراد أن يتدارك ذلك من خلال وضع آماله على بارسوت أو المُنَجِّم، إلا أن أفكاره تباعدت ودخلت نفقاً مظلماً. بدا أن مجموعة الأشعة كما لو أنها تتكئ على الأفاريز. وأن الغبار يملأ درج الشارع. لكنه كان يسير نحو أرض الفرح، منسيَّاً من قبل شركة السكر المحدودة.

ماذا فعل بحياته؟ هل كان هذا هو الوقت المناسب لهذا السؤال أم لا؟ وكيف يمشي إذا كان وزن جسده سبعين كيلو جراماً؟ أم أنه شبح يتذكّر الأحداث على الأرض؟ كم من الأشياء تحركت في قلبه! والآخر الذي تزوَّج عاهرة؟ وبارسوت بخوفه من السمكة ذات العين الواحدة والبكر المتعلقة بالروحانيات؟ وإلسا، التي لم تُسْلِم نفسها له، رمَتْهُ في الشارع؟ هل كان مجنوناً أم لا؟ سأل نفسه هذا السؤال لأنه في بعض الأحيان تفاجأ بشعاع أملٍ بُعِثَ فيه.

فقد تصوَّر أنه من خلال ثقب بداخل مصاريع أبواب بعض هذه القصور كان هناك مليونير «كئيب وقليل الكلام» يتابعه مع توأم مسرحي. (أستخدم كلمات أردوسين بالضبط).

والشيء المضحك أنه عندما ظن أن «المليونير الكئيب قليل الكلام» يمكن أن يراقبه، قام بإبداء وجهٍ نادمٍ متأملٍ، وتوقَّف عن النظر إلى مؤخرات الخادمات المارَّات، متظاهراً بأنه مشلول بسبب الاهتمام الذي قدمه لعمل في الداخل. لأنه قيل إنه إذا رآه «المليونير الكئيب وقليل الكلام» وهو ينظر إلى مؤخرات الخادمات، فإنه سيستنتج من ذلك أنه لم يكن قلقاً لدرجة استحقاق شفقته.

لدرجة أن أردوسين كان يأمل في أن يرسل «المليونير الكئيب والقليل الكلام» له في أي لحظة عندما يلحظ ملامحه، المرسومة بواسطة عضلات تصلَّبَتْ بسبب معاناة سنوات عديدة.

نما هذا الهوس كثيراً بعد ظُهر ذلك اليوم لدرجة أنه اعتقد فجأةً أن رجلاً محتالاً يرتدي سترة ذات خطوط حمراء وصفراء يقف عند مدخل الفندق، ويتفحصه بوقاحة، هو جاسوس «المليونير الكئيب والقليل الكلام».

ناداه الخادم. فتَبِعَهُ. عبروا حديقةً مليئةً بنباتات الصبار، ودخلوا غرفةً ثم ظلّوا بمفردهم لبضع دقائق. كان المبنى كله مظلِماً. ثم أضاء مصباح في زاوية الغرفة.على حافة البيانو يوجد دفتر يحتوي على مقطوعات موسيقية تفوح من أوراقه رائحة عطر منذرة بأن العازف أنثى. يوضع فوق إحدى النوافذ المغطاة بالكتان البنفسجي، تمثال رخامي لامرأة مهجورة. كانت وسائد النوافذ مبطنة بأقمشة تشبه اللوحات التكعيبية، وعلى المنضدة كانت هناك منافِضُ سجائر سوداء برونزية وبوليشينيل من ألف لون.

في أي وقت من حياته كان داخل تلك الغرفة التي اقتحمت مخيلته الآن؟ لم يستطع تذكُّر ذلك. لكنه رأى إطاراً عظيماً من خشب الأبنوس ترتفع حوافه المتوازية نحو سماء من الستان الأبيض، يلقي ضوءه الجصّي على المرسى: جسر خشبي مشؤوم، تحت أعمدته يوجد عددٌ كبيرٌ من الرجال غير الواضحين، ملطّخين بظلال حمراء، ويحملون حزماً كبيرة أمام بحرٍ من أنابيب الحديد، الدموي، والذي يشكّل مع ارتفاعه الذي على شكل زوايا قائمة رصيفاً حجرياً تعترضه هياكل وقضبان وأوناش.

كانت إلسا تتحرك داخل تلك الغرفة عندما كانت ما تزال عشيقته. نعم ربما، لكن لماذا أتذكَّر هذا؟ كان هو الرجل المحتال، الرجل ذا الحذاء الممزق، ذا ربطة العنق البالية، والبدلة الملطَّخَة، الذي يكسب رزقه من الشارع بينما تغسل المرأة المريضة ملابس في المنزل. كان هو كل هذا ولا شيء أكثر من ذلك. ولهذا أطلق عليه لقب «المليونير الكئيب وقليل الكلام».

أردوسين، مستمتعاً بحلمه، يعرض عليه منتجاً مصنوعاً جزئياً من البلاستيك، من خلال المساحة من الوقت والصور التي أُعيد بناؤها على نفقة السيد العظيم غير المرئي، لم يرغب في التوقف عن مقابلته مع «المليونير الكئيب وقليل الكلام» الذي عرض عليه المال لتنفيذ اختراعاته. لكن، مثل قراء المسلسلات البوليسية الذين سارعوا للوصول إلى خاتمة المؤامرة تخطّوا «طريقاً مسدودة» للرواية، تجاهل أردوسين بعض التكوينات الشيقة لخياله، وعاد إلى الشارع، رغم أنه كان في الشارع.

بعد ذلك، ترك ناصية شارع تشاركاسوتا لكاهوانو أو أريناليسورو دريغيز بينيا، وبدأ يمشي على عجل.

وضيع المُتَمّاتِ فقدان الأمل.

سأنجح، نعم سأنجح. بأموال «المليونير الكئيب وقليل الكلام» كنت سأنشئ مختبراً كهربائياً، وأكرس نفسي لدراسة أشعة بيتا، والنقل اللاسلكي للطاقة، وذلك الخاص بالموجات الكهرومغناطيسية، ودون أن أفقد شبابي، مثل الشخصية العبثية في الروايات الإنجليزية، سوف أتقدم في العمر؛ فقط وجهي سيصبح شاحباً له لون بياض الرخام، وستغري عيناي المتلألئتان، مثل عيون الساحر، جميعَ عذارى الأرض.

حان وقت الظهيرة، وتذكَّر فجأةً أن الشخص الوحيد الذي يمكن أن ينقذه من وضْعِه الرهيب هو المُنَجِّم. وقد أثار هذا الحدث كل أفكاره. ربما كان الآخر لديه مال. حتى أنه كان يشك في أنه قد يكون مندوباً بلشفياً للقيام بالدعوة إلى الشيوعية في البلاد، حيث كان لديه مشروع فريد للغاية للمجتمع الثوري. دون تردد، طلب سيارة وأمر السائق بأخذه إلى محطة كونستي توسيون، وهناك اشترى تذكرة سفر إلى تيمبرلي.

المُنَجِّم

يقع المبنى الذي يسكنه المُنَجِّم في وسط مزرعة مشجَّرة. كان المنزل فسيحاً، ويمكن رؤية أسطحه حمراء اللون من مسافة بعيدة مرتفعة فوق غابة من الأشجار البرية. من خلال الفجوات التي خلفتها الانبعاجات، ووسط التضخم الحقيقي للأعشاب والنباتات المتسلقة، حلَّقت الحشرات السمينة ذات المؤخرة السوداء طيلة اليوم وسط أمطار دائمة من الأعشاب وسيقان النباتات. في مكانٍ ما ليس بعيداً عن المنزل، دارت رحى عجلة الطاحونة ثلاثية الشفرات على عامود حديدي صدئ، ومن خلفه، على الإسطبل، يمكن تمييز البلورات الزرقاء والحمراء لمناطق دمَّرها الصدأ. خلف الطاحونة والمنزل، وراء الأسوار، امتدت المرتفعات الخضراء من جبل الأوكالبتوس، مما أدى إلى غرق القمم والمرتفعات في سماء زرقاء بحرية.

اشتمَّ أردوسين وردة زهر العسل، وعبر قطعة الأرض إلى المنزل. بدا له الأمر كأنه في الريف، بعيداً عن الحضر، وكان منظر المبنى يبعث على السرور. على الرغم من كونه مسطحاً، فإنه يتكون من طابقين، مع شرفة متداعية في الطابق الثاني ومجموعة متقشرة من الأعمدة اليونانية في القاعة، إلى حيث صعد درج صعب، تصطفُّ عليه أشجار النخيل.

كانت الأسطح الحمراء المتدلية بشكلٍ غير مباشرٍ، لتحمي مع الأفاريز المناور والفتحات الصغيرة للنوافذ، ومن خلال الأوراق الحارة لأشجار الكستناء، وفوق تيجان الرمان الملطخة بعلامات نجمية قرمزية، يمكن رؤية ديكٍ من الزنك يهزُّ ذيلَهُ الملتوي لكل الرياح بالحديقة، بشكلها المعقد، ظهرت، بحجم بستان، والآن في سكون الظهيرة، تحت أشعة الشمس التي غمرت الفضاء في جو من الزجاج اللؤلؤي، سكبت شجيرات الورد أقوى عطر لها، متغلغلةً تماماً في الفضاء الذي بدا وكأنه مليءٌ بجو أحمر وبارد مثل تيار من الماء. يعتقد أردوسين: ـ حتى لو كان لدي قارب فضّيّ بأشرعة ذهبية ومجاديف عاجية، وتحول المحيط إلى سبعة ألوان ناعمة، وعلى القمر توجد مليونيرة تمدُّ إليَّ يدها وتقبلني، فسيظلّ حزني هو نفسه... لكن هذا لا حاجة لأن يُقال. ومع ذلك، من الأفضل أن أعيش هنا أكثر من هناك. هنا يمكن أن يكون لديك معمل.

هناك صنبور غير مُحكَم الإغلاق يقطر ماءً بداخل برميل. تحت شرفة قديمة الطراز، يرقد كلب، فقط عندما صعد أول درجات السلم ظهر الشكل الضخم للمنجم، من خلال الباب، مغطى برداء أصفر والقبعة المسحوبة لأعلى الملقاة على جبهته، يبرز الظل المعين لوجهه الأبيض. كانت خيوط قليلة من الشعر المجعد تتدلّى عبر صدغيه، ذو أنف منحرف بشكل ملحوظ إلى اليسار، مع وجود الحاجز المكسور في المنتصف.

تحركت العيون السوداء الدائرية بشكلٍ حادٍّ تحت حواجبها المنتفخة، وهذا الوجه بخديه القاسيين، المبطنين بالخطوط المنتفخة، أعطى انطباعاً بأنه منحوت من الرصاص. يجب أن يكون وزن هذا الرأس كثيراً!

آه! إذاً أنت هو؟ تعال. سأقدمك إلى روفيان ميلانكوليك.

عبروا القاعة المظلمة المتعفنة، ثم دخلوا إلى مكتب ذي جدران مزينة بأوراق خضراء باهتة اللون. في الواقع كانت الغرفة سيئة، بسقفها المرتفع الممتلئ بنسيج العنكبوت والنافذة الضيقة التي تغطيها فروع الأشجار. في قشرة دولاب عتيق، موجود في الزاوية، يتحوَّل الوضوح الأزرق إلى ظلمة ساطعة.

كان جالساً على كرسي بذراعين مبطّن بمخمل أخضر رثّ، رجل يرتدي زيَّاً رماديَّاً، وموجة سوداء من الشعر تغطّي جبهته، مرتدياً حذاءً رمادياً فاتح اللون في منطقة الكاحل. تموَّج الرداء الأصفر للمُنَجم عندما اقترب منه الغريب.

ـ أردوسين، سوف أقدم لكم أرتور وهافنر.

في مناسبة أخرى، كان المحتال سيقول شيئاً آخر للرجل الذي وصفه المُنَجِّم بأنه هو روفيان ميلانكوليك، الذي، بعد أن صافح أردوسين، مدَّ ساقيه على كرسي بذراعين، مسنداً خده المائل الى الزرقة على ثلاثة أظافر متلألئة. ونظر أردوسين إلى ذلك الوجه شبه المستدير بتراخٍ وسلام، وأنكر فقط على الرجل القيام بغمزة ساخرة مؤثرة من مؤخّر

عينيه، وكذلك حركة رفع حاجب أكثر من الآخر عند الاستماع إلي ما يتفوّه به. ميّزَ أردوسين وجود شيء راقد في جنب واحد، بين السترة والقميص الحريري الذي كان يرتديه روفيان، الطرف الأسود للمسدس.

لا شك أن الوجوه لا تعني الكثير في هذه الحياة.

ثم أدار روفيان رأسه مرةً أخرى إلى خريطة للولايات المتحدة في أمريكا الشمالية، حيث طلب من المُنَجِّم التقاط قلم. ثم واقفاً بالفعل، أخذت ذراعه الصفراء تقطع البحر الكاريبي الأزرق، قائلاً: ـ كو كلوكس كلان يُقال إنَّ لديها مئة وخمسين ألف تابع فقط في شيكاغو، ومئة ألف تابع في ولاية ميسوري. يقال إن هناك أكثر من مئتي «كهف» في أركنساس. في ليتل روك، تُدعى الإمبراطورية غير المرئية لأن جميع القساوسة البروتستانت مرتبطون بالأخوة. في تكساس، تهيمن تماماً على مدن دالاس، فورت، هيوستن، بومونت. في بينغهامتون، مقر إقامة سميث، الذي كان جراندراغون أوف ذا أوردر، كان هناك 75000 من المنتسبين لها، وفي أوكلاهوما كان لديهم «مشروع قانون» صادر عن الحكومة، بوقف والتون الحاكم عن العمل، لاضطهادهم، بطريقة تدل عملياً على أن الدولة كانت حتى وقت قريب تحت سيطرة الكلان.

بدا معطف المُنَجِّم الأصفر مثل زيّ كاهن بوذا.

تابع المُنَجِّم:

ـ هل تعلم أن الكثير من الرجال قد حُرِقوا أحياء؟

عقَّب روفيان: «نعم»، موافقاً؛ «لقد قرأت البرقيات».

كان أردوسين الآن يتفحص الروفيان ميلانكوليك.

هذا هو الاسم الذي أطلقه على المُنَجِّم، لأن القواد أراد الانتحار منذ سنوات عديدة. لقد كانت نقطة مظلمة في حياته. في ليلة وضحاها، أصيب هافنر الذي كان يستغل البغايا لفترة طويلة بطلق ناري في صدره بجوار القلب. بينما تقلُّص العضو في التوقيت الصحيح لدخول القذيفة إلى الجسم أنقذه من الموت. ثم، بالطبع، واصل حياته كما كانت، ربما بطريقة أكثر لياقة قليلاً من تلك البادرة التي لم يستطع أي من رفاقه في الفريسة تفسيرها. تابع المُنَجِّم: ـ جمعت كوكلوكسكلان الملايين تحت لحائها.

تمدَّدَ الروفيان مجيباً:

ـ نعم، والتنين. هذا فعلاً تنين، يُحاكم على أنه محتال.

تجاهل المُنَجِّم الرد:

ـ ما المانع من أن يكون هنا في الأرجنتين أيضاً مجتمع سرّيّ يصل إلى نفس القدر من القوة مثل ذلك الذي هناك؟ وأنا أتحدث إليكم بصراحة. لا أعرف ما إذا كان مجتمعنا سيكون بلشفياً أم فاشياً. أحياناً أميل إلى الاعتقاد بأن أفضل شيء أفعله هو إعداد سلطة روسية لا يفهمها حتى الله. لا أعتقد أنه يمكنك طلب المزيد من الصراحة مني في هذه المرحلة. انظر، إن ما أعتزم فعله في الوقت الحالي هو صنع كتلة تتوطد فيها كل الآمال البشرية الممكنة. خطتي هي خلق ما هو أفضل من البلاشفة الشباب والطلاب والبروليتاريين الأذكياء. بالإضافة إلى ذلك، سنرحب بمن لديهم خطة لإصلاح الكون، والموظفين الذين يطمحون إلى أن يكونوا أصحاب الملايين، والمخترعين الفاشلين ـ لا تأخذ الأمر كأمر مسلَّم به، أردوسين ـ العاطلين عن العمل، أولئك الذين عانوا للتَّو من تجربة فاشلة وتركوا في الشارع دون معرفة إلى أي اتجاه ينظرون.

تذكر أردوسين المهمة التي أوصلته إلى منزل المُنَجِّم، وقال:

ـ يجب أن أتحدث معك.

«انتظر لحظة، سأكون معك على الفور»، وتابع: «قوة هذا المجتمع لن تنبع مما يريد الشركاء تقديمه، ولكن مما ستنتجه بيوت الدعارة المرتبطة بكل خلية. حينما أتحدث عن مجتمع سري، فأنا لا أعني النوع الكلاسيكي من المجتمع، بل أعني مجتمعاً فائق الحداثة، حيث يكون لكل عضو وتابع مصالح، ويجني أرباحاً، لأنه بهذه الطريقة فقط يمكن ربطهم أكثر وأكثر بالأهداف التي لن يعرفها سوى القليل. هذا هو الجانب التجاري.

ستدرُّ بيوت الدعارة دخلاً لدعم التداعيات المتزايدة للمجتمع. في سلسلة الجبال سنقيم مستعمرة ثورية.

هناك، سيدرس المبتدئون دورات في تكتيكات أكرا، والدعاية الثورية، والهندسة العسكرية، والمنشآت الصناعية، حتى يتمكَّن هؤلاء التابعون، في اليوم الذي يغادرون فيه المستعمرة، من إنشاء فرع للمجتمع في أي مكان.

هل تفهمني؟ سيكون للجمعية السرية أكاديمية خاصة بها، أكاديمية للثوار.

دقت الساعة المعلقة من الحائط خمس دقات. أدرك أردوسين أنه لا يمكن أن يضيع المزيد من الوقت، وصرخ:

ـ آسف لمقاطعتكم. لقد جئت في عمل جاد. هل لديك ستمئة بيزو؟

وضع المُنَجِّم قلمه وعقد ذراعيه:

ـ ما مشكلتك؟

ـ إذا لم أُعِدْ ستمئة بيزو إلى مصنع السكر غداً، فسوف يرمون بي في السجن.

نظر الرجلان إلى أردوسين بفضول.

لا بد أنه عانى كثيراً ليعرضَ طلَبَهُ بهذا الشكل.

تابع أردوسين:

ـ من الضروري أن تساعدني. لقد قمت باختلاس ستمئة بيزو في بضعة أشهر. لقد تم الإبلاغ عن أن السارق مجهول. إذا لم أردّ النقود غداً، فسوف يضعونني في السجن.

ـ وكيف سرقت هذا المال؟

ـ حدث الأمر ببطء.

قام المُنَجِّم بمداعبة لحيته بقلق.

ـ كيف حدث هذا؟

كان على أردوسين أن يشرح نفسه مرةً أخرى. قام التجار، عند استلام البضائع، بالتوقيع على إيصال أقروا فيه بأنهم مدينون بالمبلغ وسيتم تسليمه على دفعات. كان أردوسين يتسلم، بصحبة اثنين من المحصلين، كل شهر المبالغ التي كان يتوجب عليهم توريدها خلال الأيام الثلاثين التالية.

وظلَّت الإيصالات التي ادَّعوا عدم تحصيلها في حوزتهم حتى طلب التجار إلغاء الدين. وتابع أردوسين:

ـ لاحظوا، إن إهمال أمين الصندوق حدث بحيث إنه لم يُخفِ أبداً القسائم التي قلنا إننا لم نجمعها، إذ إنه قام بإدخال الحساب الذي تم تفعيله واختلاسه في قالب التحصيل مع الأموال القادمة من حساب جمعناه لاحقاً. هل يمكنكم ملاحظة ذلك؟

كان أردوسين هو قمة ذلك المثلث الذي شكَّلَه الرجال الثلاثة الجالسون. الروفيان ميلانكوليك والمُنَجِّم ينظران إلى بعضهما البعض من وقت لآخر. هافنر ينفض الرماد من سيجارته، ثم، مع حاجب أعلى من الآخر، استمر في فحص أردوسين من الرأس إلى أخمص قدميه. وفي النهاية، طرح عليه هذا السؤال الغريب: ـ وهل وجدت أيَّ رضا في السرقة؟

ـ لا، لا شيء.

ـ ومع ذلك، كيف تمشي بهذا الحذاء المقطَّع؟

ـ لقد كنت أكسب القليل جداً.

ـ ولكن ماذا عمّا سرقت؟

ـ لم يخطر ببالي قط أن أشتري حذاءً بهذا المال.

وكان هذا عين الصواب. سرعان ما تبخَّرت المتعة التي شعر بها في البداية في امتلاك ما لا يخصه مع الإفلات من العقاب. اكتشف أردوسين يوماً ما بداخله القلق الذي تمكن من أن يجعل السماء المشمسة تبدو سوداء بالسخام الذي لا تراه إلا الروح الحزينة.

عندما تحقق من أنه مدينٌ بأربعمئة بيزو، أصابته الصدمة بالجنون. لذلك أنفق المال بطريقة غبية ومحمومة. لقد اشترى الحلوى، التي لم يشعر أبداً بالانجذاب تجاهها، كان لديه سرطان البحر وحساء السلاحف والبطاطا المقلية على الغداء، في المطاعم حيث يكون الحق في الجلوس بجانب الأشخاص ذوي الثياب الجيدة باهظ الثمن، وشرب المشروبات الكحولية باهظة الثمن والنبيذ البلاند لذوقه دون الإصابة بالحساسية، ومع ذلك فقد كان يفتقر إلى الأشياء الأكثر ضرورة لحياة متواضعة، مثل الملابس الداخلية والأحذية، روابط عنق.

كان يتصدق كثيراً وكان يترك للنُدُل الذين يقدمون له المشروب الكثير من البقشيش، كل ذلك لإزالة آثار تلك الأموال المسروقة التي كان يحملها في جيبه، ومن ثم يسرق دون عقاب في اليوم التالي.

ـ سأل هافنر بإصرار: «إذاً لم يخطر ببالك شراء الجوارب؟».

ـ حقاً، الآن بعد أن جعلتني ألاحظ ذلك، يثير الأمر فضولي أيضاً، لكن الحقيقة هي أنني لم أفكر أبداً في أن الأموال المسروقة يمكن أن تشتري مثل هذه الأشياء.

ـ وماذا بعد، على ماذا أنفقت المال؟

ـ أعطيت مئتي بيزو لعائلة صديقة، عائلة سبيلا، لشراء مجمع وإنشاء معمل صغير للطلاء الكهربائي، لصنع الوردة النحاسية، وهي...

ـ أنا أعرفها بالفعل.

أجاب المُنَجِّم: «نعم، كنت قد أخبرتك بذلك بالفعل».

ـ وماذا عن الأربعمئة الأخرى؟

ـ لا أعلم. أنفقتها بطريقة سخيفة.

ـ والآن ماذا ستفعل؟

ـ أنا لا أعرف.

ـ ألا تعرف أي شخص يمكنه مساعدتك؟

ـ لا أحد. سألت أحد أقارب زوجتي، بارسوت، قبل عشرة أيام. قال لي إنه لا يستطيع.

ـ هل سيضعونك في السجن إذاً؟

ـ واضح.

التفت المُنَجِّم إلى القواد وقال:

ـ أنت تعلم بالفعل أنني أمتلك ألف بيزو. هذا هو أساس كل مشاريعي. بالنسبة لك يا أردوسين، الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أعطيه لك هو ثلاثمئة بيزو. وأيضاً يا صديقي ما الذي ستفعله أنت!

وفجأةً نسي أردوسين أمر هافنر وصرخ قائلاً:

ـ إنه الألم، كما تعلم، ذلك الألم «اللعين» الذي يجرّه.

ـ كيف هذا؟ قاطعه روفيان.

ـ قلت إنه الألم. أنت تسرق، تحتال لأنك في كرب. أنت تمشي في الشوارع مع الشمس الصفراء التي تشبه شمس الطاعون. بالتأكيد يجب أن تكون قد مررت بهذه المواقف. أحمل خمسة آلاف بيزو في محفظتي ومع ذلك أشعر بالحزن. وفجأة فكرة صغيرة تدعو إلى السرقة. في تلك الليلة لم أستطع النوم من الفرح. في اليوم التالي قمت بتجربة الخطة مرتجفاً ونجحت لدرجة أنه لم يعد لدي خيار سوى الاستمرار، كما يحدث عندما تحاول الانتحار. عند الانتهاء من هذه الكلمات، جلس هافنر على الكرسي وشبَّكَ ركبتيه بيديه. بينما كان المُنَجِّم يود إسكات أردوسين.

كان شيئاً مستحيلاً، وتابع:

ـ نعم، كما يحدث عندما تحاول الانتحار. لقد تخيلت ذلك عدة مرات. لقد سئمت من كوني قوّاداً. آه، إذا كنت تعرف فقط مدى رغبتي في معرفة ذلك الشعور!

قال لي: لا بد أن هذا القواد غريب. بالطبع، من بين مئة ألف شخص، مثلك، يعيشون على الدخل الذي توفره النساء، يوجد واحد ممن هو على شاكلتك. لقد سألتني إذا كنت أستمتع بالسرقة. وأنت، هل تشعر بالسعادة لكونك قوّاداً؟ أخبرني: هل تشعر بالسعادة؟ لكن ما هذا بحق الجحيم! لم آتِ إلى هنا لأقدّم تفسيرات، كما تعلم، ما أحتاجه هو المال وليس الكلمات.

قام أردوسين، وهو الآن يمسك، يهزّ، بين أصابعه، حافة قبعته. كان يحدق بسخط في المُنَجِّم، الذي غطت قبعته العلوية ولاية كنساس على الخريطة، وفي روفيان، الذي وضع يديه بين حزامه وسرواله. استقر على كرسيه المغطى بالمخمل الأخضر، ووضع خده على يده الممتلئة، وابتسم ساخراً، وقال بهدوء: ـ اجلس يا صديقي، سأعطيك ستمئة بيزو.

ارتعدت ذراعا أردوسين. ثم، دون أن يتحرك، نظر طويلاً إلى روفيان هذا، الذي أصر، مؤكداً على الكلمات:

ـ اجلس بثقة يا صديقي. سأعطيك ستمئة بيزو. من أجل هذا يوجد الرجال.

لم يعرف أردوسين ماذا يقول. نفس الحزن الذي انفجر فيه عندما أخبره الرجل ذو رأس الخنزير على المكتب أنه يمكن أن يذهب، نفس الحزن أثار غضبه الآن. إذاً الحياة ليست بذلك السوء!

قال المُنَجِّم: «لنفعل هذا. سأعطيه ثلاثمئة بيزو وأنت ثلاثمئة أخرى».

قال هافنر: «لا». أنت بحاجة إلى هذا المال. أما أنا، فلا.

«لدي ثلاث نساء من أجل ذلك». والتفت إلى أردوسين، متابعاً: «هل رأيت، يا صديقي، كيف يتم ترتيب الأمور؟ أراضٍ أنت؟».

كان يتحدث بهدوء ماكر، بفطنة وثقة رجل ريفي يعرف دائماً أن خبرته المعيشية مع الطبيعة ستوفر له مخرجاً في أكثر المواقف تعقيداً. والآن فقط شمَّ أردوسين رائحة الورود الملتهبة وصوت قطرات الصنبور على البرميل التي يمكن سماعها من خلال النافذة المفتوحة. وفي الخارج الطرق متموّجة، مضاءة بالشمس، وثقل الطيور التي تثني أغصان الرمان، المثبتة بنجوم قرمزية.

ومرةً أخرى أضاءت شرارة من الضوء الخبيث في عيون روفيان. بوجه ذي حاجب أعلى من الآخر، كان ينتظر انفجار أردوسين فرحاً، لكن ذلك لم يحدث، قال: ـ هل عشتَ بهذه الطريقة لفترة طويلة؟

ـ نعم، كثيراً.

ـ اعترض المُنَجِّم قائلاً: «أتذكر أنني أخبرتُكَ ذات مرة، حتى أنك لم تكن تثق بي إطلاقاً، أنه بهذه الطريقة لا يمكنك العيش؟».

ـ نعم، لكنني لم أرغب في الحديث عن ذلك. لا أعرف تلك الأشياء التي لا يمكنك تفسيرها لأنها تُلزم الاشخاص الذين نثق بهم كثيراً أن يلتزموا الصمت حيال ذلك.

ـ متى سوف تعيد هذا المال؟

ـ غداً.

ـ حسناً، سأكتب لك شيكاً الآن. سيكون عليك صرْفُه غداً.

ذهب هافنر إلى المكتب. أخرج دفتر الشيكات من جيبه وكتب المبلغ بحزم ومن ثم وقَّعَ.

مرَّت هذه الرحلة التي استمرت لدقيقة على أردوسين الذي تجمَّد بلا حراك مع شعور بفقدانه للوعي كالحلم، والذي يتمّ تذكُّره لاحقاً، ليؤكد أنه في ظروف معينة تنغمس الحياة في قدرية ذكية.

ـ اخدم نفسك يا صديقي.

التقط أردوسين الشيك، ودون أن يقرأه طوى الشيك أربع مرات، ووضعه في جيبه. حدث كل شيء في دقيقة واحدة. كان الحدث أكثر عبثية من رواية، على الرغم من كونه رجلاً من لحم ودم. لم يعرف ماذا يقول، ولم يتوجَّب عليه قَوْلُ شيءٍ، حدثت المعجزة عن طريق

لفتة واحدة من روفيان. كان هذا الحدث مستحيلاً وفقاً للمنطق الذي يحكم التعاملات الحالية، ومع ذلك لم يحدث شيء. أراد أن يقول شيئاً ولكن مرةً أخرى أمعن النظر في وجه الرجل الجالس على الكرسي ذي المخمل الرث. الآن برز المسدس تحت القماش الرمادي للسترة، وبلطف، وضع هافنر خدَّه المزرقّ على أظافره الثلاثة المتلألئة. أراد أن يشكر روفيان، لكنه لم يعرف بأي كلمات يمكنه فِعْلُ ذلك. لقد فهم روفيان ذلك، موجِّهاً حديثه للمنجِّم، الذي جلس على كرسي بجانب المكتب، فقال: ـ إذاً الطاعة من قواعد مجتمعك؟

ـ والصناعة. الذهب ضروري لامتلاك ضمير الرجال. مثلما كان هناك تصوف ديني وتصوف نُبليّ، يجب أن نخلق التصوف الصناعي. لجعل الإنسان يرى أنه من الجميل أن يكون على رأس قرن كبير رائع قبل اكتشاف القارات. سياسي، سيكون طالبي السياسي في المجتمع رجلاً يسعى إلى الاستيلاء على السعادة من خلال الصناعة. يمكن لهذا الثوري أن يتحدث أيضاً عن نظام صبغ النسيج كما يتحدَّث عن إزالة مغنطة الفولاذ. لهذا السبب التمستُ هذا في أردوسين بمجرد أن التقيت به. كان لدي نفس القلق. تتذكر عدد المرات التي تحدثنا فيها عن توافق رؤيتنا. صناعة شخص فخورٍ، جميلٍ، لا يرحم، يهيمن على الحشود ويظهر لهم مستقبلاً قائماً على العلم. كيف يمكن للثورة الاجتماعية أن تفعل خلاف ذلك؟ يجب أن يكون رئيس اليوم رجلاً يعرف كل شيء. سنخلق أمير الحكمة هذا. سيكون المجتمع مسؤولاً عن خلق أسطورته ونشرها. من المرجَّح أن تثير سيارة فورد أو إديسون ثورة أكثر من أي سياسي. هل تعتقد أن الدكتاتوريات المستقبلية ستكون عسكرية؟ لا سيدي. الجيش لا يساوي شيئاً بجانب رجال الصناعة. يمكن أن يكون أداته، لا أكثر. هذا كل شيء. سيكون ديكتاتوريو المستقبل ملوك النفط والصلب والقمح. نحن مع مجتمعنا سنهيئ تلك البيئة. سوف نُطْلِع الناس على نظرياتنا. هذا هو السبب في الحاجة إلى دراسة دقيقة للدعاية. يستفيد من الطلبة والطالبات. يمجّد العلم، ويقرّبه جداً من الناس وفجأةً...

قال أردوسين: «أنا ذاهب».

هَمَّ بتوديع هافنر عندما قال هذا الأخير:

ـ إذاً انتظر لحظةً، اسمع.

غادر كلٌّ من المُنَجِّم والقوّاد لوهلة، ثم عاد ثم قاما بتحية أردوسين الذي أدار رأسه لينظر إلى الرجل العملاق ذي الذراع الملتوية محيّياً إياهم بها.

آراء الروفيان ميلانكوليك

ولما توارى عن أعينهم عند باب المنزل، قال أردوسين:

ـ هل تعلم أنني لا أجد طريقة لأشكرك بها على هذه الخدمة الهائلة التي قدَّمتها لي؟ لماذا أعطيتني هذا المال؟

استدار الآخر، الذي كان يسير محرّكاً كتفيه بهدوء، رافضاً، ثم قال:

ـ أنا لا أعرف. لقد انتابني شعور جيد. إذا كان على المرء أن يفعل ذلك كل يوم... لكن هكذا... أيضاً، تخيَّل، سأستعيد المال في غضون أسبوع.

فرَّ السؤال من رأس أردوسين.

ـ وكيف تستمر في «الحياة» إذا كنت تمتلك مثل هذه الثروة؟

تحول هافنر، عدوانياً، ثم قال:

ـ انظر، يا صديقي، ليست «الحياة» للجميع. أتعرف؟ لماذا أترك ثلاث نساء يجنين 2000 بيزو شهرياً بدون عمل؟ هل أتركهم؟ لا...إذاً؟

ـ وأنت لا تريدهن؟ ألا تروقُ لك أيٌّ منهنّ بشكلٍ خاصّ؟

فقط بعد طرح هذا السؤال أدرك أردوسين أنه قال للتَّو شيئاً غبياً. نظر إليه القوّاد لثانية، ثم أجاب:

ـ استمع لي جيداً. إذا جاء طبيب لزيارتي غداً وقال لي: الباسكية ستموت في غضون أسبوع، هل ستجعلها تترك بيت الدعارة أم لا؟ سأذهب إلى الباسكية، التي أعطتني ثلاثين ألف بيزو في أربع سنوات، وسأجعلها تعمل ستة أيام وأتركها في السابع لتلاقي حتفها.

أصبح صوت القوّاد أجشَّ. كانت هناك مرارة لا أعلم سببها في كلماته، تلك المرارة التي سيتعرف عليها أردوسين لاحقاً في أصوات كل هؤلاء البولترون الصامتين والأوغاد المملين.

ـ شفقة؟ تابع الآخر. يا صديقي، امرأة «الحياة» لا ينبغي أن يُشفَق عليها. لا توجد امرأة أكثر مشاكسةً، أو أقسى، أو أكثر مرارة من المرأة في «الحياة». لا تتفاجأ، أنا أعرفهن. يجب أن يتم التعامل معهنَّ بالعِصيّ فقط. لديك اعتقاد بنسبة التسعين في المئة بأن القواد هو المستغِل والعاهرة هي الضحية. لكن قل لي: لماذا تحتاج المرأة كل الأموال التي تكسبها؟ ما لم يقله الروائيون هو أن المرأة ـ في «الحياة» ـ التي ليس لها رجل تبحث بيأسٍ عن شخص يخدعها، ويحطم روحها من وقتٍ لآخر، ويأخذ كل الأموال التي تكسبها، لأنها هي ذلك الوحش. لقد أشيع كذباً أن المرأة متساوية مع الرجل. المرأة أدنى درجة من الرجل. انظر إلى القبائل البريّة. هي التي تطبخ وتعمل وتفعل كل شيء بينما يذهب الذكر للصيد أو يذهب للحرب. نفس الشيء هو الصحيح في الحياة الحديثة. الرجل، باستثناء كسب المال، لا يفعل شيئاً. وصدّقني إن امرأة الحياة تحتقر الذي لا يأخذ منها المال. نعم يا سيدي، بمجرد أن تشرع في حبه، فإن أول ما تريده هو أن يطلب منها... لا تدري مقدار السعادة التي تشعر بها عندما يدعوها بعزيزتي: هل يمكنك إقراضي مئة بيزو؟ حينئذٍ هذه المرأة تسمو إلى السماء، وهي سعيدة. أخيراً، فإن الأموال القذرة التي تكسبها مفيدة لشيء ما، لإسعاد زوجها. بالتأكيد، الروائيون لم يكتبوا هذا. ويظننا الناسُ وحوشاً، أو حيوانات غريبة، كما صوّرنا القديسون. لكن تعال وعِشْ في بيئتنا، وتعرف عليها، وستدرك أنها نفس بيئة البرجوازية والأرستقراطية. المرأة المتحفِّظَة تحتقر امرأة الملهى، وتحتقر امرأةُ الملهى امرأةَ الشارع، وتحتقر امرأةُ الشارع امرأةَ الدعارة. مثلما تختار المرأة الموجودة في بيت الدعارة دائماً رجلاً على حافة الانهيار، بينما امرأة الكباريه دائماً ما تختار طفلاً صالحاً

أو طبيباً معذَّباً لاستغلاله. سيكولوجية امرأة «الحياة» تتمثَّل في هذه الكلمات التي أخبرتني بها امرأة صغيرة باكية، وكانت ترافق أحد أصدقائي: «بمؤخّرتي أستطيع مساعدة أي رجل». هذا لا يعرفه الناس ولا الروائيون. هناك مثل فرنسي يقول: «العاهرة وحدها لا تستطيع أن تتحكم في مؤخرتها».

حدَّق فيه أردوسين بدهشة. تابع هافنر:

ـ من الذي سيعتني بها مثل القوّاد؟ من يعتني بها وهي مريضة عندما تقع فريسةً لأحدهم؟ ماذا يعرف الناس؟ إذا سمعت صباح سبت امرأة تنادي على رجلها قائلةً: «مارلو! مون شيري! صنعتُ خمسين عبوة أكثر من الأسبوع الماضي»، هل سيراودك ظنٌ سيئ، هل فهمت؟ لأن تلك المرأة تقول له: «صنعت خمسين عبوة» بنفس اللهجة التي كانت تقول بها امرأة شريفة لزوجها: «عزيزي، هذا الشهر، بسبب أني لم أشترِ بدلةً ولم أرسل الملابس للغسيل، وفَّرت ثلاثين بيزو». صدّقني يا صديقي، المرأة، سواء كانت شريفة أم لا، فهي حيوان يميل إلى التضحية. مخلوقة وفقاً لهذا النمط. لماذا تعتقد أن الآباء في الكنائس يحتقرون النساء كثيراً؟ معظمهم عاش مثل الأبقار العظيمة وعرفوا ما هو الحيوان الصغير. والواقع أسوأ. إنهن مثل مخلوق عليك أن تُعلِّمه كل شيء. «ستمشين بهذه الطريقة، لا يجب أن تتجاوزي هذا الخط، لستِ مضطرةً إلى إلقاء التحية على مثل هذه «الشعلة». لا تتشاجري مع تلك المرأة». كل شيء يجب أن يُعلَّم.

ساروا جنباً إلى جنب نحو الأسوار، وفي المساء الحلو، أثارت كلمات القوّاد تساؤلات عديدة بداخل أردوسين. لقد فهم أنه يعيش حياة تختلف اختلافاً جوهرياً عن حياته.

ثم سأل:

ـ وكيف بدأت في «الحياة»؟

ـ كنت صغيراً في ذلك الوقت. كنت أبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً وكان لي كرسي أستاذية في الرياضيات. وأضاف هافنر بفخر: «لأنني مدرس، مدرس رياضيات. كنت أعيش مع دراستي، عندما التقيت ذات ليلة في بيت من بيوت الدعارة بشارع رينكون بفتاة فرنسية أحببتها. كان هذا قبل عشر سنوات. في تلك الأيام بالذات، كنت قد ورثت خمسة آلاف بيزو من أحد أقاربي. أحببت لوسيان، وعرضت عليها أن تأتي لتعيش معي. كان لديها قوّاد، يُدعى مارسيليا، عملاق وحشي، وكانت تراه من حين لآخر. أنا لا أعرف إن كان بسبب الشفاه، أو لأنني كنت لطيفاً، ما حدث هو أن المرأة وقعت في الحب، وفي ليلة عاصفة أخرجتُها من المنزل. كان كل هذا مثل رواية. ذهبنا إلى جبال قرطبة، ثم إلى مار ديالبلاتا، وعندما أنفقنا الخمسة آلاف بيزو، قلت لها: «حسناً، وداعاً حبيبتي. انتهى». حينئذٍ قالت لي: «لا يا عزيزي، لن نفترق بعد الآن».

الآن يسيرون تحت خزائن الخضروات والفروع المتشابكة والسيقان.

ـ كنتُ غيوراً. هل تعلم كيف يكون الشعور بالغيرة مع امرأة تنام مع الجميع؟ وهل تعرف مدى الإثارة في أول وجبة غداء تدفعها بالفضة من «الدعارة»؟ هل يمكنك تخيُّل سعادة الأكل بالشوك المتقاطعة بينما النادل ينظر إليك وينظر إليها وهو يعرف من أنتم؟ ولذة الخروج إلى الشارع معها مشبكين ذراعيكما بينما «العاهرات» يراقبنك؟ وإدراك أنها، التي تنام مع الكثير من الرجال، تفضلك أنت، أنت فقط؟ هذا جميل جداً يا صديقي، عندما ينتهي السباق. وهي التي تخشى أن تحب امرأةً أخرى، فتأتي هي بها إلى المنزل قائلةً: «سنكون أختين في القانون»، هي التي ستهزّها لك لتُسقط أفضل ثمارها في المرة الأولى حتى تتمكن فقط من إثارتك، وكلما كنت أكثر خجلاً وإحراجاً، كلما استمتعت هي بتدمير حصونك تدميراً يغرقك في قمامتها، وفجأة... عندما تفقد ذاكرتك تجد نفسك مدفوناً في الوحل، وبعد ذلك عليك فقط الرقص. وبينما المرأة منغمسة معك، عليك أن تستفيد من ذلك، لأنه في يوم من الأيام ستتسبب لك الأذى، ومن ثم تصاب بالجنون من أجل آخر، وبنفس اللاوعي الذي تبعتك به، تضحي بنفسها مرة أخرى. تقولون لي: لماذا تحتاج المرأة إلى الرجل؟ لكن، من الآن فصاعداً، سأخبرك: لن يتعامل مالك بيت الدعارة مع امرأة. من

يتعامل معهنّ هو «مارلو». القوّاد يمنح المرأة راحة البال لممارسة حياتها. «المراقبون» لا يزعجونها. إذا ما تم القبض عليها هو يخرجها؛ إذا كانت مريضة، يأخذها إلى المشفى ويحثّهم على الاعتناء بها، ويَقيها المتاعب وآلاف الأشياء الرائعة. انظر، المرأة التي تعمل بمفردها في البيئة ينتهي بها الأمر دائماً أن تكون ضحية لاعتداء أو عملية احتيال أو اعتداء همجي. من ناحية أخرى، فإن المرأة التي لديها رجل تعمل بهدوء وطمأنينة ولا يتدخل أحدٌ في عملها ويحترمها الجميع. وبما أنها، لسبب أو لآخر، اختارت حياتها، فمن المنطقي أن تمنح نفسها السعادة التي تحتاجها مقابل مالها.

«طبعاً بالنسبة لك كل هذا جديد، لكنه سينجز. وإذا لم يكن الأمر كذلك، قل لي: كيف تشرح أن هناك «فيوكا» يجمع ما يصل إلى سبع نساء؟ كان لغرفة تانيو إحدى عشرة امرأة في أفضل أيامه. وللغاليقي خوليو، ثمانية. لا يكاد يوجد فرنسي ليس لديه ثلاث زوجات. وهن يعرفن بعضهن، ولا يتوقف الأمر على معرفتهن ببعضهن، بل يعرفن كيف يتعايشين معاً ويتنافسن من منهنَّ تمنحه أكثر، لأن أي واحدة منهن ستشعر بالفخر أن تكون هي المرأة المفضلة لدى الرجل الذي يهدئ استفساراتهن المتعجرفة إلى أقصى حدٍّ بنظرة واحدة. وهن مسكينات، هنَّ مصابات بالجنون، لدرجة أن المرء لا يعرف هل يشفق عليهن أو يكسر رأسهن بالعصا».

أذهلَ أردوسين ازدراءُ هذا الرجل للمرأة. وتذكَّر أن المُنَجِّم قال له في مناسبة أخرى: «الروفيان ميلانكوليك هو ذلك الرجل الذي عندما يرى امرأةً فإن أول ما يظنُّه هو: هذه المرأة في الشارع تساوي خمسة أو عشرة أو عشرين بيزو. لا شيء آخر».

والآن شعر أردوسين أن الرجل اشمأزَّ منه. ولتغيير الحديث قال:

ـ قل لي... هل تؤمن بنجاح شركة المُنَجِّم؟

ـ لا.

ـ وهل يعلم أنك لا تؤمن بذلك؟

ـ نعم.

ـ ولماذا ترافقه؟

ـ أرافقه نسبياً، ولأني أشعر بالملل. بما أن الحياة ليست ذات معنى، فلذلك سيّانَ اتّباع أيّ تيار.

ـ هل الحياة ليست ذات معنىً بالنسبة لك؟

ـ لا تعني شيئاً على الإطلاق. نحن نولد، نعيش، نموت، بدون أن تتوقف النجوم عن الحركة والنمل عن العمل بسبب ذلك.

ـ وهل مللت كثيراً؟

ـ عادي. لقد نظّمْتُ حياتي مثل حياة رجل الصناعة. كل يوم أخلد إلى النوم في الثانية عشرة وأستيقظ في التاسعة صباحاً. أمارس الرياضة لمدة ساعة، وأستحم، وأقرأ الصحف، وأتناول الغداء، وآخذ قيلولة، وأتناول الفيرموث (1) في السادسة وأذهب إلى مصفف الشعر، وفي الثامنة أتناول العشاء، ثم أخرج إلى المقهى، وبعد مرور عامين، عندما يصبح لديّ مئتا ألف بيزو، سأتقاعد من الوظيفة لأعيش بشكل نهائي على مدخراتي. وفي الواقع، ماذا سيكون دورك في مجتمع المُنَجِّم؟ إذا حصل المُنَجِّم على المال، سينفقه في تجمعات النساء وفي تجهيز بيت الدعارة.

ـ ولكن أنت بداخلك، ما رأيك في المُنَجِّم؟

ـ هو مجنون وقد ينجح وقد لا ينجح.

ـ ولكن كيف هي رؤيتك؟

ـ لدي بعض الأفكار المشوشة، والبعض الآخر واضح، وفي الحقيقة لا أعرف إلى أيّ مدىً يريد هذا الرجل أن يصل. في بعض الأحيان تعتقد أنك تستمع إلى رجل رجعي، وأحياناً أخرى إلى أحمق، ولإيضاح الحقيقة، يبدو لي أنه حتى لا يعرف ما يريد.

ـ وإذا نجح؟

ـ إذاً، حتى الله لا يعلم ما يمكن أن يحدث. أوه، بالمناسبة، هل أخبرته عن بذور من عصيات الكوليرا الآسيوية؟

ـ نعم، ستكون وسيلة رائعة للقتال ضد الجيش. انشروا محصولاً في كل ثكنة. أتدرك؟ في نفس الوقت، يمكن لثلاثين أو أربعين رجلاً تدمير الجيش وترك الجماهير العامة تصنع الثورة.

ـ المُنَجِّم معجب بك كثيراً. دائماً ما يحدثني عنك كفرد لديه فرصة كبيرة للنجاح.

ابتسم أردوسين وقد شَعَر بالإطراء.

ـ نعم، هناك شيء يتعلمه المرء لتدمير هذا المجتمع. لكن بالعودة إلى السابق: ما لا أفهمه هو موقفك تجاهنا.

استدار هافنر بسرعة، وحدَّقَ في أردوسين كما لو كان محيّراً من المصطلحات التي يستخدمها، ثم أضاف مبتسماً:

ـ أنا لم أنحز إلى أيّ جانب. افهمني جيداً. لا يؤلمني أن أساعد المُنَجِّم. وأكثر من ذلك، نظرياته، آخذها بعين الاعتبار خلال المحادثات. إنه بالنسبة لي الصديق الذي يفكِّر في تأسيس شركة، كما هو منصوص عليه ووفقاً لقوانيننا. هذا كل شيء. أنا شخصياً لا يهمني بعد ذلك إذا ما كان هذا المال الذي يكسبه من هذا العمل سيتم استثماره في منظمة سرية أو في دار راهبات. ثم ترى أن أدائي في المجتمع الشهير لا يمكن أن يكون أكثر براءة.

ـ وهل من المنطقي بالنسبة لك أن تتقبل فكرة وجود مجتمع ثوريّ يقوم على استغلال جسد المرأة؟

عضَّ روفان على شفتيه. ومن ثم همَّ بالتفسير ملقياً نظرة جانبية على أردوسين:

ـ ما تقوله لا معنى له. مجتمع اليوم يقوم على استغلال الرجال والنساء والأطفال. اسمع، إذا كنت تريد معرفة ما هو الاستغلال الرأسمالي، في مسابك الحديد في أفيلانديا، في مصانع الثلاجات ومصانع الزجاج، ومصانع الكبريت، واستغلال العمالة. ضحك بشكل مزعج عندما قال هذه الأشياء. نحن، رجال البيئة، لدينا امرأة واحدة أو اثنتان. أمّا هم، الصناعيون، يمتلكون العديد من البشر. ماذا يُسمى هؤلاء الرجال؟ وأيُّنا أقسى قلباً من الآخر، صاحب بيت الدعارة أم مجتمع المساهمين في شركة ما؟ وبدون الذهاب إلى أبعد من ذلك، ألم يكن مطلوباً منك أن تتحلى بالأمانة وأنت تحصل على راتب مئة بيزو بينما تحمل في حقيبتك عشرة آلاف؟

ـ أنت على حق، ولكن لماذا إذاً أعطيتني المال؟

ـ هذه نقرة وهذه نقرة.

ـ ولكن هذا يقلقني.

ـ حسناً، إلى لقاء آخر.

وقبل أن يجيب أردوسين عليه، سار روفيان في ممر محاط بالأشجار. كان على عجلة من أمره. نظر إليه أردوسين للحظة، ثم هَمَّ باللحاق به، وتمكّن من ذلك عند الناصية. صرخ هافنر غاضباً: ـ هل أستطيع أن أعرف ماذا تريد مني؟

ـ ماذا أريد؟ أريد أن أقول لك هذا: أنا لست ممتناً لك مطلقاً على المال الذي قدمته لي.

ـ أتعرف؟ هل تريد الشيك؟ ها هو.

وبالفعل، قدمه إليه، لكن روفيان تفحَّصَه بازدراء هذه المرة:

ـ لا تكن سخيفاً، أليس كذلك؟ اذهب وادفع.

تموجت الأسوار أمام عيون أردوسين. كان يعاني بشكلٍ واضحٍ، حيث إن لونه تحوَّلَ إلى الأصفر. انحنى بجانب أحد الأعمدة، واعتقد أنه سوف يتقيّأ. توقف هافنر أمامه سائلاً باستخفاف: ـ هل بدأت الدوخة في الاختفاء؟

ـ نعم قليلاً.

ـ أنت لست جيداً. يجب أن تُرى.

ساروا بضع خطوات في صمت. نظراً لأن الضوء الزائد أزعج أردوسين، فقد عبروا المسار الذي كان في الظل. وهكذا وصلوا إلى محطة السكة الحديد.

مشى هافنر ببطءٍ أسفل المنصة. فجأةً التفت إلى أردوسين:

ـ هل شعرت من قبل بأنه يجب عليك أن تتحلَّى بالحيطة عند التعامل مع الناس؟

ـ نعم أحياناً.

ـ يا لَهُ من أمرٍ غريبٍ! لأنني الآن أتذكَّر الهوس الذي كان لدي في فترة من الفترات لأحث فتاة كفيفة على ممارسة الدعارة.

ـ وهل ما زالت على قيد الحياة؟

ـ نعم، إنها حامل الآن. أتدرك؟ امرأة عمياء حامل. في يوم من الأيام سوف آخذك. سوف تقابلها. مشهد مثير للاهتمام، انتبه؛ أتفهم؟ كفيفة وحامل. إنها سيئة، تحمل الإبر في يديها دائماً، وهي أيضاً جشعة كالخنزيرة. سوف تعجبك.

ـ أتعتقد؟

ـ نعم، بمجرد أن يقوم المُنَجِّم بالانتهاء من إنشاء بيت الدعارة، ستكون هي أول من يدخل. سنخفيها: ستكون هي الطبق النادر.

ـ هل تعلم أنك أغرب منها؟

ـ بمعنى؟

ـ لأن المرء لا يستطيع أن يشرح لك ذلك. بينما كنت تخبرني عن المرأة العمياء، كنت أفكر فيما قاله لي المُنَجِّم بخصوص أنه كانت لديك علاقة مع امرأة شريفة، هذه الفرصة وحدها جلبت هذه المرأة الشريفة إلى منزلك، وأنك كنت تحترمها. علاوة على ذلك، دعني أتحدث: تلك المرأة أحبتك، لقد كانت عذراء، فلماذا كنت تحترمها؟

ـ لا يهم. القليل من ضبط النفس، لا أكثر.

ـ وموضوع القلادة؟

علم أردوسين من المُنَجِّم أن روفيان قد طلب من إحدى الراقصات إثباتاً ماديًّاً على المودة؛ أن هذه المرأة، قبل غيرها من النساء، قد تخلت عن عقدٍ رائعٍ أعطته إيّاه، وكان عقداً أهداه لها عاشق، هو مستورِد قديم للأقمشة. كان المشهد مثيراً للفضول، لأن الرجل العجوز كان في الجوار. تسلم هافنر القلادة، وبدت على الجميع الدهشة، ووضعها فاحصاً قيراط الحجارة، ثم أعادها بابتسامة ساخرة.

قال هافنر: «القلادة أمر بسيط». كنتُ ثملاً بعض الشيء. لم يمنعني ذلك من معرفة أن الإيماءة التي قمت بها ستمنحني مكانة هائلة بين هؤلاء الأوغاد في الكباريه، وخاصةً بين النساء، المتعجرفات بعض الشيء. المثير للفضول هو أنه بعد نصف ساعة جاء الرجل العجوز الذي قدم لرينيه العقد ليشكرني بكل تواضع لأنني لم أرغب في قبول الهدية.

تعرف؟ من طاولة أخرى كان يتابع المشهد مرتعشاً، وإذا لم يتدخل فذلك خوفاً من التسبب في فضيحته. لكنه ارتجف بسبب مصير عقده؛ ترى كم من الأوساخ! وها قد وصل القطار المتوجه إلى لابلاتا. صديقي العزيز أراك قريباً. آه! تعال إلى الاجتماع الذي سيعقد في منزل المُنَجِّم يوم الأربعاء. سوف تجد الآخرين أكثر إثارة للاهتمام مني.

عبر أردوسين بعناية إلى الرصيف حيث تغادر القطارات المتجهة إلى بوينس آيرس. كان هافنر وحشاً بلا شك.

الذليل

وصل إلى المنزل في الثامنة مساءً.

يقص أردوسين لاحقاً: «كانت غرفة الطعام مضاءة… لكن دعونا نوضِّح، لقد عانيتُ أنا وزوجتي كثيراً من البؤس لدرجة أن غرفة الطعام المزعومة هي غرفة خالية من الأثاث. كانت الغرفة الأخرى بمثابة غرفة نوم. ستخبرني كيف استأجرنا منزلاً مع كوننا فقراء، لكن هذه كانت نزوة من زوجتي، التي لو كنا في أوقات أفضل، فلن تتنازل عن تسليح منزلها بالأساس.

لم تكن هناك أيّ قطعة أثاث أخرى في غرفة الطعام غير طاولة من الصنوبر. في إحدى الزوايا، كانت ملابسنا معلَّقَة على سلك، وفي ركنٍ آخر كان به صندوقٌ ممتلئٌ بالخرز، مما يعطي إحساساً بالحياة البدوية التي تنتهي برحلة نهائية. في وقت لاحق، كم مرةً فكرت في «شعور السفر» حيث إن ذلك الجذع الرخيص، المخزن في زاوية، يثير شعور الحزن لديَّ كرجل معروف أنه على أعتاب السجن.

كما قلت لكم، غرفة الطعام كانت مضاءة. عندما فتحت الباب وتوقفت، كانت زوجتي تنتظرني، مرتديةً ملابس الخروج، وتجلس بجانب الطاولة. غطى تول أسود وجهها الوردي

حتى الذقن. إلى يمينها، بجانب قدميها، كانت هناك حقيبة سفر، وعلى الجانب الآخر من الطاولة، وقف رجل عندما دخلت، أو بالأحرى، عندما أوقفتني المفاجأة على العتبة.

ظللنا ثلاثتنا على هذا الوضع لثانية؛ القائد واقفٌ بيدٍ مُسنَدَة على طاولة المائدة، والأخرى على مقبض السيف، وزوجتي منحنية الرأس، وأنا أمامهم. ناسياً الأصابع على الحافة الداخلية للباب. كانت تلك الثانية كافيةً بالنسبة لي حتى لا أنسى الرجل الآخر. كان كبيراً ورياضياً قوياً مرتدياً اللباس الأخضر لزيّه العسكري. عندما أشحت بوجهي عن زوجتي، تلاقت نظراتي مع الرجل الذي كان يرمقني بقسوة غريبة. لا أبالغ إذا قلت إنه كان يتفحَّصُني بوقاحة، كما لو كنت في مستوى أدنى. ظللت أنظر إليه. تتناقض كتلته الجسدية مع صِغَر وجهه، ودقة أنفه الرقيق وتقشُّر شفتيه. على صدره كانت تبرُز شارةُ القائد.

كانت كلماتي الأولى:

ـ ما الذي يحدث هنا؟

«السيد... ـ بمزيد من الحرج، هَمَّ بتصحيح نفسهه ـ فقالت: يا ريمو! مناديةً إيّاي باسمي، «لن أعيش معك بعد الآن يا ريمو».

لم يكن لدى أردوسين وقتٌ للندم. بدأ القبطان في الحديث:

ـ إن زوجتك التي عرفتها منذ فترة...

ـ وأين تعرفت عليها أنت؟

ـ لماذا تسأل عن هذه الأشياء؟ قاطَعَتْ إلسا.

أبدى القائد اعتراضه قائلاً: «نعم، صحيح. يجب عليك أن تدرك أن هناك أشياء معينة لا ينبغي أن تسأل عنها».

شعر أردوسين بالخجل.

ـ ربما أنت على حَقّ. اسمح لي.

ـ وبما أنك لم تبذل جهداً لتحتفظ بها...

نظر أردوسين إلى القبطان ممسكاً بمقبض المسدس في جيب بنطاله. ثم، قسراً، ابتسم معتقداً أنه ليس لديه ما يخافه، لأنه يمكن أن يقتله.

ـ لا أعتقد أن ما أقوله يدعو إلى الضحك.

ـ لا؛ كنت أبتسم لشيء غبي. إذاً لقد أخبرتُكَ بذلك أيضاً؟

ـ نعم، وقد تحدّثت عنك أيضاً، إنك عبقريٌّ في الخذلان.

ـ نتحدث عن اختراعاتك.

ـ نعم،عن مشروعك لتحويل الورد إلى معدن.

ـ لماذا ستتركينني إذاً؟

ـ لقد تعبتُ يا ريمو.

شعر أردوسين بالغضب ثم هَمَّ بملء فمه بالكلمات السيئة. كان سيُهينها، لكن عندما اعتقد أن الآخر يمكن أن يحطّم وجهه بقبضتيه، ابتلع الكلمات، ثم ردَّ: ـ دائماً ما كنتِ مُتعَبة؛ في المنزل كنتِ مُتْعَبَة، هنا، هناك، هناك أيضاً في الجبال، أتذكرين؟

لأنها لا تعرف ماذا تجيب، اكتفت إلسا بإمالة رأسها.

ـ متعَبَة من ماذا؟ الجميع يشعرون بالتعب، لا أعرف لماذا، لكنهم مُتْعَبون. أنت أيها القائد، ألستَ مُتْعباً أيضاً؟ كان الدخيل يراقبه لفترةٍ طويلةٍ.

ـ نعم، هي على العكس تؤمن بالسعادة بمعنى «السعادة الأبدية» التي ستتحقَّق في حياتها لو استطاعت أن تقضي الأيام بين الحفلات.

ـ أنا أكره البؤس.

ـ بالطبع، لأنك لا تؤمنين بالبؤس، البؤس الرهيب الذي يُصاحبنا، إنه البؤس المتعمِّق داخل الروح الذي يخترق عظامنا مثل مرض الزهري.

مرَّتْ لحظة صمت. كان القبطان، ظاهرياً يشعر بالملل، يفحص أظافره المصقولة بعناية.

حدَّقَتْ إلسا بثبات عبر بيشة الحجاب، في ذلك الوجه المتهالك لهذا الزوج الذي أحبته كثيراً ذات يوم، بينما كان أردوسين يتساءل عن سبب وجود مثل هذا الفراغ الهائل بداخله، الفراغ الذي يذوب فيه وعيُهُ دون أن يجِدَ الكلمات الصحيحة. بحيث ينبح حزنهم إلى الأبد.

فجأةً رفع القائد رأسَهُ.

ـ وكيف تُخَطِّط لتعدين زهورك؟

ـ بسهولة؛ تأخذ وردة على سبيل المثال وتغمسها في محلول من نترات الفضة المذابة في الكحول. ثم توضع الزهرة في الضوء الذي يبخِّر النترات ويتبقى معدن الفضة، مما يترك الوردة مغطاةً بطبقةٍ رقيقةٍ من المعدن، موصلة للتيار. ثم يتم معالجتها بواسطة إجراء «الطلاء بالكهرباء» الشائع للنحاس. وبطبيعة الحال، تتحوَّل الزهرة إلى وردة نحاسية. سيصبح لها العديد من الاستخدامات.

ـ الفكرة أصلية.

ـ ألم أخبرك يا جيرمان أنَّ ريمو رجلٌ ذو موهبة؟

ـ أؤمن بذلك.

ـ نعم، قد تكون لدي موهبة، لكني أفتقر إلى الحياة... الحماس... شيء يشبه الحلم غير العادي... كذبة كبيرة تدفع إلى الإدراك. ولكن، بالحديث قليلاًعن كل شيء، أتتوقعان أن تكونا سعيدين؟

ـ نعم.

ساد الصمت مرةً أخرى. بدت الوجوه الثلاثة حول المصباح الأصفر، وكأنها ثلاثة أقنعة شمعية. عرف أردوسين أنه في غضون لحظات قليلة سينتهي كل شيء ومن ثم تزداد معاناته، وسأل القائد: ـ لماذا أتيت إلى منزلي؟

تردَّدَ الآخر:

ـ كنت مهتماً بلقائك.

ـ أشعرت أنه سيكون ممتعاً؟

ـ لا، أقسم لك.

ـ لماذا إذاً؟

ـ كان لديَّ شغفٌ بمقابلتك. أخبرتني زوجتك بالكثير عنك في الآونة الأخيرة. علاوةً على ذلك، لم أتخيَّل أبداً أن أجِدَ نفسي في مثل هذا الموقف. في الواقع، لا أستطيع شرح سبب مجيئي.

ـ هل رأيت؟ هناك أشياء لا يمكن تفسيرُها. منذ فترة، كنت أحاول تفسير لماذا لم أقتلك بالمسدس الذي أحمله في جيبي. رفعت إلسا رأسها إلى أردوسين الذي كان على رأس الطاولة. سأل القائد: ـ ما الذي يمنعك؟

ـ في الحقيقة، لا أعرف... أو... نعم، أنا متأكد من أنه بسبب هذا. أعتقد أنه في قلب كل واحدٍ منّا خطّ القدر. إنه مثل التكهُّن بالأشياء من خلال غريزة غامضة. ما يحدُثُ لي الآن، أشعر بأنني أتفهَّمُه في نطاق خط القدر هذا... شيءٌ مثلما إذا كنت قد رأيته بالفعل... لا أعرف أين.

ـ كيف؟

ـ ماذا تقول؟

ـ ليس لأنك أعطيتني سبباً، لا، أنا أخبرك... لديَّ يقينٌ بعيدٌ.

ـ لا أفهمك.

ـ أنا أفهم نفسي. انظر، هو كذلك. فجأةً يخطر ببالك أنه يجب أن تحدث لك أشياء معينة في الحياة لكي تتغيَّر الحياة وتصبح جديدةً.

ـ وأنت؟

ـ هل تؤمن بحياتك؟

تابَعَ أردوسين متجاهلاً السؤال:

ـ والآن لا يفاجئني إذا طلبت مني أن أشتري لك علبة سجائر، بالمناسبة، هل لديك سيجارة؟

ـ ساعد نفسك. وبعد ذلك؟

ـ أنا لا أعرف. في الآونة الأخيرة عشت بطريقة غير مترابطة مترنحاً مع حالة الكرب. أترى كيف أتحدث معك بهدوء.

ـ نعم، كان يُتوقع دائماً شيءٌ غير عادي.

ـ وأنت أيضاً.

ـ كيف؟ أنت وإلسا أيضاً؟

ـ نعم.

ـ لكنك؟

ـ اذهب يا قائد، فهمت. تقصد أن الوضع الاستثنائي بالنسبة لإلسا يحدث الآن، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ حسناً، أنت مخطئ، أليس كذلك يا إلسا؟

ـ أتعتقد؟

ـ لقد قلت الحقيقة، أنتِ تنتظرين شيئاً غير عاديٍّ، غير هذا، أليس كذلك؟

ـ أنا لا أعرف.

هل رأيت أيها القائد؟ كانت هذه هي حياتنا دائماً. كنا نجلس في صمتٍ على هذه الطاولة...

ـ اصمتي.

ـ لماذا؟ كنا نتجالس ونتفاهم دون أن يخبر أحدُنا الآخر بشيءٍ، لقد كنّا، اثنين من الحزانى، برغبات مختلفة. وعندما كنّا نذهب إلى الفراش...

ـ ريمو!

ـ سيد أردوسين!

توقفا عن الضجة السخيفة! ألن تتشاركا الفراش؟

ـ بهذه الطريقة لا يمكننا الاستمرار في الحديث.

ـ حسناً، عند انفصالنا كان لدينا نفس التفكير: وهل تكمن متعة الحياة والحب في غير هذا؟ ودون أن نقول أي شيء فهمنا أننا كنا نفكر في نفس الشيء، لكننا نغير الموضوع. أتخططان للبقاء هنا في المدينة؟

وفجأةً شعر أردوسين ببرودة الرحلة.

كان يعتقد أنه رأى إلسا واقفة على الدرابزين، تحت الكوة الزجاجية، وهي تحدق في الخيط الأزرق من بعيد. كانت الشمس تسقط على الأوتار الصفراء للصواري وعلى الجملونات السوداء للروافع. كان وقت الغسق، لكنهم ظلوا بأفكارهم المتعلقة بالمناخات الأخرى، وفي ظلال النادلات، المتكئات على المنصة البيضاء. هبت الريح المحملة برائحة اليود في الأمواج وحدَّقَت إلسا في المياه ـ من بين شعرِها المتحرِّك ـ في ظلِّها متحركاً.

في بعض الأحيان، كان الوجه الشاحب يعود، ثم بدا كلاهما وكأنهما يسمعان عاراً يرتفع من أعماق البحر.

وتخيل أردوسين أنه كان يقول لهم:

ـ ماذا فعلوا بالصبيّ المسكين؟ (لأنني، على الرغم من عمري، كنت مثل الصبي) نادوني بريمو بعد ذلك. هل تفهم، أنت تفهم، الرجل الذي يسمح لنفسه أن يحمل امرأةً داخل عينيه هو شخص بائس مثل الصبي، هل تفهم؟

ترك أردوسين تلك الهلوسة. وهذا السؤال الذي نشأ، وكان يخوض فيه رغماً عن إرادته.

ـ هل ستكتب لي؟

ـ لماذا؟

ـ نعم، بالطبع لماذا؟ كرَّرَ، مُغْمِضاً عينيه.

شعر الآن أكثر من أيّ وقتٍ مضى أنه سقط في هاوية لم تَرِدْ لأيّ رجلٍ على بالٍ ولا في أسوأ أحلامه.

وقف القائد قائلاً: «حسناً، سيد أردوسين، نحن نتقاعد».

ـ آه، سترحلون! هل ستغادرون الآن؟

مدَّتْ إلسا إليه يدها التي كانت ترتدي القفاز.

ـ ستغادرين؟

ـ نعم، سأرحل، أنت تفهم أن...

ـ نعم أتفهم.

ـ لم يكن لينجح الأمر، ريمو!

ـ نعم بالطبع، لا يمكن أن ينجح، بالطبع.

حمل القائد، وهو يدور حول الطاولة، الحقيبة، نفس الحقيبة التي أحضرتها إلسا يوم زفافها.

ـ سيد أردوسين، وداعاً.

ـ أوامرك أيها القائد. لكن شيءٌ أخير؛ هل سترحلون؟ أنتِ يا إلسا هل سترحلين؟

ـ نعم سنرحل.

ـ معذرةً، سأجلس. اسمح لي بلحظةٍ أيها القائد، دقيقة واحدة فقط.

قمع الدخيل كل كلمات نفاد الصبر. كانت لديها رغبة شديدة في الصراخ في وجه هذا الزوج قائلةً: «لنرَ، هيّا أخبر، أيها الأحمق»، لكن بدافع من مراعاة إلسا، تراجَعَتْ.

فجأةً ترك أردوسين الكرسي. ثم ذهب ببطءٍ إلى ركنٍ من أركان الغرفة.

ثم استدار فجأةً إلى القائد، وقال بصوتٍ واضحٍ جداً، حيث تمَّ تخمين مضمون الرغبة في أن يكون ليناً:

ـ هل تعرف لماذا لا أقتلك كالكلب؟

انزعج الآخران.

ـ حسناً، لأنني أشعر بالبرد.

الآن يسير أردوسين من جانب إلى آخر في الغرفة، ويداه منعقدتان خلف ظهره. كانا يراقبانه، في انتظار شيء. أخيراً، ابتسم الزوج بإيماءةٍ والتواءٍ شاحبٍ، واستمر بنفس الهدوء، وصوته يذبل في يأسٍ كطفلٍ محتَجَز: ـ نعم، كنت تشعر بالبرد، تشعر بالبرد. الآن

أصبحت نظرته غامضةً، لكنه كان يبتسم نفس الابتسامة الغريبة والتائهة. استمع إليّ... هذا لن يكون له تفسير بالنسبة لك، لكني وجدت لك التفسير.

لمعت عيناه بشكل غير عادي، وأصبح صوته أجشَّ من خلال الجهد الذي بذله في الكلام.

ـ انظر... لقد تعرَّضَتْ حياتي للإهانة بشكلٍ فظيع، أصابتها كدمات مروِّعة.

توقف عن الكلام، توقَّفَ بزاوية من الغرفة. ظلَّت الابتسامة الغريبة للرجل الذي يعيش حلماً خطيراً على وجهه. غضبت إلسا فجأةً، مضغت طرف منديلها. القائد يقف بجانب الحقيبة منتظراً.

فجأةً أخرج أردوسين المسدَّس من جيبه وألقاه في زاوية. قام البراوننج بتقطيع أجزاء من الجدار، وأصدر ضربة قوية على الأرض (2).

«ما فائدة هذا الشيء!» تمتم. ثم، بيد واحدة في جيب سترته، وبعد أن وضع صدغَه على الحائط، تحدَّثَ ببطء: نعم لقد تعرضت حياتي للإهانة الفظيعة والإذلال. صدّقني أيها القائد. تحلَّ بالصبر. سأروي لك شيئاً. إن والدي هو الذي بدأ هذا العمل الشرس من الإذلال. عندما كنت في العاشرة من عمري وأخطأت، قلت لنفسي: سأضربك غداً. كان الأمر دائماً على هذا النحو، غداً.... هل ترى؟ غداً... وفي تلك الليلة نمت، لكني نمت بشكلٍ سيئٍ، مع كابوسٍ سيئٍ، استيقظتُ في منتصف الليل لأنظر إلى زجاج النوافذ بخوفٍ وأرى ما إذا كان الصباح قد أتى بالفعل، ولكن عندما قطع القمر النافذة، أغمضتُ عيني، وأنا أقول لنفسي: ما زال هناك وقت طويل لنقطعه. في وقتٍ لاحقٍ كنت أستيقظ مرةً أخرى، وسمعت صياح الديكة. لم يعد القمر موجوداً، لكنَّ لوناً أزرق صافياً دخل عبر النوافذ، حينئذٍ غطّيتُ رأسي بالملاءة حتى لا أنظر إليه، رغم أنني كنت أعلم أنه لم تكن هناك قوة بشرية تستطيع أن تلقي بهذا الضوء. وعندما نمت أخيراً لفترة طويلة، جاءت يد تهزُّ رأسي على الوسادة. كان هو الذي قال لي بصوتٍ خشنٍ: «تعال، لقد حان الوقت». وبينما كنت أرتدي ملابسي ببطءٍ، شعرت أن الرجل كان يحرك كرسيه في الفناء. صرخ فيَّ مرةً أخرى: «تعال»، كالمنوَّم

مغناطيسياً، ذهبت في خط مستقيم تجاهه: أردت أن أتحدث، لكن كان هذا مستحيلاً حيال نظرته البشعة. سقطت يده على كتفي وأجبرتني على الركوع، وأسندت صدري على مقعد الكرسي، ووضعت رأسي بين ركبتيه، وفجأةً، جلدني بضربات قاسية على مؤخرتي. وعندما سمح لي بالذهاب، ركضت أبكي إلى غرفتي. عارٌ هائلٌ أغرق روحي في الظلام. لأن الظلام موجود حتى لو كنت لا تصدقه.

نظرت إلسا إلى زوجها بغضب. بينما القائد واقفٌ، وذراعاه معقودتان، يسمع بملل. ابتسم أردوسين بشكل غامض. مستمراً:

ـ كنت أعلم أن معظم الأولاد لم يتعرضوا للضرب من قِبَل الوالدين وفي المدرسة عندما كنت أسمعهم يتحدثون عن منازلهم، يُصيبني هذا الألم الفظيع بالشلل لدرجة أننا لو كنا في الفصل ونادى عليَّ المعلم، كنت أنظر إليه غير مهترئ، دون أن أدرك معنى أسئلته، حتى في أحد الأيام صرخ فيَّ قائلاً: «لكن أنت يا أردوسين، هل أنت أحمق، ألا تسمعني؟»، ضحك الفصل بأكمله، ومنذ ذلك اليوم أطلقوا عليَّ أردوسين «الأحمق». وأنا ـ حزيناً ـ أشعر بالإهانة أكثر من أي وقت مضى، فبقيت صامتاً خوفاً من جَلْد والدي، وأبتسم لأولئك الذين أهانوني، لكن بخجل.

هل ترى يا قائد؟ إنهم يهينونك وما زلت تبتسم بخجل، كما لو كانوا يقدّمون لك معروفاً بإهانتك.

عبس الدخيل.

«لاحقاً» اسمح لي أيها القائد، أحدهم دعاني لاحقاً بـ«الأحمق». ثم فجأةً تجمعت روحي على طول أعصابي، وذلك الشعور بأن الروح كانت مختبئةً في مكانٍ ما في جسدي، أباد كل شجاعتي؛ شعرت أنني أغرق أكثر فأكثر وأتطلع إلى عينيْ من أهانني بدلاً من ردّ الصفعة إليه، فقلتُ لنفسي: هل سيدرك هذا الرجل إلى أيّ مدى يُذِلُّني؟ ثم سأذهب. لقد فهمت أن الآخرين كانوا يُنهون فقط ما بدأه والدي.

أجاب القائد: «والآن، هل أنا أغرقها أيضاً؟».

ـ لا يا رجل، أنت لا تفعل ذلك. بطبيعة الحال، لقد عانيت كثيراً لدرجة أن الشجاعة أصبحت الآن مختبئة ومرتعشة. أنا متفرج وأسأل نفسي: متى ستبرز شجاعتي؟ وهذا هو الحدث الذي أتطلع إليه. في يوم من الأيام سينفجر فيَّ شيء وحشيٌّ وسأصبح رجلاً آخر. لذلك إذا كنت حياً، سأذهب لأجدك وأبصق في وجهك.

نظر إليه الدخيل بهدوء.

ـ ليس بدافع الكراهية، ولكن كي أختبر شجاعتي، والتي ستبدو وكأنها أحدث شيء في العالم. الآن، يمكنك التقاعد.

تردد الدخيل للحظة. كانت نظرة أردوسين، التي اتَّسَعَتْ بشكلٍ مكثفٍ، ثابتة عليه. أخذ الحقيبة وخرج.

توقفت إلسا عن الارتجاف أمام زوجها.

ـ حسناً، أنا ذاهبة، يا ريمو، كان من الضروري أن ينتهي الأمر على هذا النحو.

ـ ولكن أنت؟ أنت؟

ـ وماذا في ذلك؟

ـ ماذا كنت تريد مني أن أفعل؟

ـ أنا لا أعرف.

ـ حينئذ؟ ابقَ هادئاً من فضلك. لقد تركت ملابسك جاهزة بالفعل. غيّر ربطة العنق. أنت دائماً تحرجني.

ـ ولكن أنت، إلسا... أنت؟ وماذا عن مشاريعنا؟

ـ أوهام يا ريمو... رائعة.

ـ نعم يا رائعة، لكن أين تعلمت تلك الكلمة الجميلة؟ رائعة.

ـ أنا لا أعرف.

ـ وهل ستنتهي حياتنا للأبد؟

ـ ماذا تريد؟ ومع ذلك كنت جيدة. ثم امتلأت كراهيةً تجاهك، لكن لماذا لم تكن أنت أيضاً نفس الشيء؟

ـ آه، نعم، نفس الشيء!

لقد انتابه حزنٌ شديدٌ مثل حرّ يومٍ مشمسٍ رائع في المناطق الاستوائية. تدلَّت جفونه. ودَّ لو استطاع النوم. كانت الكلمات تعطي معنى يغرق في فهمه ببطء كسقوط حجر في ماء كثيف للغاية. عندما لامست الكلمة أعماق وعيه، اعتصرت قوى الظلام كربه. وللحظة، في أعماق صدره، كانت أعشاب معاناتهم تطفو وترتجف كما في طين البركة. واصلت هي استرضاءه بصوت يحمل كل معاني الاستسلام داخلي: ـ لا فائدة من هذا الآن، أنا ذاهبة. لماذا لم تكن جيداً معي؟ لماذا لم تجد عملاً؟

كان أردوسين على يقين كيقينه بنفسه، وأدَّتْ شفقته الشديدة على نفسه إلى سقوطه على حافة الكرسي، ورأسه محطَّمٌ على ذراعه الممدودة على الطاولة.

ـ إذاً أنتِ ذاهبة؟ هل أنتِ ذاهبةٌ حقاً؟

ـ نعم، أريد أن أرى ما إذا كانت حياتنا تتحسّن، أتعلم؟ انظر إلى يدي...

نزعت قفّاز يدها اليمنى، فأظهرت وجود كدمات من البرد، لدغها المبيض، نقشتها إبر الخياطة، وأظلمت بسخام القدور.

نهض أردوسين متيبساً مهلوساً.

لقد رأى زوجته التعيسة في أحداث الشغب لمدن بورتلاند وييرو، عابرةً الأقطار المظلمة نحو الظل المائل لناطحات السحاب تحت شبكة من خطوط الكهرباء السوداء. مرَّ حشدٌ من رجال الأعمال محميّين بالشماسي. كان وجهها الصغير أكثر شحوباً من أي وقت مضى، لكنها تذكرته عندما اقتحمت أنفاس الغرباء حيّزها الشخصي.

ـ أين هو حبيبي؟

قطع أردوسين قراءاته المستقبلية:

إلسا، أتعرفين، أتيت حينما أردتِ. يمكنك أن تأتي، لكنني قلت الحقيقة، هل أحببتِني من قبل؟

رفعت جفنيها ببطء. اتَّسَعَتْ حدقاتها. ملأ الصوت الغرفة بدفء إنساني. بدا أن أردوسين سيحيا مرةً أخرى الآن.

ـ لطالما أحببتك، الآن أحبك أيضاً أبداً، لماذا لم تتحدثي مثل هذه الليلة؟ أشعر أنني سأحبك طوال حياتي، أنَّ الآخر الذي بجوارك هو ظِلّ رجل.

ـ روحي، يا لروحي المسكينة! حياتنا! يا لها من حياة!

رسمت ابتسامة على شفتيها بشكل مؤلم. نظرت إليه إلسا بحماس للحظة.

ثم بصوت الوعود الجادّ:

ـ انظر! انتظرني. إذا كانت الحياة كما تَصِفها لي دائماً، فسأعود، كما تعلم، وبعد ذلك، إذا كانت لديك الرغبة، فسنقتل بعضنا؛ هل أنت سعيد؟

ارتفعت موجة من الدم إلى خدّي الرجل.

ـ روحي، كم أنتِ جيدةٌ يا روح... أعطِني تلك اليد ـ وبينما كانت لا تزال في حالة من الرهبة، وتبتسم في خجل، قبَّلها أردوسين ـ لا تغضبي يا روحي؟

رفعت رأسها بهدوء في النعيم.

ـ انظر يا ريمو. سوف آتي، أتعلم؟ وإذا كان ما تقوله عن الحياة صحيحاً، نعم، سآتي... سأحضر.

ـ هل ستأتين؟

ـ حتى مع ما لديك.

ـ حتى لو أصبحت غنية؟

ـ حتى لو كان لدي الملايين، فسوف آتي. أقسم لك!

ـ يا روحي، يا لك من مسكينة يا روحي! يا لها من روح تمتلكينها! ومع ذلك، أنت لم تعرفيني. لا تهتمي... آهٍ على حياتنا!

ـ لا يهم. أنا سعيدة. هل تدرك مدى دهشتك يا ريمو؟ أنت وحيد الليلة. أنت وحيد، فجأة يا رجل الباب يفتح، وها أنا ذي... لقد أتيت!

ـ وأنت ترتدين ملابس رقص، وحذاءً أبيض، ولديك عقدٌ من اللؤلؤ.

ـ وأتيت بمفردي، مشياً على الأقدام في الشوارع المظلمة، أبحث عنك، لكنَّك لا تراني، أنت وحيد... الرأس.

قلتُ: كلام... كلام...

ـ الرأس مسندٌ على اليد والكوع على المنضدة، نظرت إليّ، وفجأة...

ـ سأعرفك وسأخبرك: إلسا، هل هي أنت إلسا؟

ـ وأنا أجيب: ريمو، ها قد أتيت، هل تتذكر تلك الليلة؟ تلك الليلة هي الليلة التي كانت الرياح العاتية تهب في الخارج ولسنا باردين ولا حزينين. هل أنت سعيد يا ريمو؟

ـ نعم أقسم أنني سعيد.

ـ حسناً أنا ذاهبة.

ـ أذاهبٌ أنت؟

ـ نعم.

التوى وجه الرجل في حزنٍ مفاجئٍ.

ـ حسناً، اذهب بعيداً.

ـ أراك قريباً يا زوجي.

ـ ماذا قلتِ؟

ـ أقول لك هذا، ريمو. انتظرني. حتى لو كانت لديَّ ملايين العالم، سأعود.

ـ حسناً، ثم إلى اللقاء، لكن أعْطِني قُبْلَة.

ـ لا، عندما أعود. وداعاً يا زوجي.

فجأةً، أردوسين مدفوعاً بقوة تشنجية مجهولة، قبض على يديها بوحشية من معصمها.

ـ قولي لي: هل نمتِ معه؟

ـ دعني أذهب، أنا لا أعتقد أنك...

ـ اعترفي؛ هل ذهبتِ إلى الفراش أم لا؟

ـ لا.

في المدخل توقف القائد. وقد أدى التراخي الشديد إلى إرخاء الأعصاب في أصابعه.

شعر أردوسين بنفسه يسقط ولم يرَ أكثر من ذلك.

طبقات الظلام

لم يكن يعلم أبداً كيف زَحَفَ إلى سريره.

انتهى الوقت بالنسبة لأردوسين. أغمض عينيه مستسلماً للحاجة إلى النوم التي تدَّعِها دواخله المؤلمة. لو كانت لديه القوة، لألقى بنفسه في بئر. تجمَّعَتْ دفقة من اليأس في حلْقِه، خانقةً إياه، وأصبحت عيناه أكثر حساسيةً للظلام من قرحة الملح. على الفور كانت أسنانه تصرخ لإخماد أزمة الأعصاب المتجمدة داخل جسده، والتي تراجعت، مع ليونة الإسفنج، لموجات الظلام التي أفنت رأسه.

كان لديه إحساس بالسقوط في هوَّةٍ لا قاع لها وكان جفناه مُغلقين. لم ينتَهِ من الهبوط، الذي يعرف كم عدد الفراسخ ذات الطول غير المرئي التي كان جسده المادي بها، والتي لم

تُوقِف تماماً غرق وعيه المتراكم الآن في خيبةٍ من اليأس! سقطت طبقاتٌ متتاليةٌ من الظلام الكثيف على جفنيه.

كافح مركز آلامه بلا فائدة. لم يستطع أن يجد شقاً واحداً في روحه يهرب منه. حوى رأس أردوسين كل معاناة العالم، ألم إنكار العالم. أين يمكن أن يحدث أن يجد الرجل بشرته مليئة بطيات المرارة؟ شعر أنه لم يعد رجلاً، بل قرحة مغطاة بالجلد، صُعقت وصرخت مع كل ضربة من عروقه. ومع ذلك فقد عاش. عاش في وقت واحد في مكان بعيد وفي المحيط الفظيع من جسده. لم يعد يعاني من كبوات كائن حي، بل كان شيئاً أكثر لا إنسانياً… ربما صار وحشاً ملفوفاً في نفسه في بطن المنطقة السوداء. كانت كل طبقة من الظلمات تنزل على جفونه عبارة عن نسيج مشيمي يعزله أكثر فأكثر عن عالم الرجال. نمت الجدران، وارتفعت طبقات الطوب، وسقط إعتام عدسة العين الجديدة في ذلك المكعب حيث كان ملفوفاً وينبض مثل الحلزون في عمق المحيط. لم يستطع التعرف على نفسه… شك في أنه كان أوغستو ريمو أردوسين. ضغط على جبهته بين أطراف أصابعه، وبدا لحم يده غريباً بالنسبة له ولم يتعرف على لحم جبهته، كما لو كان جسده مكوناً من بعدين مختلفين. من يدري ما الذي مات فيه بالفعل؟ فقط تبقى لمركز إحساسه، وعي غريب قد حدث له، روح لن يكون لها طول نصل السيف وتهتز مثل ثعبان البحر في مياه حياته الغائمة. حتى وعيه بالوجود، لم يشغل أكثر من سنتيمتر مربع من الحساسية. نعم، كان جسده كله فقط على قيد الحياة، وكان ملامساً للأرض، لمركز إحساس يبلغ سنتيمتراً مربعاً. تلاشت بقيته في الظلام. نعم، كان رجلاً ذا سنتيمتر مربع، سنتيمتر مربع من الوجود يطيل بمسطح الإحساس، الحياة غير المتماسكة لشبحٍ ماتت البقية فيه، وتم الخلط بينه وبين مشيمة الظلام التي كانت تغطي واقعه المرير.

أصبح الإلهام لديه أقوى، وأقوى ما فيه شعوره بكونه قابع في قاع مكعب بورتلاند. شعور من عالم آخر! أضاءت شمس غير مرئية الجدران، بلون برتقالي عاصف إلى الأبد. كان جناح طائر منعزل يطل على السقف فوق مستطيل الجدران، لكنه سيظل إلى الأبد في الجزء السفلي من هذا المكعب المصمت، المضاء بشمس عاصفة برتقالية.

ثم تقلَّصَت قدرته على الحياة إلى ذلك السنتيمتر المربع من الإحساس. حتى دقّات قلبه أصبحت «مرئية» له، ولا جدوى من رفض الشخصية البشعة التي تُثْقِله في قاع تلك الهاوية، لحظة سوداء وأخرى برتقالية. بقليل من التراخي في إرادته، كانت الحقيقة التي احتوتها تصرخ في أذنيه. أردوسين لم يكن يريد، لكنه أراد أن ينظر، لكن بلا طائل. كانت الزوجة هناك، في الجزء الخلفي من غرفة ملونه باللون الأزرق. تحرك القائد في زاوية. كان يعلم، على الرغم من أن أحداً لم يخبره بذلك، أنها كانت غرفة نوم صغيرة، سداسية الشكل، ويشغلها بالكامل تقريباً سرير واسع منخفض. لم يكن يريد أن ينظر إلى إلسا. لا، لا، بل كان يريد ذلك، لكن حتى إذا ما هددوا بقتله، فلن يعني ذلك أنه كان سيتوقف عن التحديق في الرجل الذي كان ينزع ملابسه أمامها... قبلات زوجته الشرعية التي لم تكن معه الآن، ولكن مع شخص آخر. كان احتياجه لمزيد من الرعب أقوى من خوفه، احتياجه لمزيدٍ من المعاناة، وفجأةً، غطَّت عينيها بأصابعها، وركضت نحو الرجل العاري ذي الساقين الصلبتين، وضغطت بنفسها عليه ولم تعد تخجل منقطعة اللحم المنتصبة على خلفية زرقاء.

جلس أردوسين ممدداً يتملكه شعور كامل بالرهبة. إذا ما مرّ عليه كل ذلك عبر شقيْ رحى لما كانت حياته أكثر امتداداً. أليست الضفادع التي ضربتها عجلة العربة على المسار، محطمة ومحترقة؟ لكنه لم يكن يريد أن ينظر، لذلك لم يكن يريد أن يرى الآن بوضوح كيف استندت إلسا على صدر الرجل المربّع المشعر، بينما كانت يداه تأخذان بفكي المرأة لرفع وجهها إلى فمه.

وفجأةً صاحت إلسا: «أنا أيضاً يا عزيزي... وأنا أيضاً. احمرَّ وجهها من الخجل، وملبسها يلتف حول مثلث فخذيها الأبيضين كاللبن، وعيناها تنفجران على العضلة المتصلبة المرتعشة للرجل، واكتشفت طبيعة جسدها الجنسية وثدييها المنتصبين. آه! لماذا عيناه تشاهدان؟

دون جدوى إلسا... نعم، كانت إلسا، زوجته الشرعية، تحاول بيدها الصغيرة احتضان كل رجولته في مداعبة. تحت عواء رغبته، أمسك الرجل بصدغيه، وغطى عينيه بساعده؛ لكنها

كانت تتكئ عليه وتلتصق بهذا الحديد الملتهب في أذنيه: «أنت ألطف من زوجي! ما أجملك! يا إلهي!».

إذا كانوا قد لفّوا رأسه ببطء على رقبته لإعطائه الفرصة لتلك الرؤية الفظيعة بعمق في روحه، فلن يعاني أكثر مما عانى. لقد عانى كثيراً لدرجة أنه إذا توقف هذا الألم، فإن روحه ستنفجر. كيف يمكن للروح أن تتحمل كل هذا الألم؟ ومع ذلك فقد أراد أن يعاني أكثر. فوق الجرح قاموا بتقطيع ظهره بفأس إلى عدة أجزاء، ولو تم إلقاء أربع قطع في صندوق قمامة، لكان قد استمر في المعاناة. لم يكن في جسده سنتيمتر مربع لا يتحمل ضغط الألم الشديد.

انقطعت كل الخيوط تحت ضغط الرافعة البشعة، وفجأةً كان الشعور بالراحة متوازناً في أطرافه. لم يَعُدْ يريد أي شيء. ركضت حياته بصمتٍ على منحدر، مثل بحيرةٍ بعد أن تمّ اختراق سدّها، وبدون نوم، ولكن بجفون مغلقة، كان التلاشي الواضح مخدراً لألمه أكثر من حلم الكلوروفورم (3).

كان قلبه ينبض بشكلٍ ملحوظٍ. بصعوبة حرَّكَ رأسه لنزع فروة رأسه عن الوسادة المحمومة، وسمح لنفسه بأن يكون بدون أي دليل آخر على الحياة غير تلك البرودة في مؤخرة رقبته وفتح وإغلاق قلبه، بطريقة هي أقرب إلى عين ضخمة، تفتح الجفن النائم للتعرف على الظلام، ليس إلا. لا شيء سوى الظلام؟

كانت إلسا بعيدة جداً عن ذاكرته لدرجة أن بدت له رؤيتها في ذلك التنويم المغناطيسي المؤقت كذبة. من يدري ما إذا كانت موجودة جسدياً. قديماً كان يتمكن من رؤيتها، لكن الآن عليه بذل جهد كبير للتعرف عليها، وبالكاد يتعرف عليها. الحقيقة هي أنها لم تكن هي، وهو لم يكن هو. الآن تنحدر حياته بصمت على منحدر، شعر بالعودة بالزمن، الطفل الذي كان ينظر إلى شجرة خضراء مُلقيةً بظلالها على الاختفاء المستمر لنهر بين بعض الحجارة ذات البقع الحمراء. نفس الشيء، كشلال من لحم في الظلام. من يدري متى سينتهي النزيف! وكان من اللافت للنظر فقط إغلاق وفراق قلبه أنه مثل العين الهائلة فتحت جفنها

النائم لتتعرف على الظلام. تسرَّبَ الضوء الكهربائي في منتصف الكتلة عبر صدع، سقط كخط من الفضة على مانع الناموس. كان وعيه يتعافى بشكل مؤلم.

كان هو أردوسين. لقد تعرف على نفسه الآن. تقوَّسَ ظهرُهُ بشكل كبير. ظهر شريط أصفر أسفل الباب الذي أغلق مدخل غرفة الطعام. لقد نسيَ إطفاء الضوء. كان مديناً... آه، لا، لا، لقد ذهبت إلسا... مديناً بستمئة بيزو وسبعة سنتات لشركة السكر المحدودة. لكن لا، لم يعد مديناً لها، إذ كان لديه شيك...

ـ آه، الواقع، الواقع!

كان شعاع الضوء على شكل متوازي الأضلاع المائل، القادم من الشارع الذي يصبغ مانع الناموس بلون الفضة هو الفكرة القائلة بأنه عاش كما كان من قبل، كما كان بالأمس، كما كان قبل عشر سنوات.

لم يكن يريد أن يرى خط الضوء هذا، لأنه عندما كان صغيراً، لم يكن يريد «رؤية هذا النهار الذي كان موجوداً، على الرغم من أنه كان يعلم أنه لا توجد قوة بشرية يمكن أن تخفي ضوء النهار». نعم، على غرار ما حدث عندما أخبره والده أنه سيضربه في اليوم التالي. لم تكن هي نفسها الآن. كان ذلك الضوء الآخر مزرقاً، هذا الضوء فضي، لكنه صارخ ويعلن عن الحقيقة مثل النور القديم. بلل العرق صدغيه وأطراف شعره. ذهبت إلسا ولن يأتي أحد آخر؟

ماذا كان سيقول بارسوت؟

الصفعة

فجأةً توقف شخصٌ ما أمام الباب الأمامي. أدرك أردوسين أنه هو، ومن ثمَّ قفز من الفراش. كالعادة اصطدم بارسوت بشيء على الرغم من محاولته عدم إحداث ضوضاء.

بصوت أجش، صاح به أردوسين:

ـ ادخل؛ لماذا لا تدخل؟

دخل بارسوت حاملاً كتلة جسده كلها على كعبيه.

صرخ ريمو في وجهه بينما دخل الآخر إلى غرفة الطعام قائلاً: «أنا قادم الآن».

وعندما دخل، كان بارسوت قد جلس بالفعل، مقرباً رجليه، وظهره إلى الباب كالمعتاد، وظهره في اتجاه الركن الجنوبي الشرقي من الغرفة.

ـ ماذا تفعل؟

ـ كيف تجري الأمور؟

وضع كوعه على حافة الطاولة، ومسنداً خده على لحيته وتحول الضوء الى اللون الأحمر النحاسي على جلد يده الأبيض. تحت الحاجبين، الممتدين الى الأمام، حيث عيناه الخضراوان خفيفتا الزرقة الصعبة التي تسببت فيها درجة حرارة السؤال.

ميَّزَ أردوسين ملامحه كما لو كان يراه من خلال ضباب من الأضواء الخافتة فوق رأسه، الجبهة الهاربة والصدغان نحو الأذنين المحددتين، الأنف العظمي لطائر جارح، الذقن المستدق لتحمل الضربات الهائلة والعقدة الأنيقة لربطة العنق السوداء المسحوبة من الرقبة المبتدئة.

صوت جرس أخرق، ثم سأل الآخر:

ـ وإلسا؟

استعاد أردوسين وعيه.

ـ لقد غادرت.

ـ آه!

صمتوا وحدَّقَ أردوسين في المثلث الذي شكَّلَه الكُمُّ الأيمن الرمادي من السترة على الحافة البيضاء للطاولة، والخد الذي أضاء المصباح بلون أحمر نحاسي حتى نهاية الأنف، بينما قبع النصف الآخر من الوجه من جذر الشعر إلى غشاء الذقن في الظلام حيث تعمق فيه فتحة العين كهف الظل. حرك بارسوت ببطء إحدى قدميه فوق الأخرى.

ـ آه! استمع أردوسين سائلاً: «ماذا تقول؟».

لأن أردوسين كان قد سمِعَ كلمة «آه» ينطق بها قبل ثوانٍ قليلة، قبل الآن.

هل ذهبت إلسا؟

قام بارسوت بتعديل وضع رأسه، ورفع حاجبيه للسماح بدخول المزيد من الضوء إلى جفنيه، وبشفتين متباعدتين قليلاً، انفجر:

ـ هل غادرت؟

عبس أردوسين، نظر إلى حذاء الآخر، وحدَّقَ في عينيه، متجسّساً معاناة بارسوت من خلال رموشه، وسقط ببطء:

ـ نعم... ذهبت... مع... رجل...

ويغمز بجفنه الأيسر مثل الصيدلاني إرجويتا، أحنى رأسه. تحت خط الحواجب السمرة، تنتظر حدقتا عينيه بضراوة.

تابع أردوسين:

ـ هل ترى؟ هناك المسدس. كنت أستطيع قتلهم ومع ذلك لم أفعل. يا للإنسان من حيوان فضولي! أليس كذلك؟

ـ وهل سمحت لنفسك بحمل امرأة في عينيك؟

داخل أردوسين، تأججت الكراهية القديمة التي سخرت منها المهانة الأخيرة وتحولت إلى دافعٍ للابتهاج القاسي وبصوت مرتجف في حلقه، وفمٍ جافّ مستاء، قال: ـ لماذا تهتم بالأمر؟

صفعة كبيرة جعلته يتعثر على الكرسي. لاحقاً، تذكَّرَ ذراع بارسوت وهي تتحرَّك ذهاباً وإياباً، ثم تعجن لحمه. فقد غطَّى خدّيه بكلتي يديه، وأراد الهروب من تلك الكتلة التي كانت تتقدَّم عليه دائماً مثل قوة الطبيعة غير المقيدة. ارتطم رأسه بالحائط فسقط.

عندما أفاق وجد بارسوت راكعاً بجانبه. لاحظ وجود قطعٍ في رقبته، وأن قطرات من الدماء كانت تسيل عبر حلقه. ظهر ألم خفقان من الحاجز الأنفي، وفي كل لحظة بدا أنه سيعطس. نزفت لثّته ببطءٍ وكان سطح السِّن مرئياً تحت تورُّم شفتيه.

كافح أردوسين ليقف على قدميه، وألقى بنفسه فوق أحد الكراسي. كان بارسوت شاحباً لدرجة أنه بدا أن شعلتين تفرّان من عينيه. من عظام الخد إلى الأذنين، صنعت حزم العضلات قوسين يرتجفان. شعر أردوسين بالتأرجح في حلم لا نهاية له، لكنه فهم عندما أخذه الآخر من ذراعه قائلاً: ـ انظر، ابصق في وجهي إذا أردت، ولكن دعني أتحدث. أريد أن أخبرك بكل شيء. اجلس... هكذا، هناك. كان أردوسين قد نهض دون وعي. اسمعني من فضلك. إذا أردت الحق؟ يمكنني لكُمُك حتى الموت، لقد خرجت عن السيطرة... أقسم... إذا أردت، يمكنني أن أسألك الصفح جاثياً على ركبتي. ماذا تريد ها أنا ذا. انظر... آه... آه... لو يعلم الناس فقط.

بصق أردوسين دماً. احتضنت دفعة حرارية جبهته ودخلت عبر وجنتيه ومتجهة لثقب مؤخرة رقبته. انحنى ظهره لدرجة أنه أراح رأسه على حافة الطاولة. سأله بارسوت وهو يراه هكذا: هل تريد غسل وجهك؟ ستشعر بتحسُّن إذا فعلت. انتظر لحظة، لا تخرج. وركض إلى المطبخ، ومن هناك عاد بوعاء ممتلئ بالماء قائلاً له: اغتسل. سوف يفيدك هذا. هل تريد مني أن أفرك لك؟ انظر، سامحني، لقد كان اندفاعاً. أنت أيضاً، لماذا غمزت على سبيل الاستهزاء؟ اغسل نفسك، أَسْدِ لي معروفاً.

نهض أردوسين بصمت وغمس وجهه في الوعاء عدة مرات. كان يرفع وجهه على سطح الماء، عندما كان يشعر بضيق في التنفس. ثم جلس وقد بخَّرَ الهواء رطوبة شعره بجانب صدغيه. كم كان متعباً! آه، لو رأته إلسا على هذا النحو! كانت ستشفق عليه! أغلق عينيه. رفع بارسوت الكرسي بجانبه وقال: ـ من الضروري أن أخبرك بكل شيء. إذا لم أفعل، سأشعر وكأنني وغد. كما ترى، أتحدث إليك بكل هدوء. انظر، إذا كنت لا تصدق ذلك، ضع يدك على قلبي. سأكون صريحاً. حسناً، أنا... أنا... أبلغت عنك في مصنع السكر؛ كنت أنا من أرسل الشخص المجهول.

لم يرفع أردوسين رأسه. هذا أو ذاك، ما الذي يهم!

نظر إليه بارسوت: كان ينتظر ما يُتَوقع من الكلمات، فقال:

ـ لماذا لا تقول شيئاً؟ نعم، لقد أبلغت عنك. أتدرك ما أقول؟ لقد أبلغت عنك. أردت أن أضعك في السجن، وأبقى مع إلسا، رغبت في إذلالها. لا يمكنك تخيل الليالي التي قضيتها وأنا أفكر في أنهم سيضعونك في السجن! لم يكن لديك مصدر تحصل منه على المال، وسوف يدينونك لا محالة. لكن لماذا لا تقول أي شيء؟

رفع أردوسين جفنيه. كان بارسوت هناك، نعم، كان هو، وقد قال كل هذه الأشياء. من عظام الوجنتين إلى الأذنين، وما تحت الجلد، وانعكاس العضلات، كلها كانت ترتجف بشكلٍ غير محسوس.

أنزل بارسوت عينيه، وأحنى مرفقيه على ركبتيه كما لو كان أمام موقد، وبصوتٍ بطيءٍ أصرَّ قائلاً:

ـ أريد أن أخبرك بكل شيء. لمن غيرك يمكنني أن أقول كل هذه الأشياء التي تُدمي قلبي؟ يقولون، وهذا صحيح، إن القلب لا يؤلم، ولكن صدقني، أحياناً أقول لنفسي: لماذا أعيش؟ إلى أين تذهب الحياة إذا ظللت على هذا المنوال؟ هل تفهم؟ عليك أن ترى كل ما فكرت به في ظل هذه الأحداث. انظر، ما كان عليَّ حتى أن أخبرك. كيف يكون ذلك؛ أن يقوم وغد بفعل شيء قذر لشخص ما، ثم يذهب إليه ويخبره بأسراره الأكثر حميمية، ولا يشعر بالندم؟ لقد قلت لنفسي عدة مرات: لماذا لا أندم؟ كيف تكون الحياة إذا فعلنا فعلاً همجيّاً ولم نشعر بأي شيء؟ هل تفهم هذا؟ حسب ما درسناه في المدرسة، تنتهي الجريمة دائماً بجنون الجاني، وكيف ترتكب جريمةً وتستطيع أن تحافظ على هدوئك قدر الإمكان؟

واصل أردوسين تركيز نظره على بارسوت، والآن ترسبت صورة ذلك الرجل في أعماق وعيه. أحاطت قوى حياته بالارتياح الباهت لشبكة كثيفة لدرجة أن التعقب الذي حدث في تلك اللحظات لن يتمَّ محوه بعد الآن.

تابع بارسوت: «انظر، كنت أعلم أنك غاضبٌ مني، ولو تمكّنت من قتلي، لكنت فعلت ذلك، وهذا يشعرني بالسعادة ويحزنني في الوقت نفسه. كم ليلة ذهبت إلى الفراش وأنا أفكر في كيفية اغتيالك! حتى أنني فكرت في إرسال قنبلة في البريد، أو إرسال ثعبان في صندوق من الورق المقوّى. أو أن أدفع لأحد السائقين مقابل دهسك في الشارع. أغمضت عيني ومرت الساعات أفكر فيكما. هل تعتقد أنى أحبها؟ لاحظ أردوسين لاحقاً أنه خلال محادثتهما تلك الليلة تجنب بارسوت مناداة إلسا بالاسم. لا، لم أحبّها قط. لكني كنت أرغب في إذلالها كما تعلم؟ لإذلالها نعم، لأنها بمجرد رؤيتك غارقاً فإنها ستأتي إليَّ راكعة على ركبتيها سائلةً إياي التدخل لمساعدتك. أتعلم؟ أنا لم أحبّها قط. إنني إذ شكوتك، فذلك كان السبب، لإذلالها، هي التي دائماً ما كانت تفخر بك أمامي. وعندما أخبرتني أنك اختلست

الأموال من مصنع السكر، تأججت فرحة جامحة بداخلي. ولم تكن قد انتهيت من الحديث عندما قلت لنفسي: حسناً، لنرَ الآن أين ينتهي كبرياؤه».

ترك أردوسين السؤال يفلت منه:

ـ ولكن هل أحببتها؟

ـ لا، لم أحبها قط. إذا كنت تعرف فقط كم جعلتني أعاني! أنا أحبها، لم تمد إليَّ يدَ العون مطلقاً، في كل مرة كانت تنظر إليَّ كانت تبدو وكأنها تبصق في وجهي. آه، لقد كنت أنت الزوج، لكنك لم تعرفها أبداً! أنت لا تعرف أيّ امرأةٍ هي! انظر، يمكنها رؤيتك تموت ولن يطرف لها جفن. هل تدرك ما أقول؟ أتذكر. عندما احترق منزل أسترالدي وأصبحتم في الشارع، لو طلبَتْ مني كل ما لديّ في ذلك الوقت، لكنت أعطيته لها. كنت سأمنحها كل ثروتي لتقول فقط: «شكراً». لا شيء سوى «شكراً لك». لكي تقول لي هذه الكلمة، كنت سأبقى بلا شيء. ذات يوم عندما بدأت محادثتها أجابتني: ريمو رجل قادر على كسب العيش لكلينا. آه، أنت لا تعرفها! هي قادرة على مشاهدتك تموت دون أن يتحرك لها ساكن. ولقد كنت أفكر. كم من الأشياء يا إلهي تمرّ في رأس الرجل! كنت ألقي بنفسي على السرير ومن ثم أبدأ في تخيُّل الأشياء... أنت قتلت رجلاً... كان من الضروري أن أنقذك ثم تأتي هي لتطلب مني مساعدتك، وأنا دون أن أقول كلمة واحدة عن تضحياتي، سأركض في عجلة من أمري جيئةً وذهاباً. يا لها من امرأة، يا ريمو! يا لها من امراة! أتذكر عندما كانت تَحيك. كنت سأبقى بجانبها، هل تعلم؟ حاملاً لها ماكينة الحياكة، وعلمت أنها ليست سعيدة معك. استطعت قراءة ذلك في عينيها، في تعبها، في ابتسامتها.

تذكر أردوسين الكلمات التي لفظتها إلسا منذ ساعة: «لا يهم... أنا سعيدة». هل تدرك دهشتك يا ريمو؟ حينما تجد نفسك وحيداً في الليل، أنت وحيد... فجأة، كرااااك... ينفتح الباب... وأنا... أنا التي أتيت. تابع بارسوت: ـ وبالطبع تساءلت ما الذي جعلها تتحمّل الحياة معك، بجانب رجل مثلك.

ـ وجئت على الأقدام وحدي عبر الشوارع المظلمة، أبحث عنك، لكنك لا تراني، أنت وحيد، رأسك...

شعر أردوسين بأن أفكاره تهيم على سطح دماغه مثل دوامة من الماء. قام المخروط العملاق بإغراق الحلزون حتى نهاية جذوره. الدوامة التي اقتلعت لمستها الناعمة من روحه حناناً مؤلماً جديداً. ما أجمل كلام إلسا، يا له من محتوى غير عادي!

ـ لطالما أحببتك. الآن أنا أحبك أيضاً... لماذا لم تتكلم أبداً مثل هذه الليلة؟ أشعر أنني سأحبُّك طوال حياتي، وأن الآخر بجانبك ما هو إلا ظل رجل.

كان أردوسين متأكداً الآن من أن هذه الكلمات أنقذت روحه إلى الأبد، بينما تنمو بداخل بارسوت معاناة الحسد:

ـ وودت أن أسألها عن مقدار استفادتها بوجودها بجانبك، وأنْ أكشف عن صدرك أمامها وأُظْهِر لها، حتى تتعب، أنك مجنون، وغد، وجبان... أقسم بهذه الكلمات بدون غضب.

أجاب أردوسين: «أنا أصدِّق ذلك».

ـ الآن، أتساءل، بينما أنظر إليك: بأيّ عينين تنظر المرأة إلى الرجل؟ هذا ما لن نعرفه أبداً. ألا تعتقد؟ أنت بالنسبة لي شخصٌ بائسٌ، شخصٌ يتمّ سحْبُه إلى الأمام بخطوةٍ إلى الخلف. لكن بالنسبة لها، من كنت؟ هذه هي البقعة المظلمة.

هل كنت تعلم من قبل؟ قل لي صراحةً: هل أدركت بقلبك أيَّ رجلٍ كنت لزوجتك؟ ماذا رأت فيك لتتحمل ألم الوجود بجانبك وتتحملك كما فعلَت؟

يا له من حديثٍ على قدرٍ عالٍ من الخطورة ينطق به بارسوت! أسئلته المليئة بالحيوية تتطلب إجابة. شعر أردوسين به في جواره المباشر ليس كرجل، ولكن على وجه التحديد كشبح مزدوج، شبح ذي أنف عظمي وشعر برونزي أصبح فجأةً جزءاً من وعيه، لأن مثل

هذا في ظروف أخرى كان يسأل نفسه نفس الأسئلة الآن. نعم، كان من المحتمل أنه كي يتمكَّن من العيش بسلام يتوجَّب عليه إبادته، هكذا نبتت «الفكرة» بداخل رأسه ببرود.

قال أردوسين في وقتٍ لاحقٍ: «مثل دخول سكّين في قطعة من الحلوى».

لم يتخيل بارسوت حتى عن بعد أنه في تلك اللحظة حكم عليه ريمو بالإعدام. مؤخراً قصَّ على أردوسين ملابسات ذلك الفعل حيث قال لي:

«هل سبق لك أن رأيت جنرالاً في ساحة المعركة؟ ولكن لجعل فكرتي في متناولك، سأخبرك كمخترع: أنت تبحث عن حل لمشكلة ما لفترة معينة. أنت تعرف، أنت متأكد من أن المفتاح، السر، موجود فيك، لكن لا يمكنك التعرُّف عليه، وذلك لأن السر مخفيٌّ جداً بطبقات من الغموض. وذات يوم، في أكثر اللحظات غير المتوقعة، فجأةً تظهر الخطة، الرؤية الكاملة للآلة، أمام عينيك، تبهرك بدقتها السهلة. إنه شيء رائع! تخيَّل أن جنرالاً في ساحة المعركة فقد كل شيء، وفجأةً، وبوضوح، ظهر حلٌّ لم يحلم به مطلقاً، ومع ذلك، كان هذا الحل هناك، في متناول يده، داخل نفسه. في تلك اللحظة، علمت أنه يجب أن أقتل بارسوت، وكان أمامي، ويتفوّه بكلمات عديمة الفائدة، لم يتخيّل أنني، بفم منتفخ وأنف يتألم احتفظت بفرحة هائلة، مبهرة مثل ما يتمّ اختباره عندما يتمّ اكتشاف تلك الأشياء عديمة الفائدة كالقوانين الرياضية. ربما توجد أيضاً رياضيات للروح ليست قوانينها الرهيبة مصونة مثل تلك التي تحكم مجموعات الأرقام والخطوط. لأنه فضوليّ. تلك الصفعة التي ما زالت تجعل لثّتي تنزف، مثل ختم مكبس هيدروليكي، ختمت الخطوط النهائية لخطة الموت على ضميري.

أدرك؟ الخطة تتكون من ثلاثة خطوط عامة، وثلاثة خطوط مستقيمة مقبولة، ولا شيء أكثر من ذلك. وفي صخب، تراكمت فرحتي على هذا الارتياح البارد الذي أرفقته خطوطه الاصطناعية الثلاثة: اختطاف بارسوت، وقتله، وإيجاد أمواله المحفوظة بالجمعية السرية كما أراد المُنَجِّم. هل تدرك ذلك؟ لقد نشأت داخلي خطة الجريمة بشكلٍ عفويّ، بينما تحدّث

الآخر بحزن عن أرواحنا المنكوبة. بَدَت لي الخطة وكأنه قد تمَّ ختْمُها على لوح من الحديد بآلاف الجنيهات من الضغط.

آه! كيف أشرح؟ فجأةً نسيتُ كل شيء محجوز بواسطة تأمُّل جليدي، مليء بالبهجة، شيء مثل الفجر الذي يكتشفه رجل معتاد في وقت متأخر من الليل الذي أعقب ليلة مليئة بالتعب يريحه من التعب في الصباح. أدرك؟ أجعله يغتال بارسوت على يد رجل كان في أمس الحاجة إلى المال لتنفيذ فكرة رائعة. وكان هذا الفجر الجديد الذي كان ينبض في داخلي فردياً تماماً لدرجة أنني تساءلت مرات عديدة، لاحقاً، ما هو السر الذي تحمله روح الرجل، والتي، تِباعاً، تُظهر له آفاقاً جديدة، تكشف عن المشاعر التي هي بالنسبة له مدهشة. بسبب أصلهم الذي يبدو غير منطقي. في سياق هذه القصة نسيت أن أقول إنه عندما كان أردوسين متحمساً، دار حول محور «الفكرة» بكلمات عديدة. لقد احتاج إلى استنفاد كل إمكانيات التعبير، الذي استحوذ عليه ذلك الجنون البطيء الذي من خلال الجمل منَحَهُ الوعي بأنه رجل غير عادي وليس بائساً. لم يكن لديَّ شكٌ في أنه كان يقول الحقيقة. ما أربكني مرات عديدة كان السؤال الذي طرحته على نفسي: من أين حصل هذا الرجل على الطاقة لتحمل وضعه محل عرض لفترة طويلة؟ لم يفعل شيئاً سوى تحليل أفعاله وتحليل ما كان يحدث فيه، كما لو أن مجموع التفاصيل يمكن أن يمنحه اليقين بأنه يعيش. أنا أصر.

لو قُدِّرَ لرجل ميت أن يعود ويتمكَّن من الحديث لن يتكلم أكثر مما يتكلم، للتأكُّد من أنه لم يمت على ما يبدو.

واصل بيرسوت، غير مدركٍ لكل ما حدث للتَّو:

ـ آه، أنت لم تعرفها... لم تعرفها قط. انظر، استمع إلى ما سأرويه لك. بعد ظهر أحد الأيام ذهبت لرؤيتك، علمت أنك لم تكن هناك، أردت مقابلتها، أردت رؤيتها مرة أخرى فقط، حتى لو كانت كذلك. وصلتُ ورائحة العرق تفوح مني، ولا أعرف عدد الكتل التي سِرْتُ فيها في الشمس قبل أن أجد الظل.

ـ «مثلي، وأنا في الشمس»، فكر أردوسين.

ـ وأنت تعلم أنني لا أفتقر إلى المال لآخذ سيارة، وحتى عندما طلبتُ منها الدخول، أجابتني دون أن تتحرك عن عتبة المنزل:

ـ عفواً، أنا لا أستطيع لأن زوجي ليس هنا. يا لها من عاهرة؟

يفكر أردوسين:

ـ لا يزال هناك قطار متجه إلى تيمبرلي.

تابع بارسوت:

ـ وأنا، الذي رأيتك مثل هذا الرجل الفقير، قلت لنفسي: ما الذي رأته إلسا في هذا الرجل التعيس لتقع في حبه؟

وبصوت هادئ جداً سأله أردوسين:

ـ وهل يلاحظ في وجهي أنني غير سعيد؟

رفع بارسوت رأسه مرتبكاً. للحظة، لوهلة ثبتت الحدقتان الشفافتان الخضراوان في عينيه على مُحاوِره. شعاع الضوء الذي سقط من عينيه وقطعه أردوسين من مسافة تشبه الحلم. ولقد شعر بارسوت بنفسه كشبح مثل الآخر، لأنه كان يهزُّ رأسَه بشكل مؤلم، وكأن كل عضلات رقبته قد تجمَّدت فجأةً، ثم أجاب: ـ لا، بإمعان النظر إليك تبدو كرجل يركّز على فكرة بعينها... من يعرف ماهيتها!

أجاب أردوسين:

ـ أنت طبيبٌ نفسيٌّ بالفطرة، ما زلت لا أعرف ماهية تلك الفكرة الثابتة، لكن من الغريب أن ما لم يخطر لي ببال مطلقاً هو أنك كنت تفكر في انتزاع زوجتي بعيداً عني... والسكينة التي تروي بها ذلك الشيء.

ـ ولكنك لا تنكر أنني على قدرٍ عالٍ من الصراحة.

ـ لا.

ـ أيضاً أردت أن أذلها، لا أسرقها منك، من أجل ماذا؟ إذ أنني كنت على علم بأنها لن تحبني أبداً.

ـ وإلى ماذا تعزو ذلك؟

ـ هذا ما لا أعرفه. لأن الشخص يفعل أشياء معينة لا يمكن تفسيرها. لأنني كنت أتعامل معك وكنت تعاملني، ولم نتمكن من «تجاوز» بعضنا. كنت آتي لأنه بمجيئي إليك أجعلك تتألم، وهي كانت تتألم. كنت كل يوم أقول لنفسي لن أذهب مرةً أخرى، لن أذهب مرةً أخرى، ولكن بمجرد أن يحين الوقت، أشعر بالتوتر. كان الأمر كما لو أنهم ينادون عليَّ من مكانٍ ما، وبعد ذلك كنت أرتدي الملابس على عجل، كنت سأحضر.

وفجأةً لاحت لأردوسين فكرة فريدة، فقال:

ـ بالحديث قليلاً عن كل شيء، لا أعرف إذا كنت تعلم أنهم تحدَّثوا معي هذا الصباح في مصنع السكر عن المحتال المجهول.

إذا لم أقدّم فواتير الحسابات، فسوف يضعونني في السجن غداً. الجاني الوحيد، وأعتقد أنه ليس لديك مشكلة في الاعتراف بذلك، في أن هذا يحدث هو أنت، لذلك عليك أن تزوّدني بالمال. من أين سأحصل أنا على هذا المبلغ؟

وقف بارسوت مندهشاً.

ـ ولكن كيف؟ بعد أن اعترفت على نفسي بالدياثة والضرب، وبعد أن غادرت إلسا وأصبح العار من نصيبي، هل أنا من يجب أن أعطيك المال؟ هل أنت مجنون؟ بأي ميزة سأمنحك ستمئة بيزو؟

ـ وسبعة سنتات.

نهض أردوسين.

ـ هل هذه هي كلمتك الأخيرة؟

ـ ولكن افهمني، كيف يمكنني؟

ـ حسناً «يا بني»... الصبر. الآن أَسْدِ لي معروفاً وارحل، أريد أن أنام.

ـ ألا تريدنا أن نخرج؟

ـ أنا مُجْهَد. دعني.

تردَّدَ بارسوت. ثم، نهض ممسكاً قبَّعَته من حافة واحدة، تعثر خارجاً من الغرفة.

سمع أردوسين صوت الباب يُغلق، عابساً للحظة، بحث في حقيبته عن دليل السكك الحديدية، نظر إلى الجدول الزمني، ثم اغتسل مرةً أخرى، وأمام المرآة كان يمشِّط شعره. كانت شفته مصابة بكدمات، وبقعة حمراء على أنفه، وكذلك بقعة أخرى تدور حول صدغه، بالقرب من منبت شعره.

نظر حوله بحثاً عن شيء ما، ثم رأى المسدس الملقى، فالتقطه وخرج. ولكن عندما رأى أنه ترك الضوء مضاءً، عاد وأطفأ المصباح. أصبح كل شيء مظلماً الآن، على أثر الضوء الذي كان ما يزال أمام عينيه؛ خرج. للمرة الثانية في ذلك اليوم كان ذاهباً إلى منزل المُنَجِّم.

«أن تكون» من خلال جريمة

كان جزءٌ من الرصيف في محطة تيمبرلي مضاءً بشكل خافت بواسطة الضوء القادم من باب مكتب مشغّلي التلغراف. جلس أردوسين على مقعد بجانب عتلات تغيير المسار، في الظلام. كان بارداً وربما مصاباً بالحمى. بالإضافة إلى ذلك، كان لديه انطباع بأن الفكرة الإجرامية كانت جزءاً لا يتجزأ من جسده، مثل رجل الظلام الذي يمكن أن يسير في النور. أضاء قرص أحمر في نهاية الذراع غير المرئية لإشارة المرور: بعد ذلك كانت الدوائر الحمراء والخضراء الأخرى عالقة في الظلام، وانحناء المسار المطلي بالكهرباء لتلك الأضواء أدّى إلى استدارة لونها المزرق أو القرمزي في الظلام. في بعض الأحيان ينخفض الضوء الأحمر أو الأخضر. ثم توقَّفَ كل شيء، توقفت السلاسل عن الصرير على الحزم وامتدت الأسلاك إلى الحجارة. لقد كان في حالة غضب.

ـ ماذا أفعل هنا؟ لماذا أنا هنا؟ هل صحيح أنني أريد قتله؟ أم أنني أريد أن أملك الإرادة لأشعر بالرغبة في قتله؟ هل هذا ضروري؟ الآن سوف تتمايل معه. لكن ما الذي يهمني؟ في الماضي، عندما كنت أعرفها وحيدة في المنزل، بينما كنت أنا في المقهى، عانيت من أجلها، عانيت لأنها كانت غير سعيدة معي... الآن، بالطبع... لا بد أنهم قد خلدوا إلى الفراش بالفعل، وقد أراحت رأسها على صدره. يا الله! وهل هذه هي الحياة؟ كوننا تائهين، دائماً ما نضيع! لكن هل سأكون حقاً ما أنا عليه؟ أم سأكون شخصاً آخر؟ الحزن! الحياة بغرابة! هذا ما يحدث لي. مثلما يحدث له. عندما يكون بعيداً أتخيله كما هو، لقيط، مؤسف. كاد أن يكسر أنفي. ولكن ما مدى وضاعته! اتضح الآن في نهاية اليوم أنه هو الديوث والمعتدى عليه وليس أنا! أنا! حقاً، الحياة سيرك! ومع ذلك، هناك شيء خطير. لماذا يسبّب لي القرف عندما يكون في الجوار؟

تمايلت بعض الظلال أمام النافذة الصفراء لأجهزة التلغراف.

ـ أقتله أم لا أقتله؟ ماذا يهمني هذا؟ هل أهتمُّ لقَتْلِه؟ لنكن صادقين؛ هل يهمُّني قتله؟ أم أنني لا أهتم على الإطلاق؟ ماذا يهمني إذا كان سيحيا؟ ومع ذلك فأنا أريد أن أمتلك

الإرادة لقتله. إذا جاء الله الآن وسألني: هل تريد أن تمتلك القوة لتدمير البشرية؟ هل سأدمرها؟ هل سأدمرها أنا؟ لا، لن أدمرها. لأن القدرة على القيام بالشيء من شأنها أن تُذهِب الرغبة في الفعل. علاوة على ذلك، ماذا كنت سأفعل وحدي على الأرض؟ هل أجلس وأشاهد كيف يصدأ الدينامو في ورش العمل والهياكل العظمية التي ظلَّت على مر العصور فوق المراجل تنهار؟ صحيح أنه صفعني، لكن هل هذا يهمني؟ يا لها من قائمة! يا لها من مجموعة! القائد، إلسا، بارسوت، الرجل ذو رأس الخنزير، المُنَجِّم، الروفي، إرجويتا. يا لها من قائمة! من أين أتى كل هؤلاء الوحوش؟ أنا نفسي لست على قدر من التركيز، ولست أنا نفسي، ومع ذلك فأنا بحاجة إلى القيام بشيء ما لأعي وجودي، لتأكيدها. هذا هو، لتأكيد ذلك. لأنني مثل رجل ميت. لست موجوداً لا للقائد ولا لإلسا ولا لبارسوت. يمكنهم أن يلقوا بي في غياهب السجن إذا أرادوا، أو يصفعني بارسوت مرةً أخرى، وتذهب إلسا مع آخر تحت مرأى ومسمع مني، ويأخذها القائد بعيداً مرةً أخرى. بالنسبة للجميع أنا إنكار للحياة. أنا شيء مثل عدم الوجود. المرء ما هو إلا فعل، ثم بعد ذلك يختفي. أم أنه موجود على الرغم من عدم وجوده؟ يكون ولا يكون. يقبع هناك هؤلاء الرجال. بالتأكيد لديهم زوجة وأطفال ومنزل. ربما هم بائسون. ولكن إذا حاول شخصٌ ما اقتحام منزلهم، أو انتزاع فلسٍ واحدٍ منهم، أو المساس بزوجاتهم، فسوف يتحوّلون لوحوش كاسرة. ولماذا لم أتمرد؟ من يستطيع أن يجيب على هذا السؤال من أجلي؟ لا أستطيع بنفسي. أعلم أنني موجود على هذه الصورة، كإنكار. وعندما أقول لنفسي كل هذه الأشياء، فأنا لست حزيناً، لكن روحي تظل جامدة، ورأسي فارغ. ثم بعد ذلك الصمت والفراغ ينبت في قلبي فضول القتل. نفس الشيء. أنا لست مجنوناً، لأنني أعرف كيف أفكر، وأعقل الأمور. أشعر بالفضول حيال ذلك القتل، الفضول الذي يجب أن يشكِّل آخر أحزاني، حزن الفضول أو شيطان الفضول. انظر كيف أنا من خلال جريمة. هذا نفس الشيء. انظر كيف يتصرّف ضميري وحساسيتي في فعل جريمة.

ومع ذلك، فإن هذه الكلمات لا تعطيني الشعور بالجريمة مثلما لا تُشعرني برقية كارثة في الصين بالكارثة. يبدو الأمر كما لو أنني لست من يفكر في القتل، بل هو شخص آخر. آخَر

سيكون مثلي، هو رجلٌ ناعمٌ، ظلٌّ لرجل، على طريقة التصوير السينمائي. إنّ لديه حضوراً، ويتحرك، ويبدو أنه موجود، ويعاني، ومع ذلك فهو ليس أكثر من ظِلّ. يفتقر إلى الحياة. يقول الله إن لم يكن هذا مبرراً جيداً. حسناً، ماذا سيفعل الرجل الظل؟ كان الرجل الظل يدرك الحقيقة، لكنه لن يشعر بثِقَلِها، لأنه يفتقر إلى المساحة لاحتواء ذلك الوزن. إنه ظل. أنا أيضاً أرى الحدث، لكن لا أحتويه. يجب أن تكون هذه نظرية جديدة. ماذا سيقول قاضي الجريمة عندما تطرح أمامه؟ هل سيدرك كم أنا صريح؟ لكن هل يؤمن هؤلاء الناس بالصدق؟ خارجياً فقط، خارج حدود جسدي، توجد حركة، لكن بالنسبة لهم يجب أن تكون حياتي غير متصورة مثل العيش في نفس الوقت على الأرض وعلى القمر. أنا لا شيء للجميع. ومع ذلك، إذا ألقى غداً قنبلة، أو قتل بارسوت، فأنا أصبح الرجل الكامل، الرجل الموجود، الرجل الذي أَعدَّتْ له أجيال لا حصر لها من المحامين العقوبات والسجون والنظريات. أنا، الذي لا شيء، سوف أحرك فجأةً تلك الآلية الرهيبة من ضباط الشرطة والسكرتارية والصحفيين والمحامين والمدعين العامين وحراس السجن والهواتف المحمولة، ولن يرى أحد في داخلي رجلاً بائساً، سيُرى فقط الرجل عدو المجتمع، العدو الذي يجب عليه أن يُفصل عن المجتمع. هذا فضولي! ومع ذلك، فإن الجريمة وحدها هي التي تؤكِّد وجودي، لأن الشر وحده هو الذي يؤكد وجود الإنسان على الأرض. وسأكون أردوسين، المتوقع، الخجول، والمتميز بالشفرة، ومن بين الآلاف من أردوسين المجهولين الموجودين في العالم، سأكون أردوسين الآخر، الأصلي، الشخص الذي سيكون وسيظل. في الحقيقة، كل هذا مثير للفضول. ومع ذلك، على الرغم من كل شيء، هناك ظلمة والروح الحزينة الإنسان. حزينة بلا حدود. لكن الحياة لا يمكن أن تكون هكذا. لدي شعور داخلي بأن الحياة لا ينبغي أن تكون على هذا النحو. إذا اكتشفت خصوصية لماذا لا يمكن أن تكون الحياة على هذا النحو، فسوف تزعجني، ومثل بالون سأفرغ من كل هذه الرياح الكاذبة وسأتخلى عن مظهري الحالي لأصبح رجلاً جديداً تماماً، قوياً كواحد من الآلهة الأوائل الذين حفَّزوا الخلق. مع كل هذا ذهبت إلى خارج حدود المدينة. هل أرى المُنَجِّم أم لا؟ ماذا سيقول عندما يراني أصل مرةً أخرى؟ ربما ينتظرني. إنه مثلي، لغز في حدّ ذاته. هذه هي الحقيقة. يعرف إلى أين هو ذاهب بقدر ما أعرف. الجمعية السرية. يتلخص المجتمع كله

فيه بهذه الكلمات: المجتمع السري. شيطان آخر. يا لها من مجموعة! بارسوت وإرجويتا والرونيان وأنا... ولا يمكن جمع مثل هذه العينات صراحة. وفوق كل ذلك، العمياء الحامل. يا لها من وحش!

مرَّ مراقب المحطة على أردوسين للمرة الثانية. أدرك ريمو أنه كان يجذب انتباه الرجل، فقام، وذهب إلى منزل المُنَجِّم. لم يكن هناك قمر. تألقت الأقواس الفولتية بين الفروع الهوائية لمداخل الشوارع. ومن إحدى الشقق، كانت تنطلق أصوات البيانو، وبينما كان يمشي، صَغُرَ قلْبُه، متأثراً بالأسى الذي أحدثه مشهد السعادة الذي يتخيل وجوده خلف جدران تلك المنازل التي تُضفي عليها برودةً تلك الظلالُ، وأمام أحد أبواب المرأب تم إيقاف سيارة.

العرض

كان المُنَجِّم على وشك الذهاب إلى الفراش عندما سَمِعَ خطى على الطريق المؤدي إلى المنزل. بما أن الكلب لم ينبح، فتح المصراع موارباً. قطع متوازي الأضلاع من الضوء عبر الظلام إلى قبة الرمان، ومن خلال هذا الصندوق الأصفر رأى أردوسين يتقدَّم، والضوء يضرب وجهه بشكل مباشر.

يا له من فضول! يعتقد المُنَجِّم. ما زلت لم ألاحظ أن هذا الصبي يرتدي قبعة من القش! ماذا تريد؟ وبعد التأكد من وجود المسدس على خصره (كانت هذه الحركة غريزية فيه) فتح قفل الباب ومن ثم دخل أردوسين.

ـ اعتقدت أنك كنت نائماً.

ـ ادخل.

ذهب أردوسين إلى المكتب. كانت خريطة الولايات المتحدة ما تزال هناك مع تثبيت الأعلام السوداء على المناطق التي سيطرت عليها كوكلوكس كلان. كان المُنَجِّم يعمل على

الأبراج لأن صندوق البوصلة كان مفتوحاً على الطاولة. الريح التي دخلت من البوابة حركت الأوراق، وجلس أردوسين، بعد انتظاره لوضع بعض المستندات في الخزانة، وظهره إلى الحديقة.

هناك بالفعل، كان يحدِّق في الوجه العريض للآخر؛ الأنف الملتوي المتدلي من الجبهة المضطربة، الأذنين الممتلئتين، الصدر الضخم داخل الملابس السوداء الباهتة، سلسلته النحاسية التي تقسم الصدرية إلى جزءين، الخاتم الفولاذي ذي الحجر البنفسجي على يده ذات الأصابع المشوهة والجلد المدبوغ. الآن بعد أن أصبح الرجل بلا قبعة، يمكنك أن ترى أن شعره، كان مجعداً ومتشابكاً جداً وقصيراً. كان قد مدَّ رجليه وكان يحمل جسده كله على ذراعي الكرسي. في حذائه غير المصقول، بدا وكأنه رجل جبل، وربما حفّار ذهب. لماذا لا يكون المنقّبون عن الذهب في باتاغونيا هكذا؟ فكّر أردوسين، ودون أن يشرح سبب تشتته، حدَّقَ في خريطة الولايات المتحدة وكرَّر عقلياً الكلمات التي سَمِعَها من المُنَجِّم بعد ظهر ذلك اليوم، بينما كان يشير بالمؤشر إلى الروفيان على ولايات الولايات المتحدة الأمريكية.

ـ كو كلوكس كلان قوي في تكساس وأوهايو وإنديانابوليس وأوكلاهوما وأوريجون.

ـ وماذا تقول يا صديقي... كيف؟

ـ آه، هذا صحيح! لقد جئت لرؤيتك.

ـ كنت للتَّو ذاهباً إلى النوم. كنت أعمل على برج شخصٍ غبيٍّ.

ـ إذا كنت قد سببتُ لك إزعاجاً، سأرحل.

ـ لا، لا ترحل. هل خُدعت؟ ما الذي يحدث؟

ـ أشياء كثيرة. أخبرني، إذا استطعت، ألن تندهش من السؤال؟ لكي تبني مسكنك، أيْ لتحصل على العشرين ألف بيزو المطلوبة، كي تحصل على عشرين ألف بيزو عليك أن تقتل شخصاً، ماذا ستفعل؟

جلس المُنَجِّم على كرسيه، وجسده يتحرك بسبب الدهشة الناجمة عن السؤال بزاوية قائمة، وعلى الرغم من ارتفاع رأسه بفعل الأفكار التي أثارها أردوسين فيها، إلا أنها بدت وكأنها تُثقل كاهليه بشدَّة. يفرك يديه ويتفحص وجه ريمو.

ـ ما السبب وراء طرحك هذا السؤال؟

ـ لقد وجدت المرشح الذي لديه عشرون ألف بيزو. يمكننا اختطافه، وإذا رفض التوقيع على الشيك نعذّبه.

لاحت على ملامح المُنَجِّم علامات الاستياء، من الألغاز التي احتواها هذا الاقتراح. ازدادت حيرته، وبأصابع يده اليسرى بدأ في تدوير الحلقة الموجودة على الخاتم على اليمين. مرَّ الحجر البنفسجي في كل لحظة أمام السلسلة البرونزية، وعلى الرغم من أن وجهه ظلَّ منحنياً، تحت خط حاجبيه، كانت حدقتاه الأفقيتان تتفحّصان وجه أردوسين. وقد اتخذ الأنف المعوجّ في هذا الوضع قوة الدفاع مع الذقن المدفون في القماش الأسود لربطة العنق.

ـ لنرَ، اشرح لي كل ذلك، لأنني لا أفهم كلمة واحدة. الآن هو جالس، وبدا وجهه وكأنه يتحدَّى وابلاً من الضربات.

ـ أمرُ بسيطٌ ومذهلٌ. ذهبت زوجتي للعيش مع رجل آخر الليلة. إذاً هو...

ـ من يكون هو؟

ـ بارسوت، ابن عم زوجتي؛ جريجوريو بارسوت، جاء لرؤيتي واعترف بأنه هو الذي أبلغ عني مصنع السكر.

ـ آه! هل هو الذي أبلغ عنك؟

ـ نعم، وفوق كل ذلك...

ـ ولكن لأي سبب أبلغ عنك؟

ـ لا أدري! لإذلالي... ربما... على أيّ حال، هو نصف مجنون. الفرد الذي يعيش بشكل فردي، يمتلك عشرين ألف بيزو. الأب مات في مستشفى الأمراض العقلية. سينتهي به الأمر هناك أيضاً. عشرون ألف بيزو هي إرث العمة من الأب.

أمسك المُنَجِّم بجبهته. كان في حيرة من أمره أكثر من أي وقت مضى. كان مهتماً بالأمر لكنه لم يكن يفهم شيئاً. فأصرَّ:

ـ أخبرني كل شيء بالتفصيل وبطريقة منظمة.

أعاد أردوسين قصَّته. روى كل ما علمناه. كان يتحدَّث ببطء ودقة، لأن التوتر العصبي الذي سبق الاقتراح الذي قدَّمَهُ للمنجم قد اختفى عنه.

االآن،هو جالسٌ على حافة الكرسي، وظهره مقوَّس، ومرفقاه على ركبتيه، وخدّاه مبشوران بأصابعه، ونظرته مثبّتة على الرصيف. أعطاه الجلدُ الأصفر المتصل بالعظام المسطحة لوجهه مظهرَ شخص مستهلك. مجموعة من البذاءات خرجت من حلقه، بلا انقطاع، بطريقة صماء، وكأنه يتلو درساً يتَّسِم بالبرودة في داخل وعيه. المُنَجِّم، الذي غطَّى شفتيه بأصابعه، استمع إليه وهو ينظر إليه بغرابة. لقد تخيَّل أشياء كثيرة، أكثر ولكن ليست كثيرة جداً.

وببطءٍ ناتجٍ عن الاهتمام المفرط حتى لا يخطئ، جمع أردوسين بين الكرب والإذلال والذكريات والمعاناة، الليالي التي قضاها بلا نوم، ومشاجرات مروعة. قال من بين أمور أخرى: ـ سيبدو لك كذبةً أنني أنا الذي أتيت لأقترح قتل رجل، أتحدث عن البراءة، بلا شك كنت مراهقاً في العشرين من عمري. هل تعلم ما هو نوع الحزن الذي يجعلك تقضي الليل في مكتب مشروبات مثير للاشمئزاز، تضييع الوقت بين الأحاديث الغبية وتناول الجعَّة؟ هل تعلم كيف يكون الحال عندما تكون في بيت دعارة ثم إذ فجأةً ترغم نفسك على الامتناع عن البكاء اليائس؟ تنظر إليّ بذهول، بالطبع، ترى رجلاً غريباً، ربما، لكنك لم تدرك أن كل هذه الندرة مستمدة من الاستياء الذي كنت أحمله في داخلي. انظر، حتى أنه يبدو لي ضرباً من الكذب أن أتحدث بدقة عن كيف أفعل ذلك. من أنا؟ أين أذهب؟ لا أعلم. لدي انطباع بأنك متَّفِقٌ معي، ولهذا السبب جئتُ لأقترح قتل بارسوت. بالمال سنشتري المسكن وربما يمكننا إزالة ركائز هذا المجتمع.

قاطعه المُنَجِّم:

ـ لكن لماذا يحدث معك هذا دائماً هكذا؟

ـ هذا ما لا أعرفه. لماذا تريد إنشاء مسكن؟ لماذا يستمر الروفيان ميلانكوليك في استغلال النساء وتلميع أحذيته على الرغم من ثروته؟ لماذا تزوَّجَ إرجويتا من مومس وترك المليونيرة؟ هل تعتقد أنني تحمَّلْتُ صفعة بارسوت وحضور القائد، لمجرد ذلك؟ على ما يبدو أنني جبان، إرجويتا رجل مجنون، الروفيان بخيل، أنت مهووس.

من الواضح أننا كل هذا، لكن في الأعماق، في الداخل، في أعماق وعينا وأفكارنا، هناك حياةٌ أخرى أقوى وأضخم، وإذا تحملنا كل شيء، فذلك لأننا نعتقد أنه من خلال التحمل أو المُضيّ قدماً كما نفعل، فسنصل في النهاية إلى الحقيقة؛ أي إلى حقيقة أنفسنا.

وقف المُنَجِّم، وتقدم إلى أردوسين، ووضع يده على رأسه، وقال بتأمل:

«أنت على حق يا بني». نحن غامضون دون أن نعرف ذلك. الغامض هو الروفيان ميلانكوليك، والغامض هو إرجويتا، أنت وأنا وهي وهم... سوء القرن وعدم الدين قد دمّرا فهمنا، ومن ثم نبحث خارج أنفسنا عمّا يكمن في اللاوعي لدينا. نحن بحاجة إلى دين ينقذنا من تلك الكارثة التي حلَّت على رؤوسنا. ستقول إنني لا أخبرك بأيّ شيء جديد. حسناً؛ لكن تذكَّر أن الشيء الوحيد الذي يمكن تغييره على وجه الأرض هو الأسلوب والعرف والجوهر هو نفسه. لو كنتُ آمنت بالله لما قضيت تلك الحياة الشيطانية، ولو كنت آمنت بالله، ما كنتُ لأستمع إلى اقتراحك بقتل أحد الجيران. والأمر الأكثر فظاعة هو أن الوقت قد مضى بالنسبة لنا للوصول إلى الإيمان. إذا ذهبنا لرؤية كاهن، فلن يفهم مشاكلنا وسيكون محقّاً فقط في التوصية بأن نتلو «أبانا الذي...»، ونذهب إلى الاعتراف كل أسبوع.

ـ ويتساءل المرء ما الذي يجب عمله...

ـ يوجد هنالك. ما يجب إنجازه. في أوقات أخرى، بالنسبة لنا كان من الممكن أن يظل ملجأً لدير أو رحلة إلى أرض مجهولة ورائعة. اليوم يمكنك تناول شربات في الصباح في باتاغونيا وتناول الموز في فترة ما بعد الظهر في البرازيل. ما الذي يجب عمله؟ قرأت كثيراً، وصدقني، في جميع الكتب الأوربية أجد هذه الخلفية من المرارة والاستياء اللذين تخبرني بهما عن حياتك. انظر إلى الولايات المتحدة؛ يتم إدخال المبايض البلاتينية لفناني الأداء، ويحاول القتلة تحطيم الأرقام القياسية للجرائم المروعة. أنت من مشيت تعرف ذلك. منازل، المزيد من البيوت، وجوه مختلفة ونفس القلوب. فقدت البشرية أعيادها وأفراحها. حتى الرجال غير سعداء حتى أنهم قد أضاعوا الله! ومحرك بقوة 300 حصان لا ينجح في تشتيت انتباههم إلا عندما يقوده رجل مجنون يمكنه أن يمزق نفسه إلى أشلاء في هوّةٍ ما. الإنسان وحش حزين لا يستطيع تحريكه سوى المعجزات أو الجزارين. حسناً، نحن مع مجتمعنا سنعطيك معجزات وأوبئة من الغضب؛ الأساطير الآسيوية واكتشافات رواسب الذهب أو مناجم الماس. لقد لاحظته يتحدث معك. يتم تشجيعه فقط عندما يتدخل الرائع في حديثنا. وهذا يحدث لجميع الرجال، الأوغاد أو القديسين.

ـ إذاً نختطف (بارسوت)؟

ـ نعم. الآن علينا أن نرى كيف يمكننا الحصول عليه وعلى المال.

حركت الرياح أوراق الشجر. وقف أردوسين لبضع ثوان ينظر إلى شريط الضوء الذي سقط على ثمرة الرمان عبر النافذة المظلمة. كان المُنَجِّم قد نقل كرسيه إلى الخزانة بحيث كان رأسه مستريحاً على السبورة، ولعبت أصابعه بالحلقة الفولاذية مرةً أخرى، وأدارها أمام عينيه.

ـ كيف نخطفه؟ الأمر سهل جداً. سأخبر بارسوت أنني اكتشفت مكان القائد وإلسا.

ـ نعم، هذا جيد. لكن كيف عرفت؟ هذا ما لن يتوقَّف الآخر عن السؤال عنه.

ـ سأخبره أنني قد اتصلتُ بمديرية أفراد وزارة الحرب.

ـ ممتاز! جيد جداً! واضح جداً! الآن قام المُنَجِّم بخفة وكان ينظر إلى أردوسين باهتمام.

ـ وبحجة أنني أقنع إلسا بالعودة إلى جانبي، فإننا نأتي به.

ـ مثير للإعجاب! اسمحوا لي أن أفكر قليلاً. كل ما تصبو إليه، بالطبع، جيد جداً. آه! قل لي شيئاً، هل له أقارب؟

ـ عدا امرأتي، فلا.

ـ وأين يقطن؟

ـ في فندق ابنة المالك متصالبة.

ـ ماذا سيقولون عندما يختفي بارسوت؟

ـ يمكننا أن نفعل أمراً مثيراً للإعجاب. نرسل إلى صاحبة المنزل برقية من روزاريو، تحمل توقيعه، يسألها أن ترسل الأمتعة إلى فندق معين، حيث ستكون أنت قاطناً تحت اسم جريجوريو بارسوت.

ـ نفس هذا. هل تعلم أنك درست الفكرة جيداً؟ إن الخطة مثالية. صحيح أن كل شيء يفسح المجال لتنفيذ الفكرة، القائد، توجيهات الوزارة، ليس له أقارب، حياته في نُزُل. إنها أوضح من حركة الشطرنج. رائع!

قائلاً ذلك، بدأ يتنقل من جانب إلى آخر في الغرفة. في كل مرة كنت أمشي فيها أمام شبكة النافذة، كانت الحديقة مظلمة أو هناك ظل يسقط على الخزانة، يصل إلى السقف. كان أردوسين محقاً عندما قال إن الخطة كانت واضحة «كما لو كانت قد تم ختمها على صفيحة حديدية عند ضغط آلاف الأرطال». وبينما كان حذاء المُنَجِّم في الغرفة يصدر رنيناً مع كل خطوة، كان أردوسين يشعر بالأسف بالفعل حيال بساطة «الخطة» وأنها ليست خيالية. كان يريد مغامرةً أكثر خطورةً وأقل دراسةً.

ـ يا لك من شيطان! هذا ليس مضحكاً! لذلك يمكن لأي شخص أن يكون قاتلاً!

ـ وغريغوريو ليست له علاقات مع المرأة الحولاء؟

ـ لا.

ولماذا أخبرتني عنها إذاً؟

ـ أنا لا أعرف.

ـ وهل أنت لست خائفاً من الندم بعد حدوث «ذلك»؟

ـ انظر، أعتقد أن هذا يحدث فقط في الروايات. في الواقع لقد قمت بأعمال سيئة وجيدة، ولم أشعر في إحدى الحالات ولا في الأخرى.

بالفرح ولا بالندم. أعتقد أن الخوف من العقاب يسمّى تأنيب الضمير. هنا لا يُشنق أحد، ولا يُشنق إلا الجبناء.

ـ وحضرتك؟

ـ اسمح لي. أنا لست جباناً. أنا برود مختلف. أنت السبب. إذا كنت قد سمحت لنفسي بأن تجرّني المرأة بعيداً، وأن يصفعني شخص قد خانني، هل هناك من سبب آخر كي أحضر مشهد وفاته دون اهتراء، ما دام الوضع ليس مجزرة؟

ـ هذا أكيد. إنه منطقي جداً. كل شيء عنك منطقي. هل تعلم يا أردوسين أنك شخص مثير للاهتمام؟

نفس الشيء كانت تقوله زوجتي. ولم يمنعها من الذهاب مع شخص آخر.

ـ وأنت تكرهه؟

ـ أحياناً. هذا يتوقف على بعض الأشياء. ربما أشعر بالاشمئزاز الجسدي في داخلي أقوى من الكراهية. في الحقيقة، أنا لا أكره، لأننا لا نستطيع أبداً أن نكره الناس الذين نعرف أنهم قادرون على فعل نفس الأشياء السيئة التي نقوم بها بالضبط.

ـ ولماذا تريد قتله إذاً؟

ـ ولماذا تريد أنت أن تؤسس الشركة؟

ـ وهل تعتقد أن هذه الجريمة سيكون لها أي تأثير على حياتك؟

ـ هذا هو الفضول الذي أحمله. كي أعرف ما إذا كانت حياتي وطريقتي في رؤية الأشياء وحساسيتي ستتغير مع مشهد وفاته. إلى جانب ذلك، أنا بالفعل بحاجة لقتل شخص ما. حتى أقوم بتشتيت انتباهي، كما تعلم.

ـ هل تريد مني أن أقوم بالجزء السيئ من أجلك؟

ـ بالطبع! لأنك في هذه الظروف، فإن تنفيذك للجزء السيئ يساوي امتلاك عشرين ألف بيزو لإقامة المجتمع وبيوت الدعارة.

ـ وكيف طرأ على تفكيرك أنني قادرٌ على فعل هذا؟

ـ كيف؟ لقد لاحظته منذ فترة طويلة. لكن قناعتي بأنك كنت رجلاً يمكن أن يشرع في مغامرة خطيرة خطرت ببالي قبل عام عندما التقيت بك في الجمعية الثيوصوفية.

ـ لنرَ؟

ـ أتذكر كما لو كان الأمر قد حدث تواً. كانت امرأة الفحم على يسارك تتناقش حول الروحانية مع صانع الأحذية. ألم تلحظ أن كثيراً من صانعي الأحذية غالباً ما يميلون إلى السحر والتنجيم؟

ـ و...؟

ـ في هذا الظرف، اقتربت أنت من رجل بولندي نبيل حافظ على علاقاته بروح سوبيتسكي.

ـ لا أتذكر.

ـ أما أنا، فنعم. أخبرتني لاحقاً أن الرجل البولندي المحترم كان عامل بناء... انتقلت أنت والرجل البولندي المحترم من سوبيزكي لمناقشة «إحساس الاتجاه من الحمام» وأجبت أنت: «بالنسبة لي، الأهمية الوحيدة التي لها معنى نحو الاتجاه من الحمام هو العمل كوسطاء في قضية ابتزاز»، وحينئذٍ بدأت تشرح... حسناً، عندما انتهيت أنت من الكلام، وسط دهشة الرجل البولندي، وامرأة الفحم وصانع الأحذية، قلت لنفسي: هذا الرجل تتوفر لديه الجرأة...

ـ ها ها! يا لك من فتى!

ـ ممتاز.

ـ يجب أن تأخذ هذا بعين الاعتبار: إنها عملية مقسَّمة إلى ثلاث مراحل فرعية يجب أن تنفَّذ بانسجام، على الرغم من أنها مراحل مستقلة بذاتها. انظر: المرحلة الأولى هي الاختطاف. الثانية، إقامتك في روزاريو، حيث ستطلب وتتسلم الأمتعة باسم بارسوت. والثالث القتل وعملية إخفاء الجثة.

ـ هل سندمر الجثة؟

ـ بالطبع. في حامض النيتريك أو إذا لم يكن ففي فرن حيث، إذا تم الاستقرار على الفرن، فيجب أن تكون درجة حرارة الفرن خمسمئة درجة على الأقل لتتفحم العظام أيضاً.

ـ ومن أين لك بهذه المعلومات؟

ـ أنت تعلم أنني مخترع. آه، من العشرين ألف بيزو يمكننا تخصيص جزء لتصنيع الوردة النحاسية على نطاق واسع. لقد قمت بالفعل بتكليف عائلة صديقة للقيام بذلك. ربما يقدمها أحد الأولاد إلى المجتمع. أيضاً، في الأيام الماضية، توصلت إلى تغيير في كهرومغناطيسية محرك البخار ستيفنسون. حسناً، ما توصلت إليه هو أبسط مئة مرة. هل تعرف ما الذي أحتاجه؟ أن أخرج لبعض الوقت، أقطن الجبال، وأستريح وأدرس.

ـ ويمكنك الذهاب إلى المستعمرة التي سننظمها.

ـ إذاً، أنت موافق على الخطة؟

ـ آه! شئ واحد. من أين حصل بارسوت على المال؟

ـ قبل ثلاث سنوات باع عقاراً قد ورثه.

ـ ويبقيه في بنك كحساب ادخار؟

ـ لا، في الحساب الجاري.

ـ إذاً هو لا يعيش على الفائدة؟

ـ لا، إنه ينفق منه شيئاً فشيئاً. ينفق كحد أقصى مئتي بيزو في الشهر. يقول إنه قبل أن ينتهي من هذا المبلغ سيكون قد مات.

ـ هذا شيء يدعو الى الفضول. وما هو نوعه؟

ـ قوي، قاسٍ، يجب دراسة عملية الاختطاف جيداً، لأنه سيدافع عن نفسه مثل الوحش.

ـ جيد جداً.

ـ آه، قبل أن أذهب! هل ستقول شيئاً من هذا للروفيان؟

ـ لا، هذا سر بيننا. سوف يشارك الروفيان كمنظم لبيوت الدعارة، لا شيء أكثر من ذلك. ستقوم بالدفع غداً في مصنع السكر، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ الآن أتذكر، أنا أعرف ناشراً، هو الذي سيتولى أمر منشور وزارة الحرب.

خطا أردوسين خارج الغرفة للحظة.

ـ عملية الخطف بسيطة. تذهب إلى روزاريو وترسل البرقية. ما يحدث هو أنه عندما يواجه المرء ارتكاب جريمة...

ـ لن تكون الوحيدة التي نرتكبها...

ـ كيف؟

ـ وبالطبع، الشيء الآخر الذي يقلقني هو الحفاظ على السرية في المجتمع. لقد فكرت فيما يلي. في كل نقطة من مراحل الولاية ستكون هناك خليَّة ثورية. وسيكون مقر اللجنة المركزية في العاصمة. ثم يتمّ تنظيم هذه اللجنة على النحو التالي: رئيس عاصمة المحافظة، وعضو اللجنة المركزية، ورئيس المديرية بالمحافظة، وعضو لجنة عاصمة المحافظة، ورئيس القرية الرئيسية، وعضو لجنة المديرية الرئيسية.

ـ ألا يبدو الأمر على قدر عالٍ من التعقيد بالنسبة لك؟

ـ لا أعلم، ستتم دراسته. التفاصيل التنظيمية الأخرى التي لاحت لي هي: سيكون لكل خلية جهاز إرسال واستقبال للبث اللاسلكي، ومن الإلزامي أيضاً أن يحصل كل عشرة مساعدين على سيارة، وعشر بنادق، ورشاشين، ويجب أن يدفع مئة عضو بدورهم مبلغاً ثمن الطائرات الحربية والقنابل وما إلى ذلك، إلخ. ستكون الترقيات بأمر من المجلس الأعلى، وستكون انتخابات الفئات الأدنى محكومةً بأصوات مؤهلة.

لكن حان وقت النوم. بعد قليل لديك قطار.

أم تريد المبيت هنا؟

في الواقع، لم يكن لدى أردوسين ما يفعله. كانت الساعة قد دقت بالفعل الثالثة صباحاً ومرت الكلمات التي قالها المُنَجِّم على عقله، شبه ضبابية. لم يكن مهتماً بأي شيء. كان يريد المغادرة، الذهاب بعيداً.

مد يده مصافحاً. ودعه المُنَجِّم في جاريناتا، وأردوسين ـ مرهقاً ـ عَبَر الحي. عندما أدار رأسه في الظلام، كانت النافذة المضاءة قد صنعت مستطيلاً أصفر معلقاً في وسط الظلام.

على قمة الشجرة

وقت الفجر. يتقدم أردوسين على طول الطريق الذي يحيط بالرصيف المكسور بجانب الحي. نسيم الصباح يخترق حتى يصل إلى أبعد خلية في رئتيه المتعبتين. وإن كان في الأعلى ما زال الفضاء مظلماً، وكل هذا الظلام يهبط ليقرب الأشياء إلى الأعين، لأن المسافات غير مرئية في الأفق. من خلال قناة الأزقة، تتحول بعض الشرائط الرمادية والخضراء اللون إلى اللون الأحمر ببطء.

يتطور تفكير أردوسين:

ـ هذا مقفر كالصحراء. الآن هي تنام معه.

سرعان ما يملأ الوضوح المائي للفجر الأزقة بأبخرة بيضاء.

يقول أردوسين لنفسه:

ـ ومع ذلك، عليك أن تكون قوياً. أتذكر عندما كنت طفلاً. كنت أعتقد أنني رأيت رجالاً يسيرون على قمم الغيوم، ضخام الجثث ذوي شعر مجعد وأطرافهم منتصبة يغلفها الضوء. كانوا في الواقع يسيرون داخل بلدة الفرح التي بداخلي. أوه، وفقدان الحلم يكاد يعادل خسارة ثروة. ماذا أقول؟ بل هو أسوأ. عليك أن تكون قوياً، هذه هي الحقيقة الوحيدة. ولا ترحم. وحتى لو شعر المرء بالتعب فليخبر نفسه: أنا متعب الآن، أنا نادم الآن، لكني لن أكون كذلك غداً. هذه هي الحقيقة، غداً.

يغلق أردوسين عينيه. عطر لا يُعرف إن كان مسك الروم أو قرنفلاً، يتسبب في خلق جوٍّ لحفل تحنيط غامض.

ويفكر أردوسين:

ـ على الرغم من كل شيء، لا بد من خلق بهجة في الحياة. لا يمكن العيش على هذا النحو. لا يوجد حق. وفوق كل بؤسنا، من الضروري أن تطفو سعادة ما، ما أنا على علم به، شيء

أجمل من الوجه القبيح للإنسان، من الحقيقة البشرية الرهيبة. إن المُنَجِّم على حق. يجب افتتاح إمبراطورية الكذب، إمبراطورية الأكاذيب الرائعة. عِشْقُ شخصٍ ما؟ شَقُّ طريقٍ عبر تلك الغابة من الغباء؟ ولكن كيف؟

يواصل أردوسين مناجاته لعظام الخدّ الوردية:

ـ ما الذي يهم إذا كنت قاتلاً أو منحطّاً؟ هل هذا مهم؟ لا إنه أمر ثانوي. هناك شيء أجمل من كل قذارة الناس جميعاً، ألا وهو السعادة. إذا كنت سعيداً، ستعفيني السعادة من جريمتي. الفرح هو الأساس. وأيضاً محبة شخصٍ ما.

السماء تخضر من بعيد، في حين أن الظلام الخافت لا يزال يلف جذوع الأشجار. عَبوسٌ أردوسين، تنبعث أبخرة الذكريات من روحه، والضباب الذهبي، والقضبان المتلألئة التي ضاعت في وقت ظهيرة الشمس المقببة. ووجه المخلوق، الشاحب، ذو العيون الخضراء والشعيرات السوداء، يهرب تحت قبعة صغيرة من القماش، ويرتفع من سطح روحه.

منذ سنتين، لا، بل ثلاث، نعم، ثلاث سنوات.. ماذا كانت تُدعى؟ ماريا، ماريا إستر. ماذا كانت تُدعى؟ الوجه الصغير الحسن يحتل الآن مع درجة حرارته مساحة حالمة مظلمة. يتذكر أشياء كثيرة! كان يجلس بجانبها، والريح تهب على الشعر الأسود المجعد، إذ فجأةً مدَّ يده وأخذ بين أطراف أصابعه ذقن المخلوق الناري. أين هي الآن؟ تحت أي سقفٍ تنام؟ إذا وجدتها، هل سأتعرف عليها؟ منذ ثلاثة أعوام. قابلها في قطار وتحدث معها لمدة خمسة عشر يوماً ثم بعد ذلك اختفت. هذا كل شيء، لا أكثر ولا أقل. ولم تكن تعلم أنه متزوج. ماذا كان سيقول لو كان يعلم؟ نعم، الآن تذَكَّر. كانت تُدعى ماريا. لكن هل هذا مهم الآن؟ لا. كان هناك شيء أجمل من ذلك كله، الدفء الحسن الذي تساقط من عينيها إلى لحظات خضراء ولحظات بنية. وصمتها. يتذكر أردوسين رحلات القطارات. إنه يجلس بجانب المخلوقة التي تركت رأسها لترتاح على كتفه، بينما يجعد هو شعرها بأصابع متشابكة والمخلوقة البالغة من العمر خمسة عشر عاماً ترتجف في صمت. إذا علمت الآن أنه يخطط لقتل رجل، فماذا ستقول؟ ربما لنتفهم معنى الكلمة. ويتذكر أردوسين الخجل الذي انتاب التلميذة

عندما رفعت ذراعها ووضعت يدها على خديه الخشنين واللحية. ولعل تلك السعادة التي فقدها هي ما يلزم لمحو الكثير من بقايا القبح من وجه الإنسان.

يفحص أردوسين نفسه الآن بفضول. لماذا يفكر الآن في أشياء كثيرة؟ بأي حق؟ منذ متى يفكر المرشحون للقتل؟ ومع ذلك، هناك شيء فيه يحمد الكون. هل هو التواضع أم الحب؟ إنه لا يعرف، لكنه يدرك وجود حلاوة في حالات عدم الترابط، ويخطر بباله أن الروح المسكينة، التي تصاب بالجنون، تغادر تاركة معاناة هذه الأرض بامتنان. وخلف هذه الشفقة، توجد قوة لا هوادة فيها، تكاد تكون ساخرة، والتي تعاقبه بعباءة من الازدراء.

الآلهة موجودة. هم يعيشون مختبئون تحت غلاف من رجال معينين يتذكّرون الحياة على هذا الكوكب عندما كانت الأرض لا تزال طفلة. كما أنه ينطوي على إله. هل من المحتمل؟ يتحسس أنفه، الذي يؤلمه بسبب الضربات التي تلقاها من بارسوت، وتدل تلك القوة العنيفة على هذا الناتج: إنه يحوي إلهاً مخفياً تحت جلده المتألم. لكن هل نص قانون العقوبات على أي عقوبة يمكن أن تُطبق على إله قاتل؟ ماذا سيقول قاضي التحقيق إذا أجابه: «أنا أخطئ لأن لدي إلهاً في داخلي؟».

لكن أليس حقيقة؟ ذلك الحب، تلك القوة التي يقودها في الفجر، تحت رطوبة الأشجار التي تسقط منها حبات الندى في الظلام، أليس هذا فضيلة من الآلهة؟ ومرةً أخرى من سقف روحه تبرز ملامح تلك الذكرى: وجه بيضاوي شاحب له عينان خضراوان وشعر أسود ينسدل أحياناً حتى الحلق بفعل الريح. ما مدى بساطة هذا! لا داعي لقول أي شيء، لذا فإن نشوة الاختطاف مثالية. على الرغم من أنه لا يوجد شيء بعيد المنال، إلا أنه كان سيصاب بالجنون عند تفكيره في فتاة الدراسة تحت الأشجار التي تقطر ندى. إذا لم يكن كذلك، كيف يمكن أن يتم تفسير اختلاف روحه الآن تماماً عن تلك التي شيطنته ليلاً؟ أم أنه بالليل لا تَرِد إلا الأفكار المظلمة؟ حتى لو كان الأمر كذلك، فلا يهم. هو أمر آخر الآن. تبسم بجانب الأشجار. أليس هذا غبياً بشكل رائع؟ الروفيان ميلانكوليك، العمياء الفاسقة، أرغويتا وأسطورة المسيح، المُنَجِّم، كل هذه الأشباح غير المفهومة، الذين يتفوهون بكلمات بشرية،

الذين يطلق عليهم مفردات ذات لحم وعظم، من هم الذين بجانبه بينما هو متكئ على عمود، بجانب سور من الريم، يشعر بالتقدم في الحياة حتى أنها وصلت إلى ملامسة صدره؟

هو رجل آخر، ولمجرد التفكير في المخلوقة التي في عربة القطار واضعةً رأسها على كتفه. يغلق أردوسين عينيه. رائحة الأرض النفاذة تصيب جسده بقشعريرة فيصّاعد دوارٌ من لحمه المُتعَب.

يسير رجل آخر في الطريق. صوت صافرة خشنة يأتي من المحطة. يعبر عن بعد رجال آخرون يعتمرون طاقيات رأس أو قبّعات ملتوية.

في الواقع، ما الذي يفعله هناك بحق الجحيم؟ يغمز أردوسين جفناً، فهو يدرك أنه يخدع الله، وأنه يمثل دوراً كوميدياً لرجل لم يستطع صرف لعنة الله عنه. ومع ذلك، تمر لحظات من الظلام أمام عينيه، ويخيّم على حواسه نوعٌ من النشوة القاتمة. أودُّ انتهاك شيءٍ ما. انتهاك الفطرة السليمة. إذا كانت هناك كومةٌ، فإنه يحرقها... شيء مثير للاشمئزاز ينتفخ وجهه: إنها التعبيرات القاتمة للجنون؛ فجأةً نظر إلى شجرة، قفز، مدَّ يدَهُ نحو غصنٍ ما، تمسك به، وتمسك بالجذع بقدميه، ورفع نفسه بمرفقيه، تمكن من الصعود إلى شوكة شجرة الأكاسيا.

ينزلق حذاؤه على اللحاء اللامع، وتضرب أوراق الأشجار على وجهه بشكل مرن، ويمد يده ملتقطاً غصناً، ورأسه ينقبض من خلال الأوراق المبتلة. ينحدر الشارع بالأسفل إلى أرخبيل من الأشجار.

إنه على قمة الشجرة. لقد انتهك الفطرة السليمة، لأنه نعم، وبلا هدف، مثل شخص يقتل أحد المارّة الذي عبر من أمامه، لمعرفة ما إذا كان بإمكان الشرطة اكتشافه لاحقاً. نحو الشرق، على كل ما هو أخضر في الأفق، تقطع ذلك اللون مداخن جنائزية؛ بعد ذلك، تملأ التلال الخضراء مثل قطعان الأفيال المتوحشة الأراضي المنخفضة في بانفيلد، وينتابه

نفس الحزن. لا يكفي انتهاك الفطرة السليمة لكي تشعر بالسعادة. ومع ذلك، فهو يحاول جاهداً ويقول بصوت مرتفع: ـ مهلاً! أيتها الوحوش النائمة: مرحباً، أقسم بذلك... لكن لا... أريد انتهاك قانون الفطرة السليمة، أيتها الحيوانات الصغيرة الهادئة... لا. ما أريده هو إعلان الجرأة، الحياة الجديدة. أتكلم من فوق الشجرة، لست على «نخلة»، بل أعلى شجرة سنط: مهلاً أيتها الوحوش النائمة!

تخور قواه بسرعة. نظر حوله، متفاجئاً تقريباً ليجد نفسه في مثل هذا الموقف، فجأةً ينفجر وجه المخلوقة البعيدة داخله مثل الزهرة، ويشعر بالخجل بشدة من الكوميديا التي يمثلها، ينزل من فوق الشجرة. مهزوماً. إنه لقيط.

(1) نبيذ معطر بنباتات مرة كالأفسنتين وقشر البرتقال.

(2) شركة براوننج للأسلحة هي شركة تسويق أمريكية للأسلحة النارية ومعدّات الصيد.

(3) الكلوروفورم أو ثلاثي كلورو ميثان مركب عضوي صيغته الكيميائية $CH\ Cl_3$. وهو سائل عديم اللون، سهل التطاير. للكلوروفورم تأثير تخديري، كما أنه مذيبٌ جيدٌ لمختلف المواد الكيميائية خاصة الزيوت، غير قابل للاشتعال، وله رائحة خفيفة مميزة له.

الفصل الثاني

التباينات

قضى أردوسين الأيام التي تلت اختطاف بارسوت في غرفة معاشات تقاعدية، انتقل إليها مؤقتاً بعد سداد ديونه لشركة السكر المحدودة. لقد أصبح يهاب الشارع. لم يفكر قط في اختطاف بارسوت المخطط له، بل إنه توقف عن زيارة المُنَجِّم. أمضى أيامه في الفراش، مسنداً قبضتيه على الوسادة، وجبهته تضغط عليهما. وفي أوقات أخرى، كان يقضي ساعات وعيناه مثبتتان على الحائط، الذي يبدو أنه من خلاله يتسلق ضباباً رقيقاً من النوم واليأس.

خلال تلك الفترة لم يكن قادراً على إعادة بناء وجه إلسا.

لقد انسحب وجهها بشكل غامض من روحي لدرجة أن الأمر يحتاج مني مجهوداً كبيراً لتذكر ملامح وجهها.

ثم ينام أو يتأمل. حاول، وإن كان عبثاً، أن يهتمَّ بشأن مشروعين اعتبرهما مهمين: التغيير الكهرومغناطيسي للمحركات البخارية، ومشروع منظف جاف للكلاب، والذي من شأنه إطلاق كلاب الفراء المصبوغة باللون الأزرق الكهربائي، والبلدوج الأخضر، واللليبريس الأرجواني، وفوكس تيريار الليلك، كلب الحضن عليه صورٌ للشفق ذات ثلاثة ألوان على ظهرها، وكلاب صغيرة عليها أرابيسك مثل المفروشات الفارسية. ذات يوم كان هادئاً؛ فنام، ثم رأى هذا الحلم:

كنت أعرف أنه كان عشيق إحدى الفتيات الرضع. هذا الحدث، المصحوب بحقيقة أنه كان خادماً لجلالة الملك، ألفونسو الثالث عشر، قابله محيياً على الفور، حيث كان محاطاً بالجنرالات الذين أخذوا في طرح أسئلة متعمدة. مرآة من الماء كانت تعض جذوع

الأشجار، التي تتفتح دائماً باللون الأبيض، بينما قالت له الطفلة طويلة القامة، التي تمسكه من ذراعها، بلدغة:

«هل تحبني يا أردوسين؟».

رد أردوسين، ضاحكاً، بوقاحة على الرضيعة: أومضت دائرة من السيوف أمام عينيه وشعر أنه يغرق، ومزقت الكوارث المتتالية القارات، لكنه نام في كوارتز من الرصاص لعدة قرون. في قاع البحر... خلف النافذة الصغيرة المزججة جاءت وذهبت أسماك القرش ذات العين الواحدة، غاضبة لأنها عانت من البواسير، وابتسم أردوسين بصمت، وهو يضحك على الرجل الذي لا يريد أن يُسمع. الآن كانت كل الأسماك في البحر عوراء، وكان هو إمبراطور مدينة السمكة أحادية العينين. سور أبدي كان يفصل البحر عن الصحراء، كانت السماء الخضراء تصدأ في طوب الجدار، وعلى جدران الأبراج الحمراء، اصطدمت الأمواج بعدد لا يحصى من الأسماك الدهنية ذوات العين الواحدة، وأسماك متوحشة مريضة بمرض جذام البحر، بينما هدد رجل أسود مصاب بالاستسقاء صنم ملح بقبضته.

في أوقات أخرى، تذكر أردوسين الأوقات السالفة والتي توقع فيها الأحداث الجارية حالياً، كما أخبر القائد في تلك الليلة. معاناة صماء، تدور حول واقع جعله يقول الآن:

ـ كنت على حق، لم أكن مخطئاً.

وهكذا، تذكر أنه في إحدى الليالي أثناء حديثه مع إلسا، اعترفت له، في لحظة صدق، أنها إذا ما كانت عزباء، لم تكن لتتزوج ولكن كان من المحتمل أن يكون لها عشيق.

سألها أردوسين:

ـ أنت حقاً تقولين ذلك؟

أجابت إلسا من السرير الآخر، بعناد:

ـ نعم يا رجل سيكون لي عشيق... ما فائدة الزواج؟

ظاهرة غريبة: فجأة شعر أردوسين بصمت الموت، صمت مماثل لنعش فوق جسده الممدد أفقياً. ربما في تلك اللحظة، تم تدمير كل الحب الذي يكنه الرجل لامرأة بدون وعي، ومن ثم سيسمح له بمواجهة المواقف الرهيبة التي لم تكن لتطاق إذا ما حدثت قبل ظهور تلك الظاهرة. بدا له الآن أنه كان في قاع قبر، واعتقد أنه لن يرى النور أبداً، وفي ذلك الصمت الخفيف والأسود الذي ملأ الغرفة، تحركت الأشباح التي أيقظها صوت زوجته.

في وقت لاحق، شارحاً تلك اللحظات، تذكر أنه ظل ساكناً، في السرير، خائفاً من كسر توازن ذلك الشعور الهائل بالبؤس الذي ألمَّ به، الذي كان ثابتاً. والذي ثبَّتَ جسده الأفقي بالتأكيد على سطح ألم لا هوادة فيه.

كان قلبه ينبض بشدة. وبدا له أن كل انقباض يجب أن يتغلب على ضغط كتلة مطاطية من الحمأ. ولا جدوى من محاولته من هناك تحريك يديه للوصول إلى الشمس التي في الأعلى. وكان صوت زوجته لا يزال يتردد في أذنيه: «ما كنت لأتزوج». سأتخذ لنفسي عشيقاً.

وهذه الكلمات، التي لم تتطلب سوى ثانيتين للتحدث بها، سيتردد الآن صداها بداخله مدى الحياة. أغلق عينيه. ستظل الكلمات تتردد بداخله مدى الحياة، مغروسة في أحشائه مثل لحم ينمو. وبدأت أسنانه في الصرير. لقد أراد أن يعاني أكثر، وأن يفنى الألم، وأن ينزف في اندفاع بطيء من الألم. وبيديه المضغوطتين على فخذيه، المتيبّستين كرجل ميت في نعشه، دون أن يدير رأسه، محتفظاً بتنظيم أنفاسه، سأل بصوت صفير:

ـ وهل كنت ستحبينه؟

ـ من أجل ماذا؟ من يدري! نعم؛ إذا كان جيداً، فلماذا لا؟

ـ وأين كنت ستواعدينه؟ لأنه في منزلك لن يتحملوا ذلك.

ـ في أحد الفنادق.

ـ آه!

صمتا، لكن أردوسين رآها بالفعل سبباً في بؤس حياته الشديد، تتقدَّم على طول رصيف شارع مرصوف برقائق النهر. كانت تتقدَّم على الرصيف الواسع. غطّى تول داكن نصف وجهها، متجهة نحو المكان الذي قادتها إليه الرغبة المتعمدة، تقدمت بخطوات مسرعة وآمنة. وتابع أردوسين بابتسامة كاذبة لم تستطع إلسا تمييزها في الظلام حرصاً منه على التمسُّك بقليل من الأمل المتبقّي، مصطنعاً صوتاً رقيقاً حتى لا تلحظ إلسا الغضب الذي يتسبب في ارتجاف شفتيه:

ـ هل ترين؟ هذا لطيف، في الزواج، يكون الشخص قادراً على التحدث عن كل شيء بثقة الإخوة. وأخبريني، هل كنت تتعرَّين أمامه؟

ـ لا تقل أشياء غبية!

ـ لا؛ قولي لي: هل كنت ستنزعين ملابسك؟

ـ بالطبع! لن أظل مرتدية ملابسي!

إذا قاموا بشق العمود الفقري بفأس، فلن يكون أكثر صعوبة. كان حلقه جافاً كما لو كانت ريح من النار تهب من خلاله. كان قلبه بالكاد ينبض. شعر على عقله بضباب يفر من عينيه. سقط في الصمت والظلام، غارقاً في العدم بفعل ميناء نازل، بينما خمد الشلل الشديد في جسده المكعب، حتى تعمق الإحساس بالحزن. كان صامتاً، ومع ذلك كان يريد أن يبكي، سقط وود لو يركع أمام شخص ما، ويستيقظ في تلك اللحظة، ويرتدي ملابسه وينام في ردهة منزلٍ ما، على عتبة مدينة مجهولة.

صاح أردوسين مجنوناً:

ـ لكن هل تدركين، هل تدركين مدى فظاعة هذا، ما مدى البشاعة التي أخبرتِني بها؟ كان من المفترض أن أقتلك! أنت عاهرة! كان من المفترض أن أقتلك، نعم أقتلك! أتفهمين؟

ـ ولكن ما الذي أصابك! هل أنت مجنون؟

ـ لقد تخليت عن حياتي. الآن أنا أعلم لماذا لم تسلمي نفسك لي، وقد جعلتني أستمني! نعم لذلك! لقد جعلتِ مني خرقة رجل. كان عليَّ قتْلك.

أول من يأتي يمكنه أن يبصق في وجهي. هل تدركين؟ وبينما أنا أسرق وأحتال، وأعاني من أجلك، أنت... نعم، أنت تفكرين في ذلك. أرأيت أين أوديت برجل طيب! لكن هل تدركين؟ رجل طيب! وهكذا، رجل طيب!

ـ ولكن هل أنت مجنون؟

ارتدى أردوسين ملابسه بسرعة.

ـ إلى أين تذهب؟

لبس معطفه. ثم انحنى على سرير المرأة، صارخاً:

هل تعلمين إلى أين أنا ذاهب؟ إلى بيت دعارة، ليتجدد لي مرض الزهري.

السذاجة والغباء

مؤرخ هذه القصة لا يجرؤ على إيجاد تعريف لأردوسين، فقد مرَّ بالعديد من المصائب كانت في حياته، لدرجة أن الكوارث التي تسبب فيها فيما بعد بصحبة المُنَجِّم يمكن تفسيرها من خلال الاضطرابات النفسية التي عانى منها أثناء زواجه.

حتى اليوم، عندما أعيد قراءة اعترافات أردوسين، يبدو لي أنه من غير المعقول أن أمرّ بمثل هذه التطورات المشؤومة من الوقاحة والألم.

انا أتذكر. خلال تلك الأيام الثلاثة عندما كان لاجئاً في منزلي، اعترف بكل شيء.

كنا نلتقي في غرفة كبيرة فارغة من الأثاث، حيث كان ينبعث منها من الضوء القليل.

جلس أردوسين على حافة كرسي، وظهره مقوس، ومرفقاه على رجليه، بينما وجنتاه مبشورتان بأصابعه، ونظرته مثبتة على الرصيف.

تحدث بهدوء، دون انقطاع، كما لو كان يقرأ درساً مُسجَّلاً للبرد بفعل أجواء ضغط لا نهائية، في مستوى وعيه المظلم. نبرة صوته، مهما كانت الأحداث، كانت روتينية التوقيت والمنهجية، مثل التروس في الساعة.

إذا تمت مقاطعته، فلن ينزعج، لكنه سيعيد القصة، مضيفاً التفاصيل المطلوبة، دائماً برأسه المنحني، وعينيه المثبتتين على الأرض، ومرفقيه على ركبتيه. حكى بتباطؤ ناجم عن كثرة الانتباه حتي لا يلتبس عليه الأمر.

تراكم القلق بشأن الإثم. كان يعلم أنه سيموت، وأن عدالة الرجال تبحث عنه بشراسة، لكنه، بمسدسه في جيبه، ومرفقيه على ركبتيه، ووجهه متشابك على أصابعه، ونظرته مثبتة على التراب. عن الغرفة الضخمة الفارغة، تحدث بهدوء.

لقد نما بشكل غير عادي في غضون أيام قليلة. الجلد الأصفر الملتصق بالعظام المسطحة لوجهه جعله يبدو كمستهلك. في وقت لاحق، كشف تشريح الجثة أن المرض كان متقدماً بالفعل فيه.

قال لي بعد ظهر اليوم الثاني بعد لقائي به في منزلي:

ـ قبل الزواج كنت أفكر برعب في الزنا. في رأيي، لم يتزوج الرجل إلا أن يكون دائماً مع زوجته ويتمتعا بفرحة رؤية بعضهما البعض في جميع الأوقات؛ وأن نتكلم ونحب بعضنا بالعيون والكلمات والابتسامات. صحيح أنني كنت صغيراً في ذلك الوقت، لكن عندما أصبحت عشيقاً لإلسا شعرت بالحاجة إلى تجديد كل هذه الأشياء. لقد كان يتحدث.

لم يقبّل أردوسين إلسا قطّ، لأنه كان سعيداً بترك دوار حبّها يضغط على حلقه، ولأنه كان يعتقد أيضاً أن «الآنسات لا يجب تقبيلهن». وقد خلط بين ما هو روحاني وبين ما لم يكن في حد ذاته أكثر من رغبة جسدية.

ـ لم ندعُ بعضنا البعض بدون لقب قطّ، لأنه كان ممتعاً بالنسبة لي إبقاء مسافة من الاحترام بيننا لا تُلغى. إلى جانب ذلك، كنت أعتقد أن آنسة يجب أن تُنادى بلقب. بالإضافة الى أنها لا يُسخر منها. في مفهومي، كانت «البكارة» هي التعبير الحقيقي عن النقاء والكمال والسذاجة. إلى جانب ذلك لم أكن أعرف الشهوة، ولكن القلق من الجزع من النشوة اللذيذة التي ملأت عيني بالدموع. وكنت سعيداً لأنني أحببت بمعاناة، وتجاهلت نهاية رغبتي، ولأنني كنت أعتقد أنه حبٌّ روحيٌّ كل ذلك التشنُّج العضوي الرهيب الذي سجدت به بسعادة أمام نظراتها الهادئة، نظرة طاهرة اخترقت ببطء أكثر الطبقات الفرعية لروحي.

وبينما كان يتحدث، نظرت إلى أردوسين. لقد كان قاتلاً، قاتلاً، وتحدث عن الفروق الدقيقة في المشاعر السخيفة! متابعاً:

ـ وفي ليلة اليوم الذي تزوجنا فيه، وحدنا في غرفة الفندق، خلعت ملابسها بشكل طبيعي أمام المصباح المضاء. احمرت وجنتاي من الخجل، أدرت رأسي حتى لا أنظر إليها ولا أفصح عن خجلي. ثم خلعت رابطة العنق والسترة والجوارب الطويلة ثم زحفت تحت الأغطية مرتدياً سروالي.

على الوسادة، بين خصلات شعرها السوداء، أدارت وجهها وقالت مبتسمة بضحكة غريبة:

ـ ألا تخاف من أن يتكرمش؟ هيا انزعه، يازونسيتو.

في وقت لاحق، فصلت مسافة غامضة بين إلسا وأردوسين. أسلمت نفسها إليه، ولكن باشمئزاز، بخيبة أمل في من يعرف ماذا. وجثا على ركبتيه على رأس سريرها، وتوسل إليها أن تعطيه لحظة، لكن المرأة بصوت أصم بفارغ الصبر أجابته وهي تكاد تصرخ:

ـ اتركني وحدي! ألا ترى أنك تصيبني بالاشمئزاز؟

كبح جماح رعبه من الكارثة، ومن ثم غرق أردوسين مرةً أخرى في سريره.

«لم أستلقِ، بل جلست، مسنداً ظهري تقريباً على المخدة، ناظراً إلى الظلام».

كنت أعلم أنه لا يوجد شيء في النظر إلى الظلام، لكنني تخيلت أنها، آسف لرؤيتي هكذا، مهجورة في الظلام، ستنتهي بالشفقة وتقول لي: «حسناً، تعال إذا أردت». لكنها لم تقل هذه الكلمات لي أبداً، حتى صرخت في إحدى الليالي في يأس:

ـ ولكن ماذا تظنين، أنني سأستمني دائماً؟

ثم أجابت بهدوء:

ـ لا جدوى؛ ما كان يجب أن أتزوجك.

المنزل الأسود

وظهر بداخله الألم، لكنه قوي لدرجة أن أردوسين أمسك برأسه فجأةً، وشعر بألم جسدي. بدا له أن الكتلة الدماغية انفصلت عن جمجمته واصطدمت بجدران الجمجمة دون أدنى حركة.

كان يعلم أنه ضاع بشكل لن يمكن تعويضه، ونُفي من السعادة المحتملة التي من شأنها دائماً، يوماً ما، أن تضع ابتسامة على الخد الأكثر شحوباً: لقد فهم أن القدر قد أجهضه في فوضى ذلك الحشد المروع من الرجال المتجهمين الذين يلطخون الحياة بصورهم الغارقة، بكل الرذائل والآلام.

لم يعد لديه أي أمل، وأصبح خوفه من العيش أقوى عندما اعتقد أنه لن يكون لديه أحلام أبداً، وعندما وضع عينيه بعناد على زاوية من الغرفة، أدرك أنه بالنسبة إليه فإن الأمر سواء أن يعمل كغاسل أطباق أو كخادم في نزل.

ما الذي يهتم له! لقد أوقعه الألم في حضن حشد صلب من الرجال الرهيبين الذين يجرون بؤسهم خلال النهار عن طريق بيع القطع الأثرية أو الأناجيل، ويمرون عبر أماكن التبول عند الغسق حيث يعرضون أعضاءهم التناسلية للصغار الذين يدخلون تلك الأماكن المرتبطة بمخاوف أخرى مماثلة.

لأن هذا الألم أصبح مستمراً لدرجة أنه اكتشف فجأة أن روحه حزينة على المصير الذي ينتظر جسده في المدينة، وهو جسد يزن 70 كيلو جراماً، الذي لم يره إلا وهو يمشي أمام المرآة.

في أوقات أخرى ـ مفكراً ـ أحاط نفسه بكل وسائل الراحة والملذات، الملذات التي، لأنها لم تكن مرتبطة بمادة، ليس لها مدة أو حدود، بينما حزنه الحالي مرتبطٌ بجسده، جسد المعاناة، والذي كان يفكر فيه أردوسين عدة مرات كما لو أنه لم يعد ملكاً له، ولكن مع الندم على عدم المقدرة على إسعاده.

لقد أصبح هذا الحزن على قوته الجسدية عميقاً، لأن ألم الأم التي لا تستطيع إشباع رغبات ابنها يجب أن يكون عميقاً.

لأنه لم يهب لجسده شيئاً، فقد عاش هذه الفترة القصيرة، لا بدلة لائقة ولا فرحٌ يُصالحه على الحياة؛ لم يفعل شيئاً من أجل إمتاع نفسه، بينما لم تُنكره روحه وكما لم تنكر جغرافية البلدان التي لم يكتشف البشر بعد آلات للوصول إليها.

وقيل مرات عديدة:

ـ ماذا فعلت أنا من أجل إسعاد هذا الجسد البائس الذي هو ملكي؟

لأن الحقيقة هي أنه في بعض ظروف يشعر بأنه غريب جداً عنه، مثل النبيذ الموجود في البرميل الذي يحتوي عليه.

ثم ورد اليه أن هذا الجسد كان هو الذي ملأ تأملاته، وغذّاها بدمه المتعب؛ جسد بائس، رديء الملبس، لم تكن أي امرأة تتوق إلى النظر إليه أو تتوق لأن تشعر باحتقار وعبء الأيام، الذي كانت أفكاره وحدها مسؤولة عنه، والتي لم تشتهِ أبداً الملذات التي كانت تطلبها بصمت وخجل.

شعر أردوسين بالشفقة، والحزن على شخصيته الجسدية، التي كانت غريبة عنه تقريباً.

ثم، مثل رجل يائس يرمي بنفسه من الطابق السابع، بينما هو يرمي بنفسه بين أحضان ذلك الرعب اللذيذ الذي تسبِّبه العادة السرية، ساعياً إلى القضاء على ندمه ليعيش في عالم لا يستطيع أحد طرده منه، محيطاً نفسه بالبهجة التي كانت بعيدة عن حياته. بجميع الأجسام الأكثر تنوّعاً وجمالاً، والتي تتطلَّب قدراً هائلاً من مخزون الوجوديات والمال للاستمتاع بها.

كان هذا عالماً من الأفكار الجيلاتينية، مقسماً إلى ممرات حيث فيه كان الفحش يرتدي أغلى أنواع الحرير والدانتيل والمخمل والجيبير؛ عالماً متألقاً في لبِّه الشفقي. مرت عبره أجمل نساء الخلق، الغريبات اللاتي اكتشفن أثداءهن المتخذة شكل التفاح عن طريقه، عارضين على فمه، المسمم بسبب شربه للسجائر الرديئة، شفاهاً عطرةً، وكلماتٍ مثقلة بالإغراء.

وكُنَّ بالفعل عذارى طويلات ورائعات ومُصقلات، طالبات مدارس فاسدات بالفعل، عالم أنثوي متنوع لا يمكن لأحد أن يبعده، بالنسبة إليه، الشيطان المسكين، الذي كان ينظر إليه حكّام أكثر بيوت الدعارة المتداعية بارتياب وكأنه سيسرق منهم أموال الزنا.

أغمض عينيه ودخل في الظلام المشتعل، نسي كل شيء مثل مدخّن الأفيون الذي عند دخوله إلى مكان التدخين المقرف ـ حيث تفوح من مالكه الصيني رائحة البراز ـ اعتَقَدَ أنه يستعيد الجنة.

للحظة انزلق خلسة إلى المتعة السرية، محرجاً، ولكن بنفاد صبر مثل شاب دخل ماخوراً لأول مرة.

كانت الرغبة تتطاير مثل ذرة في أذنيه، لكن لم يعد بإمكان أحد أن يخرجه من هذا الظلام المغري.

كان هذا الظلام منزلاً عائلياً فقَدَ فيه فجأةً كل مفاهيم مشاركة المعيشة. هناك، في ذلك البيت الأسود، كانت الملذات الرهيبة معتادة بالنسبة له، والتي لو اشتَبَهَتْ في وجود رجل آخر كانت ستنفصل عنه إلى الأبد.

على الرغم من أن هذا البيت الأسود كان في داخل أردوسين، إلا أنه دخل إليه وقام بجولات فريدة ومناورات متعرجة، وبمجرد أن تجاوز العتبة عرف أنه لا جدوى من العودة، لأنه من خلال ممرات ذلك البيت الأسود، عبر ممراً خاصاً وتقدَّمَتْ لمقابلته، بأقدام خفيفة، المرأة التي كانت يوماً ما على الرصيف، في الترام أو في المنزل، وتكنُّ فيه رغبةً عارمةً.

مثل شخص يأخذ المال من محفظته الذي هو نتيجة لجهود مختلفة، أخرج أردوسين من غرف نوم المنزل الأسود امرأةً مجزأةً وكاملةً، امرأةً مكونةً من مئة امرأة تحتوي على مئات الرغبات المتساوية دائماً، والتي تتجدد في حضور هؤلاء النساء.

ولأنها كانت لديها ركبتا فتاة كانت الرياح تنحّي تنورتها جانباً أثناء انتظارها للحافلة، والفخذان اللذان يتذكر رؤيتهما على بطاقة بريدية إباحية، والابتسامة الحزينة والباهتة لتلميذة المدرسة التي وجدتها منذ زمن بعيد في الترام، وعينان مخضرتان لخيَّاطة بفم شاحب ومحاطة بالحبوب التي خرجت يوم الأحد، عند الغسق، مع صديق، للرقص في مراكز إعادة الإبداع تلك، حيث يدفع أصحاب المتاجر الفتيات الصغيرات مع ذبابهم الثائر كي يستمتعوا بالرجال.

هذه المرأة التحكمية، التي تمتلك جسد جميع النساء اللواتي لم تكن قادرةً على امتلاكهنّ، كانت تحمل معه ذلك الرضا عن العرائس الحكيمات اللائي تركن أيديهن بالفعل بين قدمي أصدقائهن دون أن يتخلّين عن الأمانة. كنت ذاهبةً نحوه.

كانت ترتدي حزاماً تقويمياً يحتوي بداخله أردافها، بينما تركت ثدييها المترهلين قليلاً حُرَّي الحركة، وكانت أخلاقها لا تُعوض مثل تلك الخاصة بشابة متعلمة تعرف كيف تزن الأمور، ولكن ذلك لم يمنعها من ترك صديقها يفقد أصابعه في صدريتها المفتوحة جزئياً بسبب النسيان.

ثم سقط في أعماق البيت الأسود. البيت الأسود! كانت لأردوسين في تلك الأوقات ذكريات بغيضة. كان لديه إحساس بأنه عاش في جحيم، رافقه محتواه الشيطاني طوال الأيام، وحتى على مقربة من موته يظل مطارداً من العدالة.

عندما توجه بعقله نحو ذلك الوقت، ارتقى بلمعان مضيء، لهبٌ أحمرٌ أمام عينيه، وكان هذا هو غضبه المؤلم، لدرجة أنه كان يريد في قفزة واحدة أن يصل إلى ما وراء النجوم، ليحرق نفسه في نار ليطهر حاضره من كل ذلك الماضي الرهيب والدائم والحتمي.

البيت الأسود! ما زلت أرى أمام عيني الوجه الكئيب للرجل الصامت، الذي رفع رأسه فجأة نحو السقف، ثم خفض عينيه حتى أصبحتا متوازنتين مع وجهي ويبتسمان ببرود، أضاف:

ـ حسناً، أخبر الناس ما هو البيت الأسود. وأنني كنت قاتلاً. ومع ذلك، أنا، القاتل، أحببتُ كل الجمال وحاربت في نفسي ضد كل الإغراءات المروعة تلك التي ساعة بعد ساعة كانت ترتفع بداخلي. لقد عانيت من أجل نفسي ومن أجل الآخرين، كما ترى، من أجل الآخرين أيضاً.

الخطاب

وقع الاختطاف بعد عشرة أيام من هروب إلسا. في اليوم الرابع عشر من شهر أغسطس، تلقى أردوسين زيارة من المُنَجِّم، وكما كان مخططاً له، وجد خطاباً ملقىً تحت الباب. احتوى هذا على تعميم مزور، من وزارة الحرب، يبلغ أردوسين بالعنوان المفترض للقائد بيلاوندي وملحوظة غريبة نصها كما يلي:

«سأنتظرك حتى اليوم العشرين من الشهر من العاشرة إلى الحادية عشرة، بصحبة بارسوت. نادِ وادخل دون انتظار. لا تأتِ لزيارتي وحدي».

قرأ أردوسين رسالة المُنَجِّم ثم ظل يفكر. كان قد نسي أمر بارسوت. كان يعلم أن عليه أن يقتله، ثم بعد ذلك غطَّى الضباب هذا التقرير، وذهبت الأيام التي احتلت المدة الفاصلة، وأنها مرت مملة، إلى الأبد. كان عليه أن يقتل بارسوت. يمكن العثور على تفسير كلمة «كان» كخاصية لجنون أردوسين. ولما سألته في هذا الصدد، قال:

«كان علي أن أقتله، لأنني لو لم أفعل فلن أعيش في سلام. كان قتل بارسوت شرطاً أساسياً للوجود، كما هو الحال بالنسبة للآخرين استنشاق الهواء النقي».

وهكذا، بمجرد أن تلقى الرسالة، ذهب إلى منزل بارسوت. كان يعيش في بنسيون في شارع أوروغواي، شقة مظلمة وقذرة يشغلها عالم رائع من الناس من جميع الأنواع. كانت صاحبة هذا الوكر مكرسة نفسها للروحانية، وكان لها فتاة حَوْلاَءُ ولكن من حيث المدفوعات كانت لا ترحم.

إذا ما تأخر مؤجر عن دفع الإيجار لمدة أربع وعشرين ساعة، فإنه واثقٌ من أنه بحلول الليل سيجد أثاثه ونفاياته ملقاة في وسط الفناء.

وصل متأخراً إلى منزل الآخر. كان غريغوريو يحلق شعره بالضبط عندما دخل أردوسين غرفته. بارسوت كان شاحباً، وكانت لديه ندبة على خده، فتفحص أردوسين من رأسه إلى أخمص قدميه، ثم قال:

ـ ما الذي تريده من هنا؟

وعلق أردوسين في وقت لاحق بقوله: «كان سيثير غضباً آخر». نظرت إليه بابتسامة «ودودة»، لأنني شعرت كأنني صديق له في ذلك الوقت، ودون أن أنبس ببنت شفة، سلمته الرسالة من وزارة الحرب.

فرحة لا يمكن تفسيرها جعلتني أشعر بالقلق، أتذكر أنني جلست لمدة دقيقة على حافة سريره، ثم نهضت وشرعت في المشي بعصبية في جميع أنحاء الغرفة.

لذا فهي في تمبرلي، وتريد منا البحث عنها؟

ـ نعم هذا ما أريده. وأن تذهب للبحث عنها.

تمتم بارسوت بشيء لم يفهمه أردوسين، ثم بدأ بيديه في فرك عضلات ذراعيه وتدفقت الدماء في البشرة بهدوء. كان ذاهباً ليحلق شاربه، ممسكاً بالشفرة في الهواء ثم أدار رأسه، وقال:

ـ هل تعرف؟ اعتقدت أنك لن تكون لديك الشجاعة لزيارتي أبداً.

نظر إلى أردوسين نظرة خضراء مخططة، حيث كان لهذا الرجل حقاً وجه نمر، وبعد أن عقد ذراعيه، قال:

ـ هذا صحيح، لقد اعتقدت أنا هذا أيضاً لكن الأمور تتغير الآن.

ـ هل تخشى الذهاب بمفردك؟

ـ لا، ما يهمني أن أراك أنت في خضم المغامرة.

صَرَّ بارسوت أسنانه. مع ذقنه المبللة برغوة الصابون وجبهة مجعدة بقوة، مع الوضع في الاعتبار وجود أردوسين وانتهى قائلاً:

ـ انظر، ظننت أنني وغد، لكني أعتقد أنك... أنت أسوأ مني. على أي حال، فليكن ما يريده الله.

ـ لماذا تقول هذا «ما يريده الله»؟

توقف بارسوت أمام المرآة، ووضع قبضتيه على خصره، وما قاله آنفاً لم يفاجئ أردوسين، الذي سمع هذه الكلمات بطبع هادئ:

ـ ما أدراني بأن هذا الخطاب غير مزوَّر وأنك ستعطيني «فراشاً» لاغتيالي؟

كم عجيبة هي النفس البشرية!

ـ علَّق أردوسين بعد ذلك: سمعت هذه الكلمات ولم تتحرك عضلة واحدة في وجهي. كيف خمّن غريغوريو الحقيقة؟ لا أعلم. أم كانت لديه نفس مخيّلتي السيئة أيضاً؟

أشعل سيجارة وأجاب بهذه الكلمات فقط:

ـ افعل ما تشاء.

لكن بارسوت، الذي كان في مزاجٍ للمحادثة، أجاب:

ـ ولكن لم لا؟ قل لي: لم لا؟ ما هو الغريب إذا ما أردت قتلي؟ إنه منطقيّ جداً.أردت أن أسرق منك امرأتك، وقد أبلغت عنك، وصفعتك، ما هذا بحق الجحيم! عليك أن تكون قديساً حتى لا ترد في ذهنك فكرة قتلي.

ـ قديس؟ لا، يا بني، أنا لست كذلك. لكن أقسم أنني لن أقتلك غداً. يوماً ما نعم، ولكن ليس غداً.

ضحك بارسوت بمرح.

ـ هل تعلم أنك مميز يا ريمو؟ يوماً ما سوف تقتلني. يا للعجب! هل تعرف ما يثير اهتمامي في كل ذلك؟ صورة وجهك عندما تقتلني. قل لي، هل ستكون جاداً أم ستضحك؟

تم طرح الأسئلة بصورة صداقة خطرة.

ـ ربما أنت جاد. لا أعرف. أنا أعتقد أنك جاد. ستدرك أن قتل شخص آخر ليس لعبة.

ـ ألا تخاف من السجن؟

ـ لا، لأنني إذا قتلتك، فسوف أتخذ احتياطاتي أولاً، وسأتلف جثتك بحمض الكبريتيك.

ـ يا لك من همجيّ! بالمناسبة، لدي ذاكرة ضعيفة: هل دفعت لمصنع السكر؟

ـ نعم.

ـ من أعطاك المال؟

شرير.

ـ لديك القليل من الأصدقاء، لكن أصدقاء طيبون... إذاً، في أي وقت ستأتي لاصطحابي غداً؟

ـ في الساعة الثامنة ظهر ذلك الرجل للأمر... لذا...

ـ انظروا، لا أستطيع أن أصدق أن هذا صحيح تماماً، ولكن إذا كانت إلسا موجودة، فسأعطيها الكثير من الصفعات التي أحذرها من أنها ستحتاج لمرور العديد من السنوات حتى تنساها.

عندما غادر أردوسين ذهب إلى مكتب البريد وأرسل برقية إلى المُنَجِّم.

فعل الألم

في تلك الليلة لم ينم. كان متعباً للغاية. لم يكن يفكر في أي شيء أيضاً. كان يحاول إعطائي تعريفاً لتلك الحالة بهذه المصطلحات:

ـ وكأن الروح قد ابتعدت على مسافة نصف متر من الجسد. ارتخاء عضلي غير عادي، قلق لا ينتهي أبداً. تغمض عينيك ويبدو أن الجسد يذوب فجأةً في العدم، يتم تذكر التفاصيل المفقودة، من بين آلاف الأيام التي عشتها لا ترتكب جريمة أبداً، لأن ذلك أكثر من أن يكون مريعاً فهو أمر محزن. تشعر أنك تقطع واحداً تلو الآخر من تلك الأربطة التي تربطك بـالحضارة، أنك ستدخل إلى عالم الهمجية المظلم، وستفقد دفة القيادة، كما قيل، وكذلك أخبرت أيضاً المُنَجِّم، والتي جاءت من قلة التدريب على الجريمة، لكن الأمر ليس كذلك، لا. في الواقع، ترغب في أن تعيش مثل أي شخص آخر، وأن تكون صادقاً مثل أي شخص آخر، وأن يكون لديك منزل، وأن تكون لديك امرأة، وأن تلقي بنظرك من النافذة لتنظر إلى المارة، ومع ذلك بالفعل لا توجد خلية واحدة في جسده غير مشربة بالوفاة التي تحتويها تلك الكلمات: يجب أن أقتله. ستقول إنني أتحكم في كراهيتي. كيف لا أعقل ذلك. إذا كان لدي الانطباع بأنني أعيش في الحلم. حتى أنني أدرك أنني أتحدث كثيراً لأقنع نفسي أنني لست ميتاً، ليس بسبب ما حدث ولكن بسبب الحالة التي يتركها مثل هذا الحدث. إنها مثل حالة الجلد بعد الحرق. يُشفى، لكن هل رأيت كيف يبدو؟ متجعداً، جافاً، مشدوداً، لامعاً. هكذا تبدو روحك. والسطوع الذي ينعكس في بعض الأحيان يحرق عينيه. والتجاعيد التي

يشعر بها تثير اشمئزازه. أنت تعلم أن لديك وحشاً بداخلك سيطلق سراحه في أية لحظة ولا تعرف في أي اتجاه.

«وحش»! مرات عديدة ظللت أفكر في ذلك. وحش هادئ ومرن وغير قابل للفهم من شأنه أن يفاجئك بعنف نبضاته، مع الذلات الشيطانية التي تكتشفها في استراحات الحياة والتي تسمح له بتمييز العار من جميع الزوايا. كم مرة توقفت في نفسي، في سرّ نفسي وحسدت على حياة أكثر الناس تواضعاً! آه، لا ترتكب أبداً أية جريمة. انظر إلى ما عليه أنا. وأنا أعترف لك فقط لأنك نعم، ربما لأنك تفهمني...

وفي المساء؟ عدت إلى المنزل في وقت متأخر. ألقيت بنفسي مرتدياً ملابسي على السرير. شعرت أنا بالعاطفة التي يمكن أن يشعر بها لاعب ما، في أعماق دقات قلبي القلق. لم أكن أفكر حقاً في الأحداث التي تعقب الجريمة، لكنني كان لدي شغف أن أعرف كيف سأتصرف، ما الذي كان سيفعله بارسوت، وكيف سيختطفه المُنَجِّم، وأن الجريمة التي قرأتها في بعض الروايات والتي كانت مثيرة للاهتمام؛ لقد رأيت الآن أنها شيء ميكانيكي، وأن ارتكاب جريمة أمر بسيط، ولكن يبدو الأمر معقداً بالنسبة لنا لأننا نفتقر إلى اعتياده.

لدرجة أنني أتذكر الاستلقاء مع نظراتي مثبتة على زاوية الغرفة المظلمة. مرت أمام عيني أجزاء من الوجود القديم، ولكنها غير متصلة، مثل الرياح، أمام عيني. لم أتمكن أبداً من شرح الآلية الغامضة للذكرى، والتي تحدث في ظروف استثنائية لحياتنا، تكتسب التفاصيل الضئيلة وغير المهمة فجأةً أهميةً غير عادية تقريباً والصورة التي غطاها حاضر الحياة في ذاكرتنا لسنوات وسنوات. كنت أتجاهل وجود تلك الصور الداخلية وفجأةً يتحطم الحجاب السميك الذي يغطيهما، وهكذا في تلك الليلة، وبدلاً من التفكير في بارسوت، تركته هناك، في تلك الغرفة الحزينة من البنسيون، في موقف رجل ينتظر وصول شيء ما، في هذا الشيء الذي عنه تحدثت العديد من المرات، وهذا من وجهة نظري يجب أن يعطي حياتي منعطفاً غير متوقع، وأن يدمر الماضي تماماً، ويكشف عن نفسي ويظهر رجلاً مختلفاً تماماً عما كنت عليه.

في الواقع، الجريمة لم تقلقني كثيراً، ولكنها شغف آخر بالنسبة إليّ: في أي شكل سأظهر بعد الجريمة؟ هل سأعاني من الندم؟ هل سأصاب بالجنون؟ هل سينتهي بي الأمر بتسليم نفسي للعدالة؟ أم أنني سأعيش ببساطة كما كنت حتى الآن، أتألم من ذلك العجز الفردي الذي كان سبباً في كل أفعال حياتي، عدم ترابط الذي تطلق عليه الآن، أعراض الجنون؟

الطريف في الأمر أنني شعرت أحياناً بدوافع سعادة غامرة، والرغبة في الضحك لمحاكاة نوبة من الجنون التي لم تكن موجودة بداخلي؛ ولكن بمجرد كسر ذلك الدافع، حاولت معرفة كيف سنختطف بارسوت. كنت متأكداً من أنه سيدافع عن نفسه، لكن المُنَجِّم لم يكن رجلاً يتدخل في فعل دون دراسته دراسة متأنية. في مناسبات أخرى، كنت أسأل نفسي عن المشكلة في الطريقة التي خمن بها بارسوت أن التعميم الصادر عن وزارة الحرب قد تم تزويره وكنت مندهشاً من تحقيق هذا الوجود المثالي للروح، عندما وجَّه وجهه الصابوني نحوي، قال بسخرية تقريباً:

انظروا إلى مدى فضولكم إذا كان التعميم مزوراً.

لقد كان في الواقع وغداً، ولكني لم أكن على شاكلته؛ ربما كان الاختلاف بيننا هو أنه لم يكن مهتماً بمشاعره البسيطة كما كنت أفعل. علاوة على ذلك، لم أهتم بأي شيء في ظل هذه الظروف. ربما كنت من قتله، ربما كان المُنَجِّم، الحقيقة هي أنني ألقيت بحياتي في ركنٍ موحشٍ، حيث لعبت الشياطين بحواسي كما لو وضعت النرد في فنجان.

كانت هناك أصوات بعيدة قادمة: لقد تسرب التعب إلى مفاصلي؛ بدا لي أحياناً أن اللحم، مثل الإسفنج، يمتص الصمت ويستريح. خطرت لي مظلمة بشأن إلسا، وقد أدى الحقد الضمني إلى برودة عضلات فكي؛ حتى أنني شعرت بألم حياتي الفقيرة.

ومع ذلك، فإن الطريقة الوحيدة لإعادة تأهيل نفسي تجاه تاريخي كانت بقتل بارسوت، وفجأة كنت أقف بجانبه؛ كان مقيداً بحبال سميكة وممدود فوق كومة من الحقائب؛ فقط

الخطوط العريضة الخضراء للعين والأنف الشاحبة كانت واضحة؛ كنت أتكئ على جسده بلطف، وألوح بمسدس، مصففاً شعره بلطف من منبته ثم أخبرته بصوت منخفض للغاية:

ـ ستموت أيها الوغد.

كانت الحزمة تهتز، رفعت المسدس لأعلى، وألصقت صدغه بالبرميل وكررت مرة أخرى بصوت منخفض للغاية:

ـ ستموت، أيها الوغد. كانت ذراعاه تتحركان تحت الأربطة السميكة، كانت مهمة يائسة للعظام والعضلات المخيفة.

ـ هل تذكر، أيها الوغد، هل تتذكر البطاطس، السلطة المسكوبة على المائدة؟ هل لدي الآن ذلك الوجه غير السعيد الذي كنت قلقاً بشأنه؟

«لكن فجأة شعرت بالخجل من تذكيره بهذه الأشياء، ثم أقول له، أو لا، لن أقول له شيئاً، ثم أخذت كيساً من الخيش وغطيت رأسه: تحت الخيش الكثيف، كان رأسه يهتز. حاولت ضغطها على الأرض لضمان فعالية الرصاصة والوضع الآمن لماسورة السلاح، وكان الكيس ينزلق من فوق الشعر وكل جهودي كانت عديمة الفائدة لترويض شجاعة ذلك الوحش، الذي كان يحاول التنفس في صمت في محاولة منه للهروب من الموت. ما إن اختفى هذا الحلم، تخيلت نفسي أسافر عبر الأرخبيل الماليزي، على متن مركب شراعي في المحيط الهندي؛ كنت قد غيرت اسمي، وكنت أتمتم باللغة الإنجليزية، ربما كان لدي نفس الحزن، لكن الآن لدي ذراعان قويتان، ونظراتي رصينة؛ ربما في بورنيو، ربما في كلكتا أو ما وراء البحر الأحمر، أو على الجانب الآخر من تايغا، في كوريا أو في منشوريا، سيتم إعادة بناء حياتي.

صحيح أنها لم تعد أحلام المخترع أو الاسم الذي اكتشف الأشعة الكهربائية، القوية لدرجة أنها تذيب صخور الفولاذ كما لو كانت عدساً شمعياً، ولا الذي يترأّس الطاولة المزججة

لعصبة الأمم.

في أوقات أخرى، كان الإرهاب يزيد بداخل أردوسين: كان لديه إحساس بأنه مكبل، وكانت الحضارة الرهيبة قد وضعته داخل سترة مقيدة لا يستطيع الهروب منها. لقد رأى نفسه مقيداً بالسلاسل ويرتدي رداء رايادليو، يعبر ببطء في عمود رئيسي، بين الكثبان الرملية المغطاة بالثلج، باتجاه غابات أوشوايا. كانت السماء فوقها بيضاء كلوح من الصفيح.

هذه الرؤية أضرته. أصابه العمى بسبب الغضب البطيء، استيقظ، أخذ في السير من جانبٍ لآخر في الغرفة، كان ينوي ضرب الجدران بكلتا قبضتيه، كان يريد أن يخترق الجدران بعظامه؛ ثم توقَّفَ عند دعامة الباب، وعقد ذراعيه، ومرة أخرى وصل الألم إلى حلقه، وكان كل ما يفعله بلا فائدة، في حياته كانت هناك حقيقة ظاهرية وفريدة ومطلقة. هو والآخرون. كانت هناك مسافة بينه وبين الآخرين، ربما كانت بسبب سوء فهم الآخرين، أو ربما جنونهم. على أيّ حال، لم يكن أقل بؤساً من ذلك. ومرة أخرى تحول الماضي إلى أشلاء أمام عينيه؛ الحقيقة هي أنه كان يريد الهروب من نفسه، والتخلي قطعاً عن تلك الحياة التي التهمت جسده وسممته.

آه! الدخول إلى عالم جديد به طرق رائعة في الغابة، حيث كانت الرائحة الكريهة للوحوش البرية تضاهي الوجود الرهيب للإنسان في درجة الحلاوة.

وقد سار، أراد أن يستنفد جسده، وأن يرهقه نهائياً، ويسحقه بالإرهاق لدرجة أنه كان من المستحيل عليه تكوين فكرة واحدة.

الاختطاف

في التاسعة صباحاً ذهب أردوسين للبحث عن بارسوت.

غادرا دون أن ينبس أيٌّ منهما ببنت شفة. فيما بعد، علق أردوسين على هذه الرحلة الغريبة التي ذهب فيها الرجل الآخر إلى نهايته الحتمية دون أدنى مقاومة.

وفي إشارة إلى تلك الملابسات قال:

ـ ذهب مع بارسوت مثل رجل محكوم عليه يسير نحو محل الإعدام، وكل قوته مسلوبة؛ بإحساس مستمر، هو الفراغ الذي يشغل فجوات أحشائي.

كان بارسوت بدوره عابساً. فهمت أنه، جالس هناك بجانب النافذة، ومرفقه مستريح على الدرابزين، يتراكم عليه الغضب لإطلاق العنان لهما ضد العدو غير المرئي الذي حذرته غريزته بأنه مخبأ في الفيلا في تمبرلي.

تابع أردوسين:

ـ في بعض الأحيان كان يخبرني كم كان من الغريب أن ينمو الى علم الركاب الآخرين أن هذين الرجلين، الغارقين في المفروشات الجلدية للمقاعد: أحدهما القاتل التالي، والآخر فريسته.

ومع ذلك بقي كل شيء على حاله. تشرق الشمس هناك في الحقول: لقد تركنا وراءنا الثلاجات، ومصانع الإستيارين والصابون، ومسابك الزجاج والحديد، وحظائر الماشية التي هي في خطر، والطرق التي يجب رصفها بسهولة ملطخة بالجص والأخاديد. والآن بدأت، الممرّات المنقولة، العرض الشرير لريميديوس دي اسكالادا، ورش الطوب الأحمر الوحشية وأفواهها السوداء، التي كانت القاطرات تتناوب تحت أقواسها، وفي المزاريب، يمكنك رؤية عصابات من الأشخاص التعساء يضربون الحصى أو يُنقلون وهم نيام.

«علاوة على ذلك، وسط نباتات الموز المتعثرة التي أفسدها السخام ورائحة الزيت، عبر المسار المائل للشاليهات الحمراء لموظفي الشركة، بحدائقها الصغيرة، وستائرها المسودة بالدخان والمسارات المزروعة روث وفحم نباتي».

كان بارسوت ضائعاً في التفكير. أردوسين، لشرح المصطلح الدقيق، فليكن. إذا رأى في تلك اللحظة قافلة تتقدم على نفس الخطو لكن في الاتجاه المعاكس، لما رمش له جفن، لذلك

كانت اللامبالاة هي الحياة أو الموت.

وهكذا مرت الرحلة. عندما وصلوا إلى تيمبرلي، اهتز بارسوت كما لو أنه قد استيقظ في كهف قارس البرودة ومن حلمٍ مؤلمٍ، ومن ثم قال فقط:

ـ من أي اتجاه هو؟

مدَّ أردوسين ذراعه، مشيراً بشكل غامض إلى المسافة التي يجب قطعها، وواصل بارسوت المُضيّ قدماً.

الآن كانوا يعبرون الشوارع في صمت نحو فيلا المُنَجِّم.

رمى لون الصباح الأزرق الرقيق بظلاله على جدران الشوارع المتهالكة.

سيقان، قوالب من جميع الخضر والأشجار، خلقت ماكيتات لمبانٍ نباتية، تتوجها أعمدة مرنة ومتشعبة بواسطة متاهات من الخشب الأحمر.هذا تحت نسيم هوائي يتموج بلطف، بحيث بدت تلك الإنشاءات الرائعة لعالم النبات العشوائي وكأنها تطفو في جو من الذهب، والذي كان يتمتع بالوضوح الزجاجي لبلورة مقعرة، محتفظاً في كرويته بالرائحة الكريهة العميقة للأرض.

قال بارسوت: «صباح جميل».

ولم يعودا يتكلمان حتى وصلا إلى مدخل الفيلا.

قال أردوسين: «ها هو ذا».

قفز بارسوت إلى الخلف ونظر إليه بحدة لا تصدق، صاح:

ـ وكيف تعرف أنه هنا إذا لم يكن هناك رقم؟

وتعليقاً على هذا الحادث، قال أردوسين:

«يمكن التأكيد على أن هناك غريزة للجريمة، غريزة تسمح للمرء أن يكذب على الفور دون خوف من تحمل التناقضات، غريزة تشبه الدافع إلى الحفاظ، وفي أكثر اللحظات حدة من القتال يسمح للفرد بالعثور على وسائل نجاة تكاد تكون بعيدة الاحتمال».

نظر أردوسين إلى الأعلى، وبتوازن غير متوقع بالنسبة له، وأجاب لاحقاً:

ـ لأنني جئت أمس لأتجول هنا. كنت أرغب في معرفة ما إذا كان قد رأى إلسا.

نظر بارسوت إليه بريبة.

كان من الممكن أن يدعي أن أردوسين كان يكذب، لكن حب الذات منعه من التراجع، وكان ينادي أردوسين ويضرب الباب بقوة براحة يديه.

حيث غطت الحواف العريضة لقبعة من القش منتصف وجهه، وبقميص ذي أكمام، توقف الرجل الذي رأى القابلة أمام بوابة الأسلاك المطلية باللون الأحمر.

ـ هل السيدة هناك؟ سأل بارسوت.

دون إجابة، سحب برومبرغ المزلاج وفتح البوابة: ثم التفت إلى طريق ملتوية باتجاه المنزل عبر بستان الكينا، وتبعه الرجلان. فجأة صاح صوت:

ـ إلى أين تذهب؟

التفت بارسوت. دار برومبرغ على كعبيه، وكأن ذراعه مضغوطٌ بسوستة ما لبث أن امتد، وأصبح مستقيماً كالسهم.

فتح بارسوت فمَهُ في نوبة من الدهشة، وقام على الفور بثني الجزء العلوي من جسده. كان على وشك إمساك بطنه بيديه، لكن ذراع برومبيرج امتدت لتسدِّد إليه ضربةً أخرى، وتناثرت أسنان الفك السفلي لبارسوت.

سقط وسحق العشب، بدا وكأنه ميت، ورجلاه مرفوعتان وشفتاه مفتوحتان قليلاً.

ظهر المُنَجِّم، وظهر برومبيرج، الجاد، شبه حزين، على الرجل الذي سقط.

حمله المُنَجِّم من مفصل ذراعيه، وشبَّكَ أصابعه تحت إبطيه، وبهذه الطريقة قادوه إلى المرأب المهجور. جعل أردوسين المدخل باللون المغرة يجري على البكرات، ورائحة العشب الجاف وزوبعة من الحشرات هربت من الطربية السوداء. تم إحضار الرجل باهت اللون في صندوق: تم ربطه في سلسلة سميكة على أحد الأعمدة بقفل.

قام المُنَجِّم بإحكام قيد قدمي بارسوت عند نهايتها من فوق الكاحل، وأحكَمَ عدة عُقَد مع الوصلات، ثم ثبَّتَها بقفل، الذي أصدر صريراً، فقام أردوسين، منتصباً فوق الشخص الساقط، وقال ناظراً إلى المُنَجِّم:

ـ هل رأيت؟ ليس معه دفتر شيكاته.

كانت العاشرة صباحاً. نظر المُنَجِّم إلى ساعته وقال:

ـ لدي الوقت لأخذ القطار السريع الذي يصل إلى روزاريو في السادسة. هل تريد مرافقتي إلى ريتيرو؟

ـ ماذا، هل يذهب إلى روزاريو؟

ـ ماذا لو اضطررت لإرسال البرقية لصاحب المعاش؟ هل لديك الرقم؟

ـ نعم، لدي جميع الأرقام.

ـ إنها أفضل طريقة للحصول على أمتعة بارسوت دون إثارة الشكوك. أليس له شيء آخر في البنسيون؟

ـ نعم، حقيبة وعكازان.

ـ تماماً. دعنا نتوقَّف عن الثرثرة وندخل في صلب الموضوع. في الساعة السادسة، سأكون في روزاريو، سأرسل البرقية إلى المرأة العجوز، بينما تتجوَّل أنت غداً حتى الساعة العاشرة ومن ثم تسأل السؤال الغبيّ عمّا إذا لم يصل بارسوت إلى روزاريو بعد، ووبما أني لم أصل حتى ذلك الحين، فإنك تعلم أنه قد عُرضت علي وظيفة مهمة، وما إلى ذلك، وما إلى ذلك.

ماذا تعتقد؟

ـ جيد جداً. في الثانية عشرة ركب المُنَجِّم القطار.

الفصل الثالث

السوط

أثبتت الحيلة التي ابتكرها أردوسين ونفَّذَها المُنَجِّم نجاحها، ومن ثم قرَّرَ أن الاجتماع الأول الذي سيجتمع فيه «الرؤساء» سيتم عقده يوم الأربعاء.

يوم الثلاثاء، الساعة الرابعة بعد الظهر، تلقَّى أردوسين زيارة من المُنَجِّم، الذي أبلغه أنه في يوم الأربعاء من ذلك الأسبوع، الساعة التاسعة صباحاً، سيجتمع الرؤساء في تمبرلي.

بقي المُنَجِّم برفقة أردوسين بضع دقائق، وعندما نزل بداية الدرج تفحص ساعته، ثم قال لأردوسين:

ـ يا للهول! إنها الرابعة، يجب أن أذهب إلى الكثير من الأماكن، سأنتظرك غداً في التاسعة. أوه! لقد اعتقدت أن الشخص الوحيد الذي يمكنه شغل منصب رئيس الصناعات هو أنت. حسناً، سنتحدث غداً... آه، لا تنس أن تقدم... أو بالأحرى، أن تحضر مشروع عن التوربينات الهيدروليكية، وهو نوع بسيط لمحطة طاقة جبلية. سيكون من أجل المستعمرة وأعمال التعدين الكهربائي.

ـ كم كيلو وات؟

ـ لا أعلم، عليك أن تدرس أنت ذلك. ستكون هناك أفران كهربائية... ملخص الموضوع، تولَّ أنت زمام الأمور. وأيضاً، لقد وصل المنقب عن الذهب، غداً سيقدم لك المزيد من التفاصيل الملموسة. جهز نفسك حتى لا تتفاجأ. يا للشيطان! لقد تأخر الوقت... إلى الغد إذاً...عدَّل قبعته، اتصل بالسائق الذي كان يمر بجانبه وركب السيارة.

في اليوم التالي، لاحظ أردوسين، وهو يسير على طول طرقات تمبرلي، مندهشاً بأنه قد مر وقت طويل منذ أن تمتع بمثل هذا الشعور بالهدوء.

مشى ببطء. أعطته هذه الأنفاق النباتية إحساساً بأنه يرى صنعاً غير منظم لأحد العمالقة. كان يحدق بسرور في المسارات ذات الحبيبات الحمراء في المتنزهات، بينما أوراقها القرمزية تمتد حتى المروج، ومفارش المائدة الخضراء المطلية بالمينا ذات الزهور الأرجوانية والصفراء والحمراء. ولو رفع عينيه لوجد بركاً مائية في أوجها مما يصيبه بالدوار، وما لبثت السماء أن اختفت فجأة في بؤبؤ عينيه وتركت عينيه سوداء من العمى، وذهن صافٍ عن طريق التفكير في التزاوج المثمر لذرات الفضة، والتي بدورها تتبخر، لتتحول إلى كآبة قاسية، جافة ومرعبة، وهي الآن في الأعلى، مثل كهوف الميثيلين الأزرق. والمتعة التي احتضنته في الصباح، المتعة الجديدة، جمعت أجزاء شخصيته، التي كسرتها معاناة الكارثة السابقة، وشعر أن جسده كان رشيقاً على استعداد لأي مغامرة.

ـ أوغستو ريمو أردوسين؛ هكذا تماماً ينطق اسمه الذي أعطاه متعة جسدية ضاعفت من الطاقة التي تستمدها أطرافه من الحركة.

عبر الشوارع المتقاطعة، تحت مخاريط الشمس، تقدم بشعور مليء بقوة شخصيته الجديدة: رئيس الصناعات. أثرت نضارة المسار النباتي إلى حد كبير في ضميره. وهذا الرضا جعله يسير في الشوارع، مثلما تتحرك تلك الدمى المصنوعة من السيلولايد الرصاصي تفعل تلك الدمى المصنوعة من السيلولويد. فكر في أنه يُظهر السخرية في الاجتماع، ومن جراء ذلك ينشأ خلاله ازدراء خبيث لضعاف العالم. الكوكب ينتمي إلى الأقوياء، هذا تماماً، الأقوياء. كانوا سيجتاحون العالم من خلال عاصفة ويقدمون أنفسهم إلى الوغد الذي يريح مؤخرته على مقعد مكتبي ذي ذراعين، متذرعين بعظمة، مثل الأباطرة الوحيدين والقساة. تخيلوا أنفسهم مرة أخرى في غرفة ضخمة ذات جدران زجاجية، تتوسطها طاولة مستديرة. اقتربت سكرتيراته الأربعة بأوراق في أيديهن وريش خلف آذانهن للتشاور معه، بينما كان مندوبو العمال في الزاوية، والقبعات في أيديهم

ورؤوسهم الرمادية منحنية. والتفت أردوسين إليهم وقال ببساطة: «إما أن يعودوا إلى العمل غداً أو نطلق النار عليهم». هذا كل شئ. تكلم قليلاً وبصوت منخفض، وذراعه تعبت من توقيع المراسيم. لقد ظل على قيد الحياة بسبب ضراوة الأوقات التي احتاجت إلى روح النمر لتزين حدود كل شفق الإعدامات الشريرة.

كان يتقدم الآن نحو فيلا المُنَجِّم بقلبه يملؤه الحماس، مكرراً عبارة لينين لنفسه، مثل مقطوعة موسيقية صغيرة مليئة بالحيوية: «يا لها من ثورة شيطانية، إن لم نغتل أحداً ما!».

عندما وصل إلى الفيلا وخلال فتح أحد الأبواب، رأى المُنَجِّم قادماً لمقابلته، مغطى برداء رمادي طويل وقبعة من القش.

بصداقة شدَّا على يدي بعضهما البعض بقوة في نفس الوقت قال المُنَجِّم:

بارسوت هادئ، أتعلم؟ أعتقد أنه لن يبدي مقاومة كبيرة حتى يوقع على الشيك. هؤلاء الرجال موجودون هنا، لكن أولاً سنرى بارسوت. بحق الجحيم! هل أنت على علم بوضعي؟ بهذه الأموال العالم ملكنا.

الآن دخلوا المكتب بينما يحرك المُنَجِّم خاتمه ذا الحجر البنفسجي ناظراً إلى خريطة الولايات المتحدة، ثم تابع:

ـ سنحتل الأرض، ونضع «فكرتنا» في طور التنفيذ... يمكننا إقامة بيت دعارة في سان مارتين أو سيوداديلا، أو مستعمرة لوس سانتوس في الجبل. من هو أكثر استعداداً لإدارة بيت الدعارة من الرفيان ميلانكوليك؟ سنسميه البطريرك الأكبر الداعر.

اقترب أردوسين من النافذة... يفوح من شجيرات الورد عطرٌ قويٌ وحادّ، وامتلأت المساحة بأكملها برائحة حمراء، منعشة مثل تيار الماء. يحوم سرب من الذباب المجنح الزجاجي حول البقع القرمزية للرمان. بقي أردوسين على هذا الحال لبضع ثوان. أعاده المنظر إلى

نفس فترة ما بعد الظهر التي كان فيها هناك، في نفس المكان. ومع ذلك لم يتخيل أن الليلة كانت تنتظره بمفاجأة رحيل إلسا.

اخترق الأخضرار متعدد الأشكال عينيه، لكنه لم يرَ أيّاً من ذلك. هناك في أعماق وجوده، بخدٍّ يرتكز على حلمات البنفسج لصدر ذكر مربع، كانت زوجته مترهلة، وعيناها متهدلتان، وشفتاها نصف مفتوحتين لتقبيل فم الشخص الآخر القذر.

مرَّ عصفورٌ أمام عينيه، فالتفتَ أردوسين نحو المُنَجِّم، وقال بصوت ناعم بقوة:

ـ يا رجل، افعل ما تراه صواباً. ثم جلس وأشعل سيجارة ونظر إلى الرجل الآخر الذي كان يرسم دائرة على خريطة زرقاء بواسطة بوصلة، سائلاً، «ولكن ماذا ستفعل؟» هل سيصلح الروفيان ميلانكوليك نفسه لإدارة بيوت الدعارة؟

ـ نعم، ليس هناك من داعٍ للقلق من ذلك، ولن يُبدي بارسوت أيَّ مقاومة بعد ذلك.

ـ هل سيمكث دائماً في المرأب؟

ـ اعتقدت أنه من الحكمة أن أختطفه. لقد قيدته بالسلاسل في الإسطبل.

ـ في الإسطبل؟

ـ كان المكان الوحيد المحكم الذي يمكنني الاحتفاظ به فيه.

بالإضافة إلى ذلك، في غرفة فوق المرأب ينام الرجل الذي رأى القابلة...

ـ ما هذا؟

في يوم من الأيام سأقص عليك ذلك. رأى القابلة ولا يستطيع النوم ليلاً. حسناً، كنت أعتقد أنك...

ـ كيف، هل سأكون أنا...؟

ـ دعني أتكلم. أن تذهب أنت إليه وتحاول إقناعه بالتوقيع، باختصار أنت تكشف له عن خططنا...

ـ سوف تضطر إلى إجباره على التوقيع بالقوة.

ـ ولكن، كيف؟ أنا، بالطبع، ضد العنف، لكنك تفهمني. فكرتنا هي قبل كل شيء عاطفية، وهذا ما يجب أن تبلغ بارسوت به، باختصار، أننا لا نريد أن نجد أنفسنا مضطرين إلى شُرب نخب قدميه أو شيء أسوأ من ذلك... حتى يوقِّع الشيك لنا.

ـ وهل أنت مستعد لفعل ذلك؟

ـ نعم، نحن على استعداد لأنه لا يمكننا تفويت هذه الفرصة الوحيدة. كنت أعتمد على اختراعك للوردة النحاسية، لكن هذا بطيء. ليس من المستحسن أن تطلب المال من الروفيان ميلانكوليك. إذا لم يكن لديه، فسوف نضعه في مأزق، وإذا كان يمتلكه ولم يرغب في إعطائنا إياه، فسوف نفقد صديقاً. فقط لأنه كان كريماً معك لا يعني أنه كريم معنا. بالإضافة إلى ذلك، فهو يعاني من وهن عصبي لا يعرف ما يفعله حياله.

نظر أردوسين إلى حديد النافذة على شكل مربعات، والبقع القرمزية على قمم الرمان الخضراء. وقد قطع شريطٌ أصفر من الشمس الجدار في الجزء العلوي من الغرفة. ثم مرَّ في قلبه حزن شديد. يتساءل ماذا الذي فعله بحياته؟

لاحظ المُنَجِّم صمته وقال:

ـ انظر، يا أردوسين. ليس لدينا خيار سوى مواجهة كل شيء أو الاستسلام. الحياة هكذا حزينة، لكن ماذا تريد منا أن نفعل؟ أعلم أيضاً أنه سيكون من الجيد القيام بأشياء دون تضحيات.

ـ والمشكلة الآنية أن الأضحية في هذه الحال شخص آخر.

ـ ونحن، يا أردوسين، ونحن الذين نجازف بحريتنا ومهددين بالسجن إلى أجل غير مسمى. ألم تقرأ «الحياة الموازية» لبلوتارخ؟

ـ لا.

ـ حسناً، سأعطيها لك حتى تتعلم من خلال قراءتها أن حياة الإنسان أقل قيمة من حياة الكلب، إذا أردت طباعة مسار جديد للمجتمع، عليك تدمير تلك الحياة. هل تعلم كم من جرائم القتل تكلف انتصار لينين أو موسوليني؟ الناس لم يعجبهم ذلك. لماذا لم يهتموا؟ لأن لينين وموسوليني انتصرا. هذا هو الشيء الأساسي، ما يبرر أي سبب ظالم أو عادل.

ـ ومن سيغتال بارسوت؟

ـ برومبيرج الذي رأى القابلة.

ـ أنت لم تخبرني.

ـ لم يكن هناك من داع، لأنه في هذا الجانب كل شيء قد تم حله.

نفخة من العطر تدفقت في الغرفة. أصبح صوت الماء المتساقط في البرميل أكثر وضوحاً.

ـ لذا نحن نعلم بالفعل الأمر.

ـ أنت وأنا وبرومبرغ.

ـ عدد كبير من الأشخاص على سر؟

ـ لا، لأن برومبيرج عبدٌ لي، بل هو عبدٌ لنفسه، وهذا أسوأ ما في الأمر.

ـ تماماً، لكنك ستعطيني وثيقة موقعة تعترف فيها أنت وبرومبرغ بارتكابكما الجريمة.

ـ ولماذا تريد ذلك؟

ـ للتأكد من أنك لا تخدعني.

بإشارة ميكانيكية، عدل المُنَجِّم من وضع قبعته العلوية، وأخذ وجهه المنغولي بين أصابعه السميكة، وسار إلى وسط الغرفة، هكذا، ومرفقه على راحة يده الأخرى، وقال: ـ ليس لدي مانع من إعطائك ما تطلبه، لكن لا تنس هذا. أنا أعيش حصرياً لتحقيق فكرتي. أوقات غير عادية قادمة. لم أستطع شرح كل العجائب التي ستحدث لأنني لا أملك الوقت أو الرغبة في الجدال. أوقات جديدة قادمة بالتأكيد. من سيتعرف عليها؟ هم المختارون. في اليوم الذي أجد فيه رجلاً قادراً على القيام بدورى ووضع الشركة على المسار الصحيح، سوف أتقاعد في الجبال للتأمل. إلى حين ذلك، يدين لي كل من حولي بالطاعة المطلقة. يجب أن تفهم هذا الأمر إذا كنت لا تريد أن تتبع طريق الشخص الآخر.

ـ هذه ليست طريقة حوار.

ـ نعم، إنها طريقة حوار، لأنني سأوقع لك على المستند الذي تطلبه.

ـ لست بحاجة إليه.

ـ هل ستحتاج المال؟

ـ نعم حوالي ألفي بيزو مقابل...

ـ لا تقل لي، سأعطيك المبلغ.

ـ أيضاً، لا أريد أن تكون لي أي علاقة بعمل بيوت الدعارة.

ـ حسناً، ستتولى أمر الحسابات، لكن هل تعرف الآن ما نحتاج إليه؟ هو اكتشاف علامة مبتذلة لجذب الجماهير.

ـ إبليس.

ـ لا، هذا رمز صوفي... فكري... عليك أن تكتشف شيئاً فظّاً وغبياً... شيء يتسرب داخل حواس الجمهور مثل القميص الأسود...هذا الشيطان لديه موهبة. اكتشف أن سيكولوجية الشعب الإيطالي كانت حالة نفسية للحلاق ومحتوى الأوبريت... على أي حال، سنرى، لدي بالفعل خطة هيكلية في الاعتبار، شيء مثير للاهتمام، سنتحدث عنه في يوم آخر. قد يُحدث...

ـ القضية هي أننا نستطيع أن نحافظ على أنفسنا.

ـ هذا غير موضوع بالاعتبار، ستعطي بيوت الدعارة، لكن هل ستذهب لترى بارسوت؟ هل تعرف ما عليك قوله؟

ـ نعم.

خرج أردوسين في اتجاه المرأب حيث تم بناء الاسطبلات. كان منزلاً بجدران سميكة وأرضية مرتفعة حيث توجد العديد من الغرف الفارغة التي تجري عبرها الجرذان.

يقطن في إحداها، أو بالأحرى، ينام الشرير برومبيرج، الذي رآه أردوسين يوم الاختطاف.

لقد علم أنه الآن في طريقه إلى الانهيار الذي معه لم يستطع أن يتخيل كيف ستنتهي حياته، وذلك الغموض، بالإضافة إلى عدم اكتراثه التام لمشاريع المُنَجِّم، أعطاه الانطباع بأنه كان يتصرف بشكل خاطئ، ووضع نفسه بلا مبرر في موقف سخيف.

قيل فيما بعد: «كل شيء تسبب في إفلاسي». لكنه تغلب على التعب واللامبالاة وسار نحو المرأب. كان قلبه ينبض عندما علم أنه سيلتقي «بالعدو».

على الفور تجعد جبينه وبدا عليه الاستياء.

فتح القفل وفك السلسلة وفجأة انتابته حالة من الغضب ودفع أحد مصراعي الباب.

كان السجين يستعد لتناول الطعام، وذراعاه مكشوفتان في دائرة الضوء الأصفر الذي ينشره مصباح الكيروسين على طاولة من خشب الصنوبر.

كان بارسوت جالساً تحت مثلث الكشك المعدني، بين الجدران الخشبية للصندوق، وعندما رأى أردوسين مجعداً جبهته، توقف لثانية عن سقاية قطعة لحم محاطة بالبطاطس بالزيت؛ ثم، دون أن ينبس ببنت شفة معبراً عن دهشته، انغمس مرة أخرى في عمله التنموي. فمد يده وأخذ قليلاً من الملح بين أصابعه، ورش البطاطس. كانت رباطة جأشه قاتمة على الرغم من وجود ثقب في قميصه الوردي أظهرَ إبطه الأسود.

عيناه المثبتتان على الطعام، أثبتت أن بارسوت أعطى طعامه أهمية أكبر من أردوسين، الذي هو واقف على بعد ثلاث خطوات. كان باقي الإسطبل يقبع في الظلام. دخلت أسياخ مائلة من ضوء الشمس عبر فجوات الجدران، تاركة أقراصاً ذهبية مسامية في الغبار على الأرض.

لم يحتج بارسوت لرؤية أي شيء. لقد ضغط الخبز على سطح الطاولة، وقطع منه شريحة بقوة، وصبَّ الصودا بنفسه، ليس من دون إلقاء القليل منها على الارض أولاً بهدف تنظيف الفوهة، ثم انحنى لقراءة كتاب على جانب صحنها، بينما يمضغ خليطاً من اللحم والخبز والبطاطس.

أسند أردوسين كتفه إلى عمود قائم يدعم السقف، وهو يشعر بالدوار من رائحة العشب الجاف، وبعيون ضيقة ميز بارسوت، الذي كان نصف وجهه مضاءً ساطعاً بسبب اخضرار لون النافذة، بينما كان فكّاه يتحركان في الضوء الخام الذي تصنعه شعلة المصباح. في ظل هذه الظروف، أدار رأسه وميَّزَ وجود سوطٍ معلّقٍ على الحائط.

كان أردوسين مذهولاً. كان له مقبض طويل وشريحة قصيرة، وتتبع بارسوت نظرته الآن، ثم ضمَّ شفتيه عابساً بازدراء. نظر أردوسين إلى الرجل والسوط على التوالي ومن ثم ابتسم مرةً أخرى. ذهب إلى الزاوية وأنزل السوط. الآن فقط نهض بارسوت واقفاً على قدميه وعيناه متصلبتان، يملؤهما الرعب، على أردوسين، الذي كان قد أخرج السوط من جرابه. كانت الأوردة في رقبته متسعةً بشكل غير عادي. كان على وشك الكلام، لكن الكبرياء منعه من النطق بكلمة واحدة. كان هناك صوت نقرة حادة. كان أردوسين قد هبط بالسوط على الخشب لاختبار مرونة الجلد، ثم هز كتفيه، واختُرق اللون الشمسي المائل الذي يشق الظلام بخط أسود اللون، ومن ثم سقط السوط على الهدف.

سرى أردوسين في الحظيرة في صمت. كان يعتقد أنه قد امتلك تلك الحياة في يديه، ولا يمكن لأحد أن يأخذها منه، لكن هذا الشعور لم يزد من شعوره بالسعادة. نظر بارسوت، فوق الحاجز الخشبي، إلى الحقل المشمس عبر الفجوة التي خلفتها البوابة.

لقد تغير الزمن. هذا كل شئ. نظر إلى بارسوت نظرة جانبية:

ـ هل ستوقع الشيك أم لا؟

هز بارسوت كتفيه وأردوسين لم يُعِد السؤال. ربما يوجد هو يوماً ما وفي نفس ذلك الوقت في زنزانة مظلمة بينما كانت ذاكرته من شأنها أن تثير في تلك اللحظة بالذات مشهد محكمة ذات أرضية ترابية من الطوب، على ضفة النهر، والمضارب تجعل السماء على شكل شبكي، من بعض الفتيات اللواتي يلعبن التنس. دون أن يكون قادراً على التحكم في نفسه، صرخ، ولم يخاطب بارسوت كثيراً، بل تحدث إلى نفسه: ـ هل تذكر؟ كان لدي وجه غير سعيد أمامك. لا تتكلم. وأنت لا تعرف مقدار ما كنت أعانيه. لا أنت ولا هي. أصمت. هل تعتقد أنني أهتم لأموالك؟ لا، يا رجل. ما هناك هو أنني حزين. لقد قدتني أنت وهي إلى كل هذا. لا أعرف حتى لماذا أتحدث. كل ما أعرفه هو أنني متعب. لكن لماذا الحديث إذاً. وكان على وشك المغادرة وفي نفس اللحظة دخل المُنَجِّم. فحص بارسوت يديه بنظرة خاطفة وقال المُنَجِّم، نازعاً القبعة العلوية عن رأسه، وقد أخذ المصباح، ثم أطفأه وجلس على

الدرج: «كنت قادماً لرؤيتك حتى نتمكن من حل مشكلة الشيك هذه. أنت تعرف أن هذا هو سبب اختطافنا لك. بالطبع، لم أكن لأتحدث إليك بهذه الطريقة إذا وجد في دفتر الملاحظات الذي وجدناه في جيبك والذي أراد أردوسين إحراقه، وإذا لم أمنعه أنا، لم أكن سأقرأ ببساطة هذه الفكرة الهائلة: «المال يجعل الإنسان إلهاً. ثم أن فورد هو إله. إذا كان إلهاً، يمكنه تدمير القمر».

كانت هذه كذبة، لكن بارسوت لم يتحرك.

حدق أردوسين في الوجه المعين الذي لا يمكن اختراقه للمنجم. كان واضحاً أنه كان يمثل تمثيلاً كوميدياًوأن بارسوت لم يؤمن به، واثقاً من أن الآخر كان يخدعه.

خطاب البستاني

تابع المُنَجِّم:

ـ في البداية، بدأت أظن بأن هذا الفكر أحد أكثر الأشياء غباءً التي تكثر في نوبات جنونك، ومع ذلك، انتهى بي الأمر بالتساؤل لا إرادياً لماذا يمكن للمال أن يجعل الإنسان إلهاً، وفجأةً نمى إلى إدراكي أنك قد اكتشفت حقيقة أساسية. وهل تعرف كيف تمكنت من إثبات أنك على حق؟ حسناً، التفكير في أن هنري فورد بثروته يمكنه شراء ما يكفي من المتفجرات لتفجير كوكب مثل القمر. كان افتراضك له ما يبرره.

تذمر بارسوت قائلاً: «بالتأكيد»، وقد شعر بالإطراء في أعماق قلبه.

ـ ثم أدركت أن كل العصور الكلاسيكية القديمة، أن كل الكتاب في كل العصور، باستثنائك أنت، الذي كتب هذه الحقيقة دون معرفة كيفية استغلالها، لم يتصوروا أبداً أن رجالاً مثل فورد أو روكفلر أو مورغان قادرون على تدمير القمر. تلك القوة... القوة التي، كما أقول، يمكن أن تنسب المعجزات إلى إله خالق فقط. وأنت، ضمنياً، كنت في الواقع تضع بداية حكم الرجل الخارق.

أدار بارسوت رأسه لتفحص المُنَجِّم. أدرك أردوسين عندها أنه كان يتحدث بجدية.

ـ الآن، عندما توصلت إلى استنتاج مفاده أن مورغان وروكفلر وفورد كانوا يتمتعون بالقوة التي منحت لهم بهذا المال قوى مثل الآلهة، أدركت أن الثورة الاجتماعية ستكون مستحيلة على الأرض لأن روكفلر أو مورغان يمكن أن يدمروا بإيماءة واحدة سباقاً، مثلك في حديقتك مع عش النمل.

ـ ما دامت لديهم الشجاعة لفعل ذلك.

ـ شجاعة؟ تساءلت عمّا إذا كان من الممكن أن يتخلى الإله عن صلاحياته. تساءلت إذا كان ملك من النحاس أو البترول سيسمح لنفسه بالتجرد من أساطيله وجباله وذهبه وآباره، وأدركت أنه كي يحرم شخص نفسه من كل ذلك يجب أن يتمتع المرء بنفسه في هذا العالم الرائع بروحانية بوذا أو المسيح، وأنهم، الآلهة الذين لديهم كل القوى، لن يسمحوا أبداً بامتعاضهم. إلا وبالتالي، يجب أن يحدث شيء ضخم.

ـ لا أراه، لقد كتبت هذا الفكر مسترشداً بمعطيات أخرى.

ـ لا فائدة كبيرة. الأهم هو هذا: البشرية، فقد قاطنو العديد من الأراضي الشاسعة دينَهم. لا أقصد الكاثوليكية. أعني كل العقائد اللاهوتية. ثم سيقول الأشخاص: «ما الذي نريد الحياة من أجله؟»، لن يهتم أحد بالحفاظ على وجودٍ ذي طابعٍ آليٍّ، لأن العلم قطع كل إيمان. وفي اللحظة التي تحدث فيها مثل هذه الظاهرة، سيظهر طاعون غير قابل للشفاء على الأرض؛ وباء الانتحار. هل يمكنك تخيُّل عالمٍ من الناس الغاضبين، ذوي جماجم خالية، يتحركون في مترو أنفاق المدن العملاقة ويعوون في الجدران الخرسانية المسلحة: «ماذا فعلوا بإلهنا؟»، وتنظم الفتيات والتلميذات جمعيات سرية لتكريس أنفسهن لرياضة الانتحار؟ والرجال يرفضون إنجاب الأطفال الذين اعتقد بيرثيلوت المخادع أنهم سيتغذّون على حبوب اصطناعية؟

قال أردوسين: «الكثير من التخمين».

التفت إليه المُنَجِّم بدهشة. كان قد نسيه.

ـ بالطبع لن يحدث ما دام البشر لا يلاحظون ما يعتمد عليه بؤسهم.

هذا ما حدث بالفعل مع الحركات الثورية ذات الطابع الاقتصادي. وضعت اليهودية أنوفها بالقرب من ديون وائتمانات العالم وقالت: «السعادة أصبحت مفلسة لأن الإنسان يفتقر إلى المال لسدّ احتياجاته منها»، عندما كان يجب أن تقول: «السعادة أصبحت مفلسة لأن الإنسان ابتعد عن الإله والإيمان».

«لكنك تناقض نفسك!» قلت قبل أن تقول ذلك...

اعترض أردوسين.

ـ اصمت، ما يدريك أنت؟ ومن ثم فكرت، وتوصلت إلى استنتاج مفاده أن هذا هو المرض الميتافيزيقي الرهيب لكل إنسان. تعتمد سعادة البشرية فقط على الأكاذيب الميتافيزيقية؛ إذا ما حرمناها من تلك الأكاذيب، فإنها ترتد إلى أوهام ذات طبيعة اقتصادية، ثم تذكرت أن الأشخاص الوحيدين الذين يمكنهم استعادة الجنة البشرية المفقودة هم آلهة اللحم والدم: روكفلر، مورغان، فورد.

وقد تصورت مشروعاً يمكن أن يبدو رائعاً لعقل متوسط المستوى، رأيت أن مأزق الواقع الاجتماعي لم يكن له سوى مخرج واحد، وكان ذلك هو العودة.

جلس بارسوت، وهو يطوي ذراعيه، على حافة الطاولة.

كانت حدقتاه ذاتا اللون الأخضر متيبّستين على المُنَجِّم، الذي كان، بردائه المغلقة أزراره حتى حلقه وشعره الهائج من حقيقة أنه خلع قبعته، كان يسير من أحد طرفي المرأب إلى الطرف الآخر، يمشي بعيداً مزيّلاً بيده سيقان العشب الجاف المغروس في الأرض. بينما

أردوسين، متكئ على عمود، يراقب وجه بارسوت ببطء، كان يتغلغل في نفسه اهتمام ساخر، وتشابه خبيث، كما لو أن الكلمات التي قالها المُنَجِّم، لا يستحقها هذا الأخير، كما لو كان يستمع إلى نفسه، يمشي، ويتوقف، مسح على الفور على رأسه. ثم قال: ـ نعم، سيأتي وقت عندما تكون الإنسانية المتشككة، المجنونة من الملذات، يحرقها العجز الجنسي، ستصبح غاضبة لدرجة أنه سيتوجب القضاء عليها مثل كلب مجنون.

ـ ما الذي تقوله؟

ـ ستكون عملية تقليم الشجرة البشرية كعملية حصاد لن يتمكن من القيام بها إلا أصحاب الملايين، معملين العلم في خدمتهم. الآلهة، التي سئمت من الواقع، وفقدت كل الأمل في العلم كعامل للسعادة، محاطة بعبيد من النمور، ستثير كوارث مروعة، وستنشر الأوبئة المهلكة.

خلال بضعة عقود من الزمن، سيتم تخصيص عمل الرجل الخارق وخدمه لتدمير الإنسان بألف طريقة، حتى يبقى العالم منهكاً، ولن يتم عزل سوى بقية صغيرة في جزيرة ما، وستكون الأسس التى يبنى عليها في مجتمع جديد.

نهض بارسوت واقفاً على قدميه، بجبين شرس، واضعاً يديه في جيوب بنطاله، ثم هز كتفيه، متسائلاً:

ـ لكن هل يعقل أن تؤمن بواقع هذا الهراء؟

ـ لا، هذا ليس بهراء، لأنني سألتزم به حتى لو كان من أجل المتعة.

وتابع:

ـ البؤساء، علينا أن نؤمن بهم، وهذا يكفي، لكن ها هي فكرتي: إن المجتمع سيتكون من طبقتين، تكون بينهما فترة فاصلة؛ بالأحرى اختلاف فكري لثلاثين قرناً. ستعيش الغالبية

بدقة في ظل الجهل المطلق، وتحيط بها المعجزات الملفقة، وبالتالي فهي أكثر إثارة للاهتمام من المعجزات التاريخية، وستكون الأقلية هي المنبع المطلق للعلم والسلطة. بهذه الطريقة، تكون سعادة الأغلبية مضمونة، لأن رجل هذه الطبقة ستكون له علاقة مع العالم الإلهي، الذي لا يؤمن به اليوم. سوف تقوم الأقلية بإدارة الملذات والمعجزات للقطيع، وسيكون العصر الذهبي، وهو العصر الذي كانت فيه الملائكة تجوب طرق الشفق وشوهدت الآلهة في ضوء القمر، سيصبح هذا حقيقة.

ـ ولكن هذا وحشيٌّ في حدّ ذاته. لا يمكن لذلك أن يحدث.

ـ لماذا؟ أعلم أنه لا يمكن أن يحدث ذلك، ولكن عليك المضيّ قدماً كما لو كان ذلك ممكناً.

ـ إن عدم التناسب... العلم...

ـ أي علم أو لا علم! في حال أنك تعرف ما هو العلم؟ ألا تسخر من الحكماء في تفكيرك ومن تسميتهم «مفتونون بالفناء»؟

ـ أرى أنك قرأت ذلك الهراء.

ـ بالطبع. لا يجب أن تختلف مع الناس لمجرد الاختلاف. والتفاوت الوحشي الذي تراه في مجتمعي موجود حالياً في مجتمعنا، لكن في الاتجاه المعاكس. معرفتنا، أعني أكاذيبنا الميتافيزيقية، ما زالت في مهدها، بينما عِلمنا عملاق، والإنسان مخلوق معذب يحمل بداخله هذا الخلل المخيف.

من ناحية يعرف كل شيء، ومن ناحية أخرى يجهل كل شيء. في مجتمعي الكذبة الميتافيزيقية، المعرفة العملية لإله رائع ستكون هي النهاية؛ الكل الذي سيملأ علم الأشياء بينما هو عديم الفائدة للسعادة الداخلية، ستكون في أيدينا وسيلة للسيطرة، لا شيء أكثر. ودعونا لا نناقش هذا، لأنه غير ضروري. تم اختراع كل شيء تقريباً، لكن الإنسان لم يخترع قاعدة حكم يستعاض بها عن مبادئ المسيح، بوذا. كلا، بالطبع لن أناقش الحق بالشك، لكن

الشك ترف الأقلية، بالنسبة للباقي، سنقدم السعادة مطبوخة جيداً وستلتهم البشرية باستمتاع البركة الإلهية.

ـ هل يبدو ذلك ممكناً بالنسبة لك؟

توقف المُنَجِّم للحظة. الآن أدار الحلقة الفولاذية ذات الحجر البنفسجي، ومن ثم خلع الخاتم من إصبعه لينظر إليه من الداخل؛ ثم اقترب منبارسوت، ولكن مع لفتة مفاجأة، مثلها مثل رجل يفكر في ما هو بعيد عن الواقع، ثم أجاب: ـ نعم، لو كان كل ما يتخيله عقل الإنسان يمكن أن يتحقق في الوقت المناسب. ألم يكن ليفرض موسوليني التعاليم الدينية في إيطاليا؟ أقتبس هذا لكم كدليل على فعالية السوط على ظهر الشعوب. السؤال هو السيطرة على روح جيل، والباقي سيحدث بمفرده.

ـ وماذا عن الفكرة؟

ـ ها قد أتينا، فكرتي هي تنظيم مجتمع سري لا ينشر أفكاري فحسب، بل هو أيضاً مدرسة لملوك المستقبل من الرجال. أعلم أنك ستخبرني أنه كان هناك العديد من الجمعيات السرية، وهذا صحيح، لقد اختفوا جميعاً لأنهم يفتقرون إلى أسس متينة، أي أنهم كانوا قائمين على شعور في مثالية سياسية أو دينية، مستبعداً كل الواقع الآني.

بدلاً من ذلك، سوف يقوم مجتمعنا على مبدأ أكثر صلابة وحداثة: الصناعة، أي إن الهودج سينطوي على عنصر من الخيال، إذا كان هذا هو ما تريد أن تطلقه على كل ما قلته، وهناك عنصر إيجابي آخر: التصنيع الذي سينتج بالتبعية الذهب.

ازدادت نبرة صوته قسوة. أضفت موجة من الضراوة نسبه معينة من الاستجماتيزم في نظره. هز رأسه الأشعث يميناً ويساراً، كما لو أن حدة المشاعر غير العادية كانت تحفز رأسه، واضعاً يديه على كليتيه، ثم كرر: ـ آه! ذهب! ذهب! هل تعلم ماذا أطلق الألمان القدماء على الذهب؟ الذهب الأحمر، الذهب، هل ترى ذلك؟ لا تفتح فمك. يا للشيطان!

لاحظ، أبداً، أبداً لم تحاول أي جمعية سرية إحداث مثل هذا الدمج. سيكون المال هو اللحام والثقل الذي يمنح الأفكار الوزن والعنف الضروريين لدفع الرجال إلى الأمام. سنذهب خاصةً للشباب لأنهم أكثر غباءً وحماسةً. نعدهم بإمبراطورية العالم والحب، نعدهم بكل شيء، هل تفهمني؟ وسنقدم لهم زيّاً موحداً ملوناً، وسترات رائعة، وأغطية للرأس مع ريش بألوان مختلفة، ومجوهرات، وبدايات بأسماء جميلة وتسلسل هرمي. وهناك على الجبل سنرفع المعبد من الورق المقوى، وسيكون ذلك لطباعة شريط. لا، عندما ننتصر سنبني معبد الأبواب السبعة من الذهب. ستكون به أعمدة من الرخام الوردي وممرات الوصول إليه ستكون مغطاة بحبوب من النحاس. سنبني حوله الحدائق، وهناك ستذهب البشرية لعبادة الإله الحي الذي اخترعناه.

ـ ولكن المال، المال لفعل كل ذلك، الملايين...

بينما كان يتحدث المُنَجِّم، طغى حماسه على أردوسين. الذي كان قد نسي أمر بارسوت، رغم أنه كان أمامه. رغماً عنه، استدعى أرضاً لذلك التجديد المحتمل. ستعيش البشرية في حفل دائم من البساطة، مجموعات من السترونتيوم ترصع الليل بشلالات النجوم الحمراء، والملاك ذو الأجنحة المخضرة يطل من على قمة سحابة، وتحت الأروقة النباتية للغابات كان الرجال والنساء ينزلقون، ملفوفون في ثياب بيضاء ويتم تنظيف القلب من القذارة التي تفوح منه رائحة كريهة. أغمض عينيه، وانسلخ وجه إلسا إلى ذاكرته، لكن لم يُثر أي صدى، لأن صوت المُنَجِّم ملأ المرأب بهذه النسخة المتماثلة الوحشية: «إذاً ما يهمك هو من أين نحصل على الملايين؟ هذا أمر سهل. سننشيء بيوت دعارة. الروفيان ميلانكوليك سيكون بطريرك الداعرين العظيم. كل أعضاء النزل ستكون لهم أسهم في الشركات. سنستغل الربا، والنساء، والأطفال، والعاملين، والحقول، والمجانين. في الجبال، سيكون في الحقل التشيلي، سنضع مغاسل الذهب، وستتم عملية التعدين بالكهرباء. أردوسين كان قد قام بالفعل بحساب توربين بقوة 500 حصان. سنقوم بإعداد حامض النيتريك عن طريق امتصاص النيتروجين من الغلاف الجوي من خلال إجراء القوس الكهربائي الدوامي وسيتم إنتاج الحديد والنحاس والألمنيوم من خلال الطاقة الكهرومائية. هل تدرك؟

سنخدع العمال ومن لا يريد العمل في المناجم سيُجلَد حتى الموت. ألا يحدث هذا اليوم في غران تشاكو، في يرباليس وفي مزارع المطاط والبن والقصدير؟ سنحيط ممتلكاتنا بالكابلات المكهربة وسنشتري جميع رجال الشرطة والمفوضين في الجنوب بعصير الكمثرى. الهدف هو أن نبدأ، لقد وصل المنقب عن الذهب بالفعل، ووجد ملذات في الريف التشيلي، يتجول مع عاهرة تدعى الماسك. علينا أن نبدأ. للكوميديا الإلهية سنختار مراهقاً، والأفضل أن نربي طفلاً يتمتع بجمال استثنائي، وننشر أخباراً عنه في كل مكان، ولكن مع شيء من الغموض، وسيضاعف خيال الناس هيبته. هل يمكنك أن تتخيل ما سيقوله حمقى بوينس آيرس عندما تنتشر الشائعات بأنه هناك في جبال تشوبوت، في معبد من الذهب والرخام يتعذر الوصول إليه، يوجد إله مراهق.

ـ هل أنت على علم أن هراءك هذا مثير للاهتمام!

ـ هراء؟ ألم يؤمنوا بوجود البليزوصور الذي اكتشفه رجل إنجليزي مخمور، وهو الساكن الوحيد في نيوكين الذي لم تسمح له الشرطة باستخدام مسدس بسبب بشاعة تصويبه؟ ألم يؤمن سكان بوينس آيرس بالقوى الخارقة للطبيعة لدجال برازيلي وعد بعلاج شلل أورفيليا ريكو بطريقة إعجازية؟ كان هذا بالفعل مشهداً بشعاً بدون أي بادرة للتفكير. مع عدد لا يحصى من البكّائين يصرخون بصوت عالٍ عندما يرفع المتورط ذراع المريضة، التي لا تزال مشلولةً، مما يبرهن على أن الرجال في ذلك التجمع ومن جميع الأجيال لديهم حاجة مطلقة للإيمان بشيء ما. بمساعدة بعض الصحف، صدقوني، سنفعل المعجزات. هناك العديد من الصحف التي تتدافع على بيع أو نشر خبر عن علاقة مثيرة. وسنعطي كل المتعطشين للعجائب إلهاً رائعاً، مزيناً بقصص يمكننا نسخها من الكتاب المقدس... تخطر ببالي فكرة: سنعلن أن الشعار هو المسيح الذي تنبأ به اليهود. فكر في هذا، سنلتقط صوراً لإله الغابة، يمكننا طباعة شريط فيلم به معبد من الورق المقوى في خلفية الغابة، حيث يتحدث الإله مع روح الأرض.

ـ لكن، هل أنت ساحر أم مجنون؟

نظر أردوسين بمزاج سيئ إلى بارسوت. هل كان من المحتمل أنه كان غبياً جداً وغير حساس للجمال الذي كان يزين مشاريع المُنَجِّم؟ وفكر: هذا الوحش الشرير يحمل حسداً بداخله للآخر على جنونه الرائع. إنها الحقيقة، ليس هناك من بديل عن قتله.

ـ كلا الأمرين، وسنختار مسمى وسط بين كريس نامورتيور ودولفو فالنتينو، لكن أكثر صوفية، أو مخلوقاً ذا وجه غريب يرمز إلى معاناة العالم. ستُعرض شرائطنا في الأحياء الفقيرة والضواحي. هل يمكنك أن تتخيل الانطباع الذي سيتركه مشهد الإله الباهت الذي يرفع رجلاً ميتاً على الجمهور، مشهد المغاسل الذهبية مع رئيس ملائكة مثل جبرائيل يحرس القوارب المعدنية والعاهرات اللواتي يرتدين ملابس أنيقة على استعداد ليَكُنَّ زوجات الرجل البائس الأول الذي يصل؟ سيكون هناك الكثير من المتقدمين للذهاب واستغلال مدينة ملك العالم والاستمتاع بمتع الحب الحر، من بين تلك السلالة سنختار غير المتعلمين، وفي الأسفل سنثني عمودهم الشوكي جيداً بالعصيّ، مما يجعلها تعمل عشرين ساعة في غرف الغسيل.

ـ لقد آمنت بأنك عامل.

ـ عندما أتحدث إلى أحد من الطبقة الكادحة سأكون أحمر. الآن أتحدث إليك، وأقول لك: مجتمعي مستوحى من المجتمع الذي نظمه في بداية القرن التاسع لصٌّ فارسيٌّ اسمه عبد الله بن ميمون. بطبيعة الحال، بدون الجانب الصناعي الذي أقوم بعرضه في مجتمعي، والذي يضمن نجاحه بالضرورة.

أراد ميمون دمج المفكرين الأحرار والأرستقراطيين والمؤمنين من عرقين مختلفين مثل الفارسي والعربي، في طائفة زرع فيها درجات مختلفة من التنشئة والألغاز. لقد كذبوا بشكل صارخ على الجميع. لقد وعدوا اليهود بوصول المسيح، والمسيحيين بوصول الباراكليت، والمسلمين وعدوهم بقدوم المهدي، بطريقة تجعل حشداً من الناس من مختلف الآراء والأوضاع الاجتماعية والمعتقدات يعملون في عمل لا يعرف غرضه الحقيقي إلا قلة قليلة. بهذه الطريقة يطمح ميمون إلى الهيمنة الكاملة على العالم الإسلامي. اعذرني إن

أخبرتك أن مديري الحركة كانوا متشائمين مذهلين، لم يؤمنوا بأي شيء على الإطلاق، ونحن سنقلدهم. سنكون بلاشفة، كاثوليك، فاشيين، ملحدين، عسكريين، بدرجات متفاوتة من التنشئة.

ـ أنت أكثر وحش وقاحةً قابلته... لو نجحت...

إهانة المُنَجِّم أضفت على بارسوت نشوة خاصة. لأنه لم يكن يريد أن يدرك أنه أدنى من الآخر. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك شيء أهانه بشدة، سيبدو كذبة، لكنه كان من المُشين الاعتقاد بأن أردوسين كان صديقاً وكان يتمتع بحميمية مثل هذا الرجل. وقال في نفسه: «كيف يمكن أن يكون هذا الأحمق صديقاً لمثل هذا الرجل؟» ولهذا السبب شعر أنه لا يوجد بداخله شعور سيّئ كي يتعارض مع كلام المُنَجِّم.

ـ سنفعل، لأن هناك طُعماً من الذهب. ستظهر نتائج منظمتنا من خلال الميزانيات العمومية التي تنتجها الأعمال التجارية التي نكتنفها. ستكون بيوت الدعارة مصدراً مدرّاً للمال. ابتكر أردوسين جهازاً يجعل من الممكن التحكم في عدد الزيارات التي تتلقاها كل عاهرة يومياً. هذا دون أن نضع في الاعتبار التبرعات، صناعة جديدة نخطط لاستغلالها: الوردة النحاسية التي اخترعها أردوسين. الآن يمكنك تفسير سبب اختطافنا لك.

ـ ما الذي يفعله التفسير إذا كنت سجيناً؟

في تلك اللحظة، لاحظ أردوسين في نفسه كم كان فريداً أن بارسوت لم يهدد المُنَجِّم في أيّ وقت بالانتقام في اللحظة التي كان فيها حراً، مما جعله يقول لنفسه: «عليك أن تكون حذراً مع يهوذا هذا، فهو قادر على بيعنا لا لماله بل للحسد». تابع المُنَجِّم: ـ سيتم استخدام أموالك في تركيب غرفة خلع الملابس، وتنظيم الوحدات الصغيرة، وشراء الأدوات، وتركيب خط الراديو والحصول على عناصر أخرى لغسيل الذهب.

ـ وأنت لا تعترف بأنك يمكن أن تكون مخطئاً؟

ـ نعم، لقد فكرت بالفعل في الأمر، لكنني مضيت منفذاً ما أنا على يقين منه. أيضاً، المجتمع السري هو مثل غلاية ضخمة. يمكن للبخار الذي تنتجه أن يحرك رافعة مثل المروحة...

ـ وأنت ما الذي ترغب في تحريكه؟

ـ جبل من اللحم الخامل. نحن كقِلَّة نريد، ونحتاج إلى امتلاك قوى الأرض الرائعة. نكون ممتنين إذا استطعنا من خلال جرائمنا ترويع الضعفاء وحشدالأقوياء. ولهذا أمسى ضرورياً خلق القوة وإحداث ثورة في الضمائر وتمجيد البربرية. هذا العامل ذو القوة الغامضة والهائلة الذي سيثير كل هذا سيكون المجتمع. سننشئ عربات الإيمان، سنحرق أولئك الذين لا يؤمنون بالله أحياء في الساحات. كيف يعقل أن الناس لم يدركوا الروعة الخارقة للعادة الكامنة في مثل ذلك الفعل؛ في حرق اسم حي؟ بسبب عدم الإيمان بالله، هل تفهم؟ لعدم الإيمان بالله. يجب عليك أن تفهمني، إنه من الضروري للغاية أن يكون ملف الدين الكئيب والضخم يعيد تحفيز قلب البشرية. آمل أن يركع الجميع على ركبهم كلما مر القديس، وأن تضيء صلاة الكاهن الأصغر معجزة في سماء المساء. آه، إذا كنت تعرف فقط عدد المرات التي فكرت في هذا! وما يحفزني هو معرفة أن حضارة وبؤس القرن قد أصابا الكثير من الرجال بحالة من الاختلال. لحظات الجنون تلك التي لا تجد طريقها في المجتمع هي مجهود ضائع. في مقهى الحي الأكثر شناعة، من بين كل شخصين بسيطين وساخرين ستجد ثلاث عباقرة. هؤلاء العباقرة لا يعملون، إنهم لا يفعلون شيئاً. أتفق معك في أنهم عباقرة القصدير، لكن هذا القصدير هو طاقة يمكن استخدامها بشكل جيد كأساس لحركة جديدة وقوية. وهذا هو العنصر الذي أريد استخدامه.

ـ ستكون مدير المجانين؟

ـ تلك هي العبارة. أريد أن أكون مدير المجانين، العباقرة المشكوك فيهم الذين لا يمكن إحصاؤهم، وغير المتوازنين الذين ليس لهم دخول إلى المراكز الروحانية والبلشفية، هؤلاء الحمقى، وأنا أقول لك من واقع خبرتي إنهم مخدوعون حتى النخاع، على درجة عالية من التحفز، فهم قادرون على القيام بأفعال من شأنها أن تصيب جلدك بالقشعريرة. أسِرَّة

بطابقين. سيكون مخترعو الحي، وأنبياء الرعية، وسياسيو المقاهي، وفلاسفة مراكز الترفيه، سيكونون حشواً لمدافع مجتمعنا.

كان أردوسين يبتسم. ثم قال دون أن ينظر إلى الرجل المقيد:

ـ أنت لا تعرف مقدار الوقاحة التي لا تطاق لعبقرية الحدود.

ـ نعم، ما دامت غير مفهومة، أليس هذا صحيحاً يا بارسوت؟

ـ أنا لست مهتماً.

ـ يجب أن تكون مهتماً لأنك ستكون واحداً منا، أنا أعتقد ذلك. إذا قيل لحدودي أنه ليس عبقرياً، فإن كل الإساءة والوقاحة التي بسبب سوء فهم هذا الشخص ستتسبب في ضررٍ لك. ولكن بشكلٍ منهجيٍّ يمكن أن يُثني على وحش حب الذات، حينئذٍ هذا الرفيق الذي كان سيقتلك عند أدنى اختلاف يُصْبِح خادمك. ما تحتاج إلى معرفته هو تزويدهم بكذبة هي مداواة كافية، سواء مخترع أو شاعر هو خادم لك.

ـ هل تعتقد أيضاً أنك عبقري؟ انفجر بارسوت بغضب.

ـ أعتقد أنني عبقري أيضاً، بالطبع أفعل، لكن لمدة خمس دقائق ومرة واحدة فقط في اليوم، على الرغم من أنني لا أهتم ما إذا كنت كذلك أم لا. تعتبر العبارات قليلة الأهمية لمن هم مكرَّسون للأفعال. إن العبقرية الحدودية هم ما تُسمن بكلمات عديمة الجدوى. لقد طرحت على نفسي هذه المشكلة التي لا علاقة لها بظروفي الفكرية. هل من الممكن جعل الرجال سعداء؟ أنا أبدأ بالاقتراب من التعساء، وأعطيهم عن طريق تحديد أهدافهم كذبة تجعلهم سعداء من خلال تضخيم غرورهم. وهؤلاء الشياطين الفقراء الذين باعوا أنفسهم ما كانوا ليتجاوزوا سوء الفهم، سيكونون المادة الخام التي سننتج بها القوة؛ البخار.

ـ إنك تراوغ في الحديث. أسألك ما هي الغاية الشخصية التي تسعى وراءها في الرغبة في تنظيم المجتمع.

ـ سؤالك هذا غبي. لماذا اخترع أينشتاين نظريته؟ حسناً، قد يستمر العالم بدون نظرية أينشتاين. هل أعرف ما إذا كنت أداة للقوى العليا، التي لا أصدق عنها كلمة واحدة؟ أنا لا أدرك أي شيء. إن العالم غامض. ربما أنا لست أكثر من الخادم، الخادم الذي يجهز بيتاً جميلاً يموت فيه المختار، القديس.

ابتسم بارسوت بشكل غير محسوس. هذا الرجل بأذنيه الممتلئتين وشعره الأشعث ومرتدياً مئزر نجار والذي يتحدث عن الشخص المختار قد ترك انطباعاً ساخراً لا يمكن تحديده عليه. إلى أي مدى كان هذا الوغد يتظاهر؟ والشيء الغريب أنه لا يستطيع أن يغضب عليه، فقد سيطر عليه إحساس غير محدد، ما قاله لم يكن غير متوقع، لكن بدا أنه سمع تلك العبارات، بنفس نبرة الصوت، في ظرف آخر بعيد، مثل تيهٍ في مشهد رمادي لحلم ما.

أصبح صوت المُنَجِّم أقل إلحاحاً.

ـ صدقني، هذا هو الحال دائماً في أوقات القلق والارتباك. يتواجد لدى القلة القليلة الحدس بأن شيئاً هائلاً يجب أن يحدث؛ أولئك هم ذوو البصيرة، أنا جزء من تلك النقابة من المتوقَّعين، وهم يؤمنون بواجب إثارة ضمير المجتمع لفعل شيء على الرغم من أن هذا الشيء هو الهراء نفسه، إن الشيء الخاص بي في هذا الموقف هو المجتمع السري. الإله العظيم! هل يعرف الإنسان عواقب أفعاله؟ عندما أفكر أنني سأبدأ عالماً من الدمى، الدمى التي ستتكاثر، أرتجف، حتى أنني أعتقد أن ما يمكن أن يحدث هو غريب عن إرادتي مثل ما يمكن أن يحدث لإرادة مالك محطة توليد الكهرباء رأى المعادلات البوهيمية التي يرسمها على السبورة فني كهربائي أصيب بالجنون فجأة، وعلى الرغم من ذلك، أشعر بالحاجة المُلِحَّة لبدء هذا، لأجمع في حزمة واحدة القوة المشوهة لمئات من علوم النفس المختلفة، لمواءمتهم من خلال الأنانية والغرور والشهوات والأوهام، واضعاً كقاعدة أساسية الكذب وباعتبارها ذهب الواقع؛ الذهب الأحمر.

ـ أنت محق، ستنجح.

ـ حسناً، ماذا تتوقع مني الآن؟ ردَّ بارسوت.

ـ أخبرتك من قبل. دعونا نوقع الشيك بمبلغ سبعة عشر ألف بيزو. ستتبقى لديك ثلاثة آلاف. مع ذلك يمكنك الذهاب إلى الجحيم. وسندفع الباقي على أقساط شهرية مع عائدات بيوت الدعارة والمغاسل.

ـ وهل سأخرج من هنا؟

ـ بمجرد صرف الشيك.

ـ وكيف تثبت لي أن هذه هي حقيقتك؟

ـ بعض الأشياء لا يمكن إثباتها، ولكن بما أنك طلبت مني برهاناً، فسأخبرك: إذا رفضت التوقيع على الشيك، فسأجعل الرجل الذي رأى القابلة يتولّى تعذيبك، وبعد أن توقِّع لي على الشيك، سأقوم بقتلك.

رفع بارسوت عينيه عديمتي اللون، والآن بدا وجهه ذو اللحية صاحبة الثلاثة أيام من العمر مغطى بضباب نحاسي. أقتلك! لم تؤثر الكلمة عليه. في ذلك الوقت لم يكن لها أي معنى. إلى جانب ذلك، لم تكن الحياة تهمه كثيراً. لقد انتظر لوقت طويل وقوع كارثة؛ وها قد حدث ذلك، وبدلاً من أن يطارده الشعور بالرعب، وجد في نفسه لامبالاة ساخرة تتجاهل أي قدر.

ثم تابع المُنَجِّم:

ـ لكني لا أرغب في الوصول إلى ذلك، ما أريده هو الحصول على مساعدتك الشخصية، أن تهتم بمشاريعنا. صدقني، نحن نعيش في أوقات عصيبة. من يجد الكذبة التي يحتاجها الجمهور سيكون ملك العالم. كل الناس يعيشون في كرب: الكاثوليكية لا تُرضي أحداً،

والبوذية لا تصلح لمزاجنا الذي تدمره الرغبة في الاستمتاع. ربما سنتحدث عن لوسيفر ونجمة المساء. ستضيف أنت لأحلامنا كل الشعر الذي تحتاجه، وسنخاطب الشباب. أوه، هذا كبير جداً! كبير جداً!

سقط المُنَجِّم على المقعد. كان مرهقاً. مسح العرق عن جبهته بمنديل منقوش مثل منديل المزارعين، وخيمت لحظة صمت على ثلاثتهم.

فجأة قال بارسوت:

ـ نعم، أنت على حق، إنه لأمرٌ جلل.

ـ فك قيدي حتى أتمكن من توقيع الشيك لك. كان يعتقد أن كل كلمات المُنَجِّم كانت أكاذيب، وكاد أن يفقده.

استقام المُنَجِّم متأملاً:

ـ عذراً، سأطلق سراحك بعد أن أصرف الشيك. اليوم هو الأربعاء. غداً عند الظهيرة، يمكنك أن تكون حراً، لكن منزلنا لن تكون قادراً على مغادرته إلا في غضون شهرين، قال هذا لأنه لاحظ أن الآخر لا يؤمن بمشاريعه. ألا تحتاج شيئاً لهذا المساء؟

ـ لا.

ـ جيد، أراك لاحقاً.

ـ ولكن هل ستغادر هكذا؟ انتظر.

ـ لا، أنا مُجهد. أحتاج إلى الحصول على بعض النوم. الليلة سوف آتي وسنتحدث أكثر قليلاً. هل تريد سجائر؟

ـ حسناً.

غادروا الإسطبل.

اضطجع بارسوت على سريره المليء بالعشب الجاف، وأشعل سيجارة، وأطلق أنفاساً من الدخان الذي طغى بحلزوناته الرائعة ذات اللون الأزرق الفولاذي على خيط شعاع الشمس. الآن وقد أصبح وحيداً، أتم ترتيب أفكاره بحرارة، حتى أنه قال لنفسه: لماذا لا تساعد «هذا الشخص»؟ المشروع الذي لديه للمستعمرة مثير للاهتمام، والآن فهمت سبب إعجاب هذا الوحش، أردوسين، به كثيراً. صحيح أنني بقيت في الشارع، ربما نعم، ربما لا، ولكن بطريقة أو بأخرى كان لا بد لهذا من نهاية. ثم أغلق عينيه ليتأمل المستقبل.

التفت المُنَجِّم، بقبعته على عينيه، إلى أردوسين وقال:

ـ بارسوت يعتقد أنه خدعنا. غداً بعد صرف الشيك سنضطر للتخلص منه.

ـ لا، سوف تضطر إلى تصفيته.

ـ ليس لدي مشكلة، لكن ماذا سنفعل؟ إذا ما أعطيناه الحرية فإنه سوف يُبْلِغ عنا على الفور. وهو يعتقد أننا مجانين! وبالفعل سنكون كذلك إذا تركناه حياً.

توقفوا عند المنزل. في الأعلى، كانت هناك بعض السحب المكسوة بالشوكولاتة تتحرك في زرقة السماء بسرعة على ارتفاع.

ـ من الذي سيقتله؟

ـ الرجل الذي رأى القابلة.

ـ أنت تعرف أنه ليس من اللطيف أن تموت وفصل الصيف على الأبواب.

ـ هذا بالضبط ليس أكثر من...

ـ وماذا عن الشيك؟

ـ سوف تقوم بصرفه أنت.

ـ ألا تخشى أن أهرب؟

ـ لا، ليس في الوقت الحاضر.

ـ لماذا؟

ـ لِمَ لا. أنت في حاجة أكثر من أي شخص بحاجة إلى أن يكون المجتمع غير مأهول. إذا كنت شريكي، فهذا بالضبط بسبب ذلك؛ بدافع الملل من المآسي.

ـ يمكن أن يكون هذا صحيحاً. في الغد في أيّ وقت نلتقي؟

ـ الساعة التاسعة بالمحطة. سأحضر لك الشيك. بالمناسبة هل لديك بطاقة هوية؟

ـ نعم.

ـ إذاً ليس هناك ما يجب أن نقلق بشأنه. آه! شيء واحد.

أحبِّذ أن تتحدّث قليلاً في الاجتماع وبهدوء.

ـ هل جميعهم هناك؟

ـ نعم.

ـ وحتى المنقّب عن الذهب؟

ـ نعم.

دفعوا الأغصان التي كانت في مواجهة رؤوسهم بعيداً، وتقدّموا نحو شرفة المراقبة. كان هذا كشكاً مصنوعاً من الفجايا، وعلى الألماسات الخشبية، أضاءت السيقان الخضراء لزهرة العسل المحمَّلَة بأجراس زرقاء وبيضاء أرجوانية.

القرعة

عندما دخلوا، نهضت دائرة الرجال على أقدامها، لكن أردوسين توقَّفَ في ذهول عندما لاحظ بين المجتمعين ضابطاً في الجيش يرتدي زيّ رائد. كان هناك المنقب عن الذهب، وهافنر، وشخص غريب، والرائد. الكوعان الأولان على الطاولة. هافنر يعيد قراءة بعض الأوراق الفارغة، المنقب عن الذهب أمامه خريطة. منع الحجر المختوم الريح من أن يتسبّب في تطاير الرسوم. صافح روفيان أردوسين وجلس أردوسين بجانبه، محدقاً في الرائد، الذي أثار فجأةً كل فضوله. حقاً كان المُنَجِّم سيّد المفاجآت.

ومع ذلك، فإن الغريب ترك لديه انطباعاً سيئاً.

كان هذا رجلاً طويل القامة، غاضب العينين مسودّهما. كانت تحيط به هالة مثيرة للاشمئزاز، وكانت الشفة السفلية مطوية في نوبة ازدراء مستمرة، الأنف طويل مقوَّس، ذو رقبة متجعدة فوق الصدر بثلاث شقوق عرضية. يتدلَّى شارب حريري على شفتيه الحمراوين وبالكاد ثبتت نظرته على أردوسين، فبمجرد تقديمه إليه سقط على أرجوحة شبكية، وبقي رأسه على مسند الظهر، وسيفه بين ركبتيه ويطل على جبهته المسطحة جناح من الشعر المعلق.

وظل الجميع صامتين لبضع دقائق، ينظرون لبعضهم البعض بانزعاج واضح. كان المُنَجِّم جالساً على جانب واحد من مدخل شرفة المراقبة، أشعل سيجارة، وهو ينظر بشكل غير مباشر إلى «الرؤساء». لذلك دعاهم إلى الاجتماع في وقت لاحق.

فجأة رفع رأسه ناظراً إلى الرجال الخمسة الآخرين الذين كانوا أمام رأس الطاولة، وقال:

ـ لا أعتقد أنه من الضروري لنا أن نكرر ما نعرفه جميعاً واتفقنا عليه في اجتماعات خاصة. أي تنظيم مجتمع سري يتم دعمه من خلال مهن أخلاقية أو غير أخلاقية. جميعنا نتفق على هذا، أليس كذلك؟ ما رأيكم (أحب علم الجبر) لذلك أحب أن نطلق عليهم «خلايا»، الرؤساء المختلفون للمجتمع؟

قال الرائد: هذا ما يُطلقون عليه في روسيا. لن يتمكن أعضاء كل خلية من معرفة أعضاء الأخرى.

ـ كيف؟ ألا يعرف الرؤساء بعضهم البعض؟

ـ إن الذين لن يتعارفوا، أصر على قول ذلك، ليسوا الرؤساء، بل الشركاء.

قاطع المنقب عن الذهب:

ـ هكذا لن يكون متاحاً فعل أي شيء. ما الذي سيربط أعضاء الخلايا المختلفة؟

ـ لكن الواقع أن المجتمع هو نحن الستة.

ـ «لا يا سيدي، إن المجتمع هو أنا»، اعترض المُنَجِّم. «لنتحدث بجدية، سأخبرك أن الجميع هم المجتمع، دائماً مع وضع قيود بمقار القلق الذي سيعتريني».

تدخل الرائد قائلاً:

ـ أعتقد أن المناقشة لا ناقة منها ولا جمل، لأنني أفهم أنه سيكون لها تدرج مؤسس بطريقة تامة. كل ترقية ستجعل عضو الخلية على اتصال مع رئيس جديد. سيكون هناك الكثير من الترقيات بالإضافة إلى قادة الخلايا.

ـ كم عدد الخلايا الموجودة حالياً؟

ـ هم أربعة. سأكون مسؤولاً عن كل شيء، تابع المُنَجِّم. أنت، أردوسين، رئيس قسم الصناعة؛ المنقب عن الذهب ـ شاب قابع في زاوية الطاولة، أحني رأسه ـ سيكون مسؤولاً عن المستعمرات والمناجم؛ الرائد سيحول مجتمعنا إلى جيش، وهافنر سيكون رئيس بيوت الدعارة.

نهض هافنر صائحاً:

ـ آسف، لن أكون رئيساً لأي شيء. وجودي هنا مثل وجودي في أي مكان. الشيء الوحيد الذي أفعله لخدمتكم هو منحكم ميزانية ما وليس أكثر. إذا كنت سبب إزعاج لكم، يمكنني الانسحاب.

ـ صحح المُنَجِّم: «لا، ابق».

ـ جلس الروفيان ميلانكوليك مرة أخرى وخربش على الورقة بقلم رصاص. أُعْجِبَ أردوسين بوقاحته.

لكن من دون شك كان الرائد هو الذي يرتكز عليه انتباه الجميع ويثير فضولهم، مع هيبة زيّه وغرابة مجتمعه.

التفت إليه المنقب عن الذهب:

ـ كيف هذا؟ هل تأمل في تصفية مجتمعنا إلى جيش؟

كانوا جميعاً جالسين على كراسي بذراعين. كانت هذه مفاجأة اللقاء، الانقلاب الذي تمَّ إعداده في صمت. مما لا شك فيه أن المُنَجِّم كان يمتلك الأموال التي تجعله رئيساً. الشيء المؤسف أنه كان دائماً يبقي إجراءاته سرية. لكن أردوسين كان فخوراً بمشاركته معه في هذه المؤامرة. الآن كانوا جميعاً جالسين للاستماع إلى الرائد. الذي رمق المُنَجِّم بنظرة، ثم

قال: ـ أيها السادة سوف أتحدث إليكم بكلمات ثقيلة جداً. إذا لم يكن الأمر كذلك، فلن أكون هنا. هذا ما سيحدث: العديد من قوام جيشنا هم ضباط ساخطون. الأسباب لا تستحق الذكر الآن، ولن تكونوا مهتمين بها. إن الفكر «الديكتاتوري» والأحداث السياسية العسكرية في الآونة الأخيرة، وأنا أشير بحديثي إلى إسبانيا وتشيلي، جعلت العديد من رفاقي يعتقدون أن بلادنا يمكن أن تكون أيضاً بيئة خصبة للديكتاتورية.

انتابت الجميع دهشة غير عادية تسبَّبت في فتح أفواه الجميع. كان هذا أمراً غير متوقع.

أجاب الباحث عن الذهب:

ـ لكن هل تعتقد أن الجيش الأرجنتيني؛ أعني الضباط، سيقبلون بأفكارنا؟

ـ بالطبع سيقبلونها، ما دمتم على دراية بكيفية طلبها. أستطيع أن أتوقَّع أن هناك بالفعل عدداً أكبر من الضباط الذين تحطَّمت آمالهم أكثر مما تتوقّع على صخور النظريات الديمقراطية، بما في ذلك البرلمان. لا تقاطعني يا سيدي. تسعون بالمئة من نواب بلادنا أدنى منزلة في الثقافة من ملازم أول في جيشنا. يوماً ما قال سياسي متهم بالمشاركة في اغتيال أحد المحافظين بنجاح كبير: «لكي تحكم مدينة لا تحتاج إلى مهارات أكثر من مهارات رئيس مزرعة». وهذا الرجل قال الحقيقة بشأن أمريكتنا.

كان المُنَجِّم يفرك يديه بارتياح واضح.

تابع الرائد، بينما تصلَّبت نظرات الجميع عليه:

ـ الجيش هو دولة متفوقة في مجتمع أدنى، لأننا القوة الخاصة للبلد. ومع ذلك نحن خاضعون لقرارات الحكومة، ومن يشكل الحكومة؟ السلطة التشريعية والتنفيذية؛ أيّ رجال منتخبون من قبل الأحزاب السياسية. وأي ممثلين أيها السادة! أنت تعرف أفضل مما أفعل لكي تكون نائباً، يجب أن تكون لديك مهنة من الأكاذيب، وأن تبدأ كلجنة من الكسالى، وتساوم وتصنع حياة مشتركة مع الفشلة من جميع الأنواع، باختصار، بعيدة كل البعد عن

القانون والحقيقة. لا أعرف ما إذا كان هذا يحدث في بلدان أكثر تحضراً من بلادنا، لكن ها هو ذا. في مجلس النواب والشيوخ لدينا، هناك أفراد متهمون بالربا والقتل، وقطّاع طرق تم بيعهم لشركات أجنبية، وأفراد يجهلون تماماً أن البرلمانية هنا هي أكثر الكوميديا بشاعة التي يمكن أن تحط من قدر بلد ما. إن الانتخابات الرئاسية تجري برأسمال من أمريكا الشمالية، بعد أن وعدت بمنح امتيازات لشركة مهتمة باستغلال ثروتنا الوطنية. لا أبالغ عندما أقول إن نضال الأحزاب السياسية في بلادنا ليس أكثر من صراع بين التجار الذين يريدون بيع البلد لمن يدفع أكثر.

حدق جميعهم في الرائد بدهشة. من خلال المعينات والأجراس الزرقاء، كان بإمكانك رؤية السماء الزرقاء في الصباح، لكن لم يلاحظها أحد. أخبرني أردوسين في وقت لاحق أن أيّاً من الحاضرين في اجتماع الأربعاء لم يتوقع مثل هذا المشهد المثير للاهتمام من أولئك الذين حضروا اجتماع الأربعاء. قام الرائد بتمرير منديل على شفتيه واستمر مسترسلاً: ـ أنا سعيد لأن كلماتي لاقت اهتماماً. هناك العديد من الضباط الشباب الذين يفكرون مثلي. حتى أن يشاركنا نفس التفكير بعض الجنرالات الجدد. إن الشيء الملائم، ولا تتفاجأوا بما سأقوله لكم، هو أن نضفي على المجتمع طابعاً شيوعياً تماماً. أقول لكم هذا لأن الشيوعية غير موجودة هنا، وتلك الكتلة من النجارين الذين يتحدثون عن علم الاجتماع في مبنى لا يخلع فيه أحد قبعته لا يمكن أن يطلق عليهم شيوعيّون. أود أن أشرح لكم تفكيري بوضوح؛ كل مجتمع سري هو سرطان في المجتمع، ووظائفه الغامضة تؤدي إلى عدم التوازن في أداء وظيفته. حسناً، نحن، قادة الخلايا، سنمنحهم شخصية بلشفية تماماً. كانت هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها نطق هذه الكلمة هناك، وكانوا جميعاً ينظرون إلى بعضهم البعض بشكل لا إرادي. هذا الجانب سوف يجذب العديد من المبالغة وبالتالي تكاثر الخلايا. وهكذا سنخلق هيئة ثورية وهمية.

سننمي بشكل خاص الهجمات الإرهابية. الهجوم الذي ينجح إلى حد ما يوقظ كل ضمائر المجتمع المظلمة والشرسة. إذا كررنا خلال فترة عام الاعتداءات مصحوبة ببيانات معادية

للمجتمع تحرض البروليتاريا على إنشاء «السوفيتين»، هل تعرف ما الذي سنحققه؟ إنه شيء مثير للإعجاب وبسيط.. خلق اضطرابات ثورية في البلاد.

«أود تعريف «التململ الثوري›› على أنه قلق جماعي لا يجرؤ على التعبير عن رغباته، ويشعر الجميع بالضيق والغضب، والصحف تثير العاصفة والشرطة تساعدهم باعتقال الأبرياء، الذين، بسبب المعاناة التي عانوا منها، أصبحوا ثوريين. الكل يستيقظ، الناس في الصباح متلهّفون على معرفة الجديد من الأخبار، ويتنبؤن بهجومٍ أكثر شراسة من الهجوم السابق، ومما يبرر تنبوءاتهم ظلم الشرطة الذي يُلهب أرواح من لم يعانِ منهم، ولم يبقى إلا أن شخصاً متهوراً يطلق النار من مسدسه على صدر شرطي، وتثور المنظمات العمالية وتعلن الإضرابات، وكلمتا الثورة والبلشفية تختزلان كل جوانب الحياة في الخوف والرجاء. والآن عندما تنفجر قنابل عديدة في جوانب المدينة وتُقرأ التصريحات وينضج القلق الثوري، فإننا حينئذ، نحن الجيش، سنتدخل...».

أبعَدَ الرائد حذاءَهُ عن شعاع الشمس، وتابع:

ـ نعم نحن الجيش سنتدخل. سنقول إنه في ظل قدرة الحكومة المحدودة على الدفاع عن مؤسسات الوطن ورأس المال والأسرة، استولينا على الدولة وأعلننا دكتاتورية مؤقتة. كل الديكتاتوريات مؤقتة لإيقاظ الثقة. سوف يعترف الرأسماليون البرجوازيون، وخاصة الحكومات الأجنبية المحافظة، فوراً بالوضع الجديد للأمور. سوف نلوم حكومة السوفييت على إجبارنا على اتخاذ مثل هذا الموقف وسنطلق النار على بعض الشياطين الفقراء المدانين والمعترفين بصناعة القنابل. سنلغي كلا المجلسين وسيتم تخفيض ميزانية الدولة إلى الحد الأدنى. توضع إدارة الدولة في يد الإدارة العسكرية. ستصل الدولة حينئذ إلى مستوى راق لم يسبق له مثيل.

صمت الرائد، وفي شرفة المراقبة المزهرة انفجر الرجال بالتصفيق، وطارت حمامة بعيداً.

ـ قال أردوسين: «فكرتك جميلة لكن الحقيقة أننا سنعمل لصالحك...».

ـ ألا تريدون أن تكونوا رؤساء؟

ـ نعم، لكن ما سنحصل عليه هو فتات المأدبة.

ـ لا يا سيدي، لقد اختلط عليك الأمر.

تدخل المُنَجِّم:

ـ أيها السادة، لم نجتمع لبحث التوجهات التي لا تهم الآن، ولكن لننظم نشاط قادة الخلايا. إذا كنتم على استعداد، فلنبدأ.

فتدخل في المناقشة شاب قوي كان صامتاً حتى ذلك الحين.

ـ أتسمحون لي بالحديث؟

ـ ولماذا لا.

ـ حسناً إذاً، أعتقد أن الأمر يجب أن يُطرح على هذا النحو: هل تريدون الثورة أم لا؟ ثم يجب أن تأتي تفاصيل المنظمة في وقت لاحق.

ـ نعم، نعم، لاحقاً، نعم، يا سيدي.

أنهى الغريب حديثه قائلاً:

ـ أنا صديق السيد هافنر. وأنا محامٍ. لقد تخليت عن الفوائد التي يمكن أن توفرها لي مهنتي لعدم التطبيع مع النظام الرأسمالي. هل لي أم ليس لي الحق في إبداء رأي كهذا؟

ـ نعم سيدي، إنه كذلك.

ـ حسناً إذاً، أؤكد لكم أن ما قاله الرائد يعطي توجهاً جديداً لمجتمعنا.

ـ اعترض المنقب عن الذهب قائلاً: لا، هذا يمكن أن يكون أساساً لها دون استبعاد مبادئها الأخرى.

ـ بالطبع.

ـ نعم.

سيتم تجديد المناقشة. نهض المُنَجِّم:

ـ أيها السادة، تناقشوا في يوم آخر. الآن الأمر يتعلق بتنظيم جدول الأعمال، وليس الأفكار. لذلك سنقمع كل ما يخرج عنها.

صاح المحامي: هذه هي الديكتاتورية.

نظر إليه المُنَجِّم للحظة ثم قال عمداً:

ـ أنت تشعر كأنك رئيس، حيال ما أعتقد، أعتقد أن الأمر كذلك. واجبك، إذا كنت ذكياً، هو تنظيم بعيد عنا؛ مجتمع آخر. وهكذا سوف نتسبب في انهيار النظام الحالي. هنا تُطِيعُني، أَو تَتقاعد.

تفحص الرجلان بعضهما البعض للحظة. نهض المحامي وثبَّتَ عينيه على المُنَجِّم وانحنى بابتسامة رجل قوي ومن ثم غادر.

وأنهى صوت الرائد صمت الجميع قائلاً للمنجم:

ـ لقد أبليت بلاءً حسناً. الانضباط هو أساس كل شيء. نحن نستمع إليك.

وضعت المعينات التي تمر عبرها أشعة الشمس فسيفساءها الذهبية على الأرض السوداء في شرفة المراقبة. على مرمى البصر، غرد سندان الحداد، وبدأ عدد لا يحصى من الطيور

في الإلقاء بزقزقاته بين الأغصان. اشتمَّ أردوسين زهرة العسل البيضاء، وحدّق المنقب عن الذهب، وقد جثا على ركبتيه، باهتمام في الأرض.

كان الروفيان يدخن وكان أردوسين يتلصص ناظراً إلى وجه المُنَجِّم المنغولي، بربانته الرمادية مغلقة إلى حلقه.

تبع هذه الكلمات صمت مزعج. ما الذي كان يبحث عنه هذا الدخيل هناك؟ وقف أردوسين فجأةً غاضباً، قائلاً:

ـ هنا سيكون هناك كل الانضباط الذي تريده، لكن من العبث أننا نتحدث عن دكتاتورية عسكرية.

لا يمكننا أن نهتم بالجيش إلا من خلال الانضمام إلى حركة دموية.

جلس الرائد في مقعده، ونظر إلى أردوسين، فقال مبتسماً:

ـ ثم تدرك أنني ألعب دوري بشكل جيد؟

ـ دور؟

ـ نعم يا رجل، أنا رائد مثلك.

ـ هل تدركون الآن قوة الأكاذيب؟ قال المُنَجِّم. لقد جعلت هذا الصديق يتنكر كرجل عسكري وها قد صدقتموه، على الرغم من أنه يكاد يكون سراً أن لدينا ثورة في الجيش.

ـ ثم؟

ـ لم يكن هذا أكثر من بروفة، لأننا سنقدم الكوميديا بجدية ذات يوم.

بدت الكلمات مهددة لدرجة أن الرجال الأربعة حدقوا في الرائد الذي قال:

ـ في الحقيقة أنا لست أكثر من رقيب.

لكن المُنَجِّم قاطع تفسيره قائلاً:

ـ صديق هافنر، هل لديك الميزانية؟

ـ نعم هنا.

طاف المُنَجِّم خلال أوراق التماثيل المبللة لبضع دقائق وشرح للجمهور:

ـ القاعدة الأكثر صلابة في الجزء الاقتصادي من مجتمعنا هي بيوت الدعارة.

تابع المُنَجِّم:

ـ لقد منحني السيد المحترم ميزانية تمكننا من إقامة بيت دعارة به عشر نساء. فيما يلي المصاريف التي سيتم تكبدها.

ثم قرأ:

ـ 10 أطقم غرف نوم بسعر 2000 دولار.

ـ إيجار المنزل 400 دولار شهرياً.

ـ وديعة ثلاثة أشهر 1200 دولار.

ـ تركيب مطبخ وحمامات وبار. 2000 دولار.

ـ رسم شهري للمفوض 300 دولار.

ـ رسم شهري للطبيب 150 دولار.

ـ رسم شهري للمدير السياسي مقابل الامتياز 2000 دولار.

ـ الضريبة البلدية الشهرية 50 دولار.

ـ بيانو كهربائي 1500 دولار.

ـ مدير 150 دولار.

ـ طهي 150 دولار.

المجموع: 9000 دولار.

ـ تدفع كل فتاة 14 بيزو في الأسبوع لتغطية نفقات الطعام ويتعين عليها شراء الأعشاب، والسكر، والكيروسين، والشموع، والجوارب، والمساحيق، والصابون، والعطور في المنزل.

ـ خارج جميع النفقات، يمكننا الاعتماد على دخل لا يقل عن ألفين وخمسمئة بيزو في الشهر.

في أربعة أشهر سنكون قد استعدنا رأس المال المستثمر. مع خمسين بالمئة من الدخل السائل، سنقوم بتركيب غرف خلع الملابس الأخرى، وسيتم استخدام 25 بالمئة لتغطية الديون، وسيتم استخدام الثلث الآخر لدعم الخلايا. هل توافقون جميعاً على صرف عشرة آلاف بيزو أم لا؟

أحنى الجميع رؤوسهم بالموافقة، باستثناء المنقب عن الذهب، الذي قال:

ـ من هو مراجع الحساب؟

ـ سيتم اختياره عند الانتهاء من كل شيء.

ـ حسناً.

ـ أنت أيضاً أيها الرائد؟

ـ نعم.

رفع أردوسين رأسه ونظر إلى الوجه الشاحب للرائد المزيف، الذي توقفت عيناه الشريرتان على فراشة بيضاء تحرك جناحيها باللون الأخضر، وهذه المرة لم يستطع إلا أن يخبر نفسه كيف كان من الممكن أن يحرك المُنَجِّم هؤلاء الكوميديين. لكن المُنَجِّم فسرها: ـ وأنت سيد أردوسين، كم تحتاج لتركيب ورشة الطلاء بالكهرباء؟

ـ ألف بيزو.

ـ «آه! هل أنت مخترع الوردة النحاسية؟»، قال له الرائد.

ـ نعم.

ـ أهنئك. أعتقد أن البيع سيكون ناجحاً. بطبيعة الحال، عليك أن تمعدن الزهور بكميات كبيرة.

ـ نعم هو كذلك. لقد فكرت في إضافة باقة التصوير الفوتوغرافي؛ ستوفر نفقات ورشة العمل.

ـ الأمر متروك لك.

ـ إلى جانب ذلك، لدي بالفعل صديق من أجل الطلاء بالكهرباء. عندما قال هذا، كان يفكر في عائلة إسبيلا، التي يمكن أن تدخل المجتمع السري بشكل جيد، لكن المُنَجِّم قاطع تأملاته قائلاً: ـ سيقدم لنا المنقب عن الذهب أخباراً عن المنطقة التي نخطط لتأسيس مستعمرتنا فيها، ونهض.

اندهش أردوسين وهو يفكر في اللياقة البدنية للآخر.

لقد تخيلته، حسب شرائع التصوير السينمائي، رجلاً ضخماً بلحية شقراء تفوح منه رائحة المشروبات. لم يكن هناك شيء من هذا القبيل.

كان المنقب عن الذهب شاباً في سنه، وكان جلده عالقاً في العظام البارزة لوجهه الشاحب للغاية، ذا عينان سوداوان مفعمتان بالحيوية. يبدو أن القفص الصدري الضخم يخص رجلاً ضَعُفَ نموه. كانت لديه أرجل رفيعة ومقوسة.

بين الحزام الجلدي وقماش البنطال، كان بإمكانك رؤية نهاية مسدس. كان صوته واضحاً، لكن كل شيء بداخله كان على شكل قارة غريبة، وكأن الرجل يتكوّن من أجزاء بشرية مختلفة تتوافق مع رجال من دول مختلفة.

وهكذا، كان وجهه هو وجه رجل البساط الذي اعتاد على التحديق خلف أوراق اللعب، وصدره صدر ملاكم، وله قدما فارس. وكان لديه القليل من تلك الفوضى، في ذلك الواقع الذي لا شكل له والذي تجاوز جسده. حتى عمر أربعة عشر عاماً كان يقطن في الريف، ثم أطلق النار على لص ما حتى الموت، وبعد ذلك دفعه الخوف من مرض الدرن إلى النزوح إلى السهل وظل يركض أياماً ولياليَ في مساحات لا تصدق. تعاطف أردوسين معه فور التعرف عليه.

كشف المنقب عن الذهب عن بعض الأحجار التي كانت قطعاً من الكوارتز الذهبي، ثم قال:

ـ هنا لديكم شهادة تحليل من إدارة المناجم والهيدرولوجيا. انتقلت الأحجار بسرعة من يد إلى أخرى. امتلأت العيون بنهم غير عادي، بينما تتلألأ أطراف الأصابع بالبهجة مع الكوارتز ذي المقاييس والطعوم المضغوطة من الذهب. المُنَجِّم، وهو يضاجع سيجارة ببطء، تابع كل الوجوه التي تخلت عن روحها، وتسبب الإغراء في إثارة توترها الى أقصى الدرجات أثناء فحص الحجارة. جلس المنقب عن الذهب مرة أخرى وتحدث إلى الجميع: ـ يوجد الكثير من الذهب هناك. لا أحد يعرف به. إنه في الريف التشيلي. في البداية كنت في إسكويل. هناك آلات ملقاة بعيداً بعد عملية تنقيب باءت بالفشل، ثم ذهبت إلى أرويو بيثكادو، ثم

ذهبت. هناك، لا أعرف إذا كنتم على علم بذلك أم لا، الأيام لا تُحسب، ثم دخلت إلى الحقل التشيلي. الغابة، غابة نقية من آلاف الكيلومترات المربعة. كنت برفقة لا ماسكارا، عاهرة من إسكويل كانت تعرف ثغرةً للدخول لأنها كانت في السابق مع عامل منجم كان قد قُتل عند عودته. حسناً، هناك الرجل يقتل مقابل لا شيء. كنت مصاباً بمرض الزهري وبقيت في الغابة. لا ماسكارا. نعم، أذكر ذلك! منذ عشرين عاماً، كانت تتسكع بهذه الأراضي. من بويرتومادرين تذهب إلى كومودورو، ثم إلى تريليو، ثم إلى إسكويل. قابلت جميع المنقبين عن الذهب. ذهبنا أولاً إلى أرويو بيثكادو؛ تقع على بعد أربعين فرسخاً جنوب إسكويل، لكن لم يكن هناك سوى القليل من الغبار على الرمال، ثم على ظهور الخيل تابعنا لمدة خمسة عشر يوماً ومن جبل إلى جبل وصلنا إلى الريف التشيلي.

بصوت واضح ثابت على موضوع الرواية، روى المنقب عن الذهب رحلته في الجنوب.عند الاستماع إليه، كان لدى أردوسين انطباع بأنه هو يرافق لاماسكرا، عابراً الوديان العملاقة السوداء والجليدية، المغلقة عند الحدود بالمزيد من الجبال التي على شكل مثلثات بنفسجية. اختفت الهضاب تحت التقدم الشاهق للغابة الدائمة من سيقان حمراء وأوراق شجر خضراء وسوداء، واستمرا في التقدم، تتملكهما الدهشة، تحت الفضاء الفسيح الأملس مثل صحراء الجليد السماوي.

بإيماءات بطيئة، وغير مبالية بالدهشة التي أثارتها قصته، روى المنقب عن الذهب مغامرته الأشهر. كلهم استمعوا إليه بانهماك. ثم ذات صباح جاء إلى الممر الأسود. كانت عبارة عن دائرة من الحجر الأسود، البازلتي، يتوِّجه رصيف منحنٍ من الصواعد الداكنة، حيث أصبح الفضاء السماويّ حزيناً بلا حدود. اصطدمت الطيور المتجولة بالكتل الحجرية، أثناء طيرانها، التي تظللها دوائر أخرى من الجبال العالية. وفي قاع تلك البركة، توجد بحيرة من ماء الذهب، حيث تتدفق تيارات من الشلالات غير مقيدة بالأدغال.

لم يذهب المنقب عن الذهب إلى مثل هذه الأماكن الشريرة أبداً. هذا العمق من الماء البرونزي الذي يعكس المنحدرات السوداء أوقفه في ذهول. كانت الجدران الحجرية

تتساقط بشكل عمودي، متناثرة مع الأورام اللحمية المخضرة والأفرع الطويلة، وفي تلك الخلفية البرونزية انعكس شكله الملتحي الباهت بقدميه نحو السماء.

خطر له في الحال أن الماء سيكون مصنوعاً من الذهب، لكنه رفض الفرضية باعتبارها فكرة عبثية، لأنه لم يقرأ أو يسمع شيئاً من هذا القبيل، واستمر في روايته: ـ لكن عندما عدت، وجدت نفسي ذات يوم في روسون أنتظر في غرفة طبيب الأسنان، خطر لي أن أتصفح مجلة تسمى «الأسبوع الطبي»، والتي كانت على إحدى الطاولات في الردهة، وهنا حدثت المعجزة. أفتح الكتيب بشكل عشوائي، وفي الصفحة الأولى ألقي نظرة على مقال بعنوان: «الماء الذهبي، أو الذهب الغرواني في علاج الذئبة الحمامية». بدأت القراءة ثم علمت أن الذهب عرضة للتعليق في الماء في جزيئات لا ترى بالعين المجردة، وأن هذه الظاهرة، التي كانت بالنسبة لي جديدة تماماً، اكتشفها الكيميائيون الذين أطلقوا عليها اسم «الماء الذهبي». لقد حصلوا عليها من خلال أبسط إجراء يمكن أن يتخيله المرء: عن طريق سكب قطعة ذهبية ملتهبة في مياه الأمطار. تذكرت على الفور البحيرة التي نسبت تلوينها إلى مواد نباتية. كنت، دون أن أدرك ذلك، بجوار بحيرة من الذهب الغرواني ربما تكون قد مرت عدة قرون على تكوينها بسبب مرور الماء على طول الأوردة. هل تدركون الآن ما هو الجهل؟ إذا لم ترمِ الصدفة بتلك المجلة بين يدي، لكنت تجاهلت إلى الأبد أهمية هذا الاكتشاف.

ـ قاطعه الرائد قائلاً: وهل عدت؟

ـ ولكن، بطبيعة الحال، عدت قبل ثمانية أشهر فقط من أجل هذا، كان ذلك عندما كتبت إليكم، لكنني ارتكبت خطأ ما. لا بد لي من دراسة طرق الاستخراج المعدني للذهب، توجد أيضاً ممرات هناك، هي مسألة مهنية. أحضر لنفسك بذلة، لأن قاع الماء ذهبي ولكن الماء نفسه ليس له لون.

قال هافنر:

ـ هل تعلم أن ما هو مثير للاهتمام في الأمر؟ بافتراض أنه لم يكن هناك ذهب، فهذا دائماً أكثر متعة من هذه المدينة القذرة. وأضاف الرائد: ـ إذا تم إنشاء المستعمرة في الريف التشيلي، فسيكون من الضروري وجود محطة تلغراف.

أجاب أردوسين:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فيمكن إنشاء محطة محمولة بطول موجي من 45 إلى 80 متراً. سيكلف الأمر خمسمئة بيزو وسيبلغ مداها ثلاثة آلاف كيلو متر.

مرةً أخرى تدخل الرائد:

ـ تأسيس المستعمرة في هذا الموقع له كل التأييد، لأنه يمكن تركيب مصنع الغازات الخانقة هناك. أنت، يا أردوسين، هل تعرف شيئاًعن هذا.

ـ نعم يمكن تصنيع القاذف كهربائياً، لكني لم أدرس أيّ شيء عنه، رغم أن الغازات الخانقة والمختبر البكتيري هي التي يجب أن تشغلنا مسبقاً بدرجة أكبر. خاصةً الطاعون الدبلي ومختبر الزراعة الميكروبية للكوليرا الآسيوي. يجب أن تحصل لنفسك على بعض البكتيريا «المعيارية»، والتي تتمثَّل ميزتها في الرخص المطلق للإنتاج.

تدخل المُنَجِّم:

ـ أعتقد أن الشيء الأكثر ملاءمة هو ترك تنظيم المستعمرة لوقت لاحق. في الوقت الحالي يجب أن نقتصر على تنفيذ مشروع هافنر. فقط عندما يكون لدينا تذاكر، سننظم المجموعة الأولى التي ستغادر إلى المستعمرة. هل أخبرتني يا أردوسين عن عائلة؟

ـ نعم؛ اسبيلا.

أجاب هافنر:

ـ يا لك من شيطان! يبدو لي أننا لا نفعل شيئاً أكثر من الكلام الفارغ. إذا كان حقيقياً قول إنني لست أكثر من مجرد مخبر بسيط في مجتمعك، فمن الواضح أنه لدينا بعض المشكلات التي يجب حلها.

نظر إليه المُنَجِّم ثم قال:

ـ هل أنت على استعداد لإعطاء المال للقيام بشيء ما؟ لا. حينئذٍ انتظر حتى يكون لدينا عاصمة، والتي لن تكون لدينا لفترة من الزمن، وبعد ذلك، سترى.

نهض هافنر ونظر إلى المنقب عن الذهب، فقال:

ـ انظر يا صديقي، عندما تكون مسألة المستعمرة جاهزة، أعلمني، وإذا كنت بحاجة إلى أشخاص، هم الأفضل على الإطلاق، فسأقدم لك مجموعة من الأوغاد الذين لن يجدوا مشكلةً في مغادرة بوينس آيرس، وارتداء قبعاتهم دون مصافحة أي شخص وإلقاء التحية على الجميع بإيماءة، وسيذهبون للخروج.حينئذٍ تذكَّر شيئاً ما، ثم صاح مخاطباً المُنَجِّم: إذا كنت في عجلة من أمرك للحصول على المال، فهناك بيت دعارة رائع للبيع. يحتوي على ملحق ومطعم لحوم، كما أنه يرتاده الكثيرون. مالكه من الأوروغواي ويطلب 15000 بيزو نقداً، لكن مع عشرة آلاف بيزو وخمسة آخرين في غضون عام، أعتقد أنه سيقبل.

ـ هل يمكنك المجيء إلى هنا يوم الجمعة؟

ـ نعم.

ـ حسناً، قابلني يوم الجمعة، أعتقد أنه يمكننا إصلاح الأمر.

ـ رائع.

ـ «سالو» (4)، تلك كانت الطريقة التي حيا بها روفيان، ثم غادر.

المنقّب عن الذهب

بعد مغادرة هافنر، ودَّع أردوسين، الذي كانت لديه رغبة في التحدث مع المنقب عن الذهب، المُنَجِّمَ والرائد. كان أردوسين قلقاً مرة أخرى. قبل المغادرة، قال له المُنَجِّم على جانب الحوار: ـ لا تنسَ غداً الساعة التاسعة، عليك صرف الشيك.

كان قد نسي «ذلك». فجأة نظر أردوسين حوله كما لو كان مذهولاً من ضربة. كان بحاجة للتحدث مع شخص ما. نسيان الواجب الأسود الذي سارع الآن بضرب عروقه تحت شمس الظهيرة الحارقة.

كان المنقب عن الذهب لطيفاً معه. ولهذا اقترب منه وقال:

ـ هل تريد أن تأتي معي؟ أود أن أتحدث إليك عن «الأسفل هناك».

نظر إليه الآخر بعينيه الصغيرتين اللامعتين، ثم قال:

ـ لماذا لا؟ بكل سرور. لقد كنت لطيفاً جداً معي.

ـ شكراً.

ـ خاصة بسبب ما قاله لي المُنَجِّم عنك. هل تعلم أن مشروعك في إحداث ثورة اجتماعية عن طريق ميكروب الطاعون هو مشروع هائل؟

رفع أردوسين عينيه. هذه الأفكار كادت تتسبب له بالإهانة. هل من الممكن أن يكون أحدهم قد أعطى أهمية للنظريات التي كان يفكر فيها؟

أصر المنقب عن الذهب:

ـ هذا والغازات الخانقة أمر مثير للإعجاب. أتدرك؟ ترك زجاجة فولاذية في قسم الشرطة، عندما يكون ذلك اللص من سانتياغو هنا! متسبباً في تسميم كل «الخيوط» مثل الفئران! وضحك بصوتٍ عالٍ لدرجة أن ثلاثة طيور أقلعت في رحلة قوسية كبيرة من شجرة ليمون. نعم يا صديقي أردوسين أنت عملاق. الطاعون والكلور. هل تعلم أننا سنحدث ثورة في هذه المدينة؟ أستطيع أن أتخيل الأمر في ذلك اليوم، يخرج التجار مثل الشينشيلا (5) من جحورهم خائفين وننظف كوكب القذارة باستخدام رشاش بسرعة مئتين وخمسين طلقة في الدقيقة. مجزرة.

ثم ستائر الكلور أو الفوسجين... آه! مشاريعك يجب أن تنشر في الصحف، صدقني.

قاطع أردوسين خطاب التأبين بهذا السؤال:

ـ إذاً لقد وجدت الذهب، أليس كذلك؟ الذهب...

ـ أفترض أنك لم تصدق رواية «الملذات» تلك.

ـ كيف رواية؟ إذاً الذهب...؟

ـ إنه موجود طبعاً هو موجود، لكن لا بد من إيجاده.

كانت خيبة أمل أردوسين عميقة للغاية لدرجة أن المنقب عن الذهب أضاف:

ـ انظر يا أخي؛ لقد تحدثت معك لأن المُنَجِّم أخبرني أنه يمكنني فعل ذلك.

ـ نعم، لكني ظننت...

ـ الذي.

ـ التي؟

ـ من بين الكثير من الأكاذيب، ستكون هذه إحدى الحقائق القليلة.

ـ في الخلفية، هذا صحيح. الذهب موجود، علينا أن نجده لا أكثر. كان يجب أن تكون سعيداً لأن كل شيء تم إعداده للبحث عنه. أو هل تعتقد أن تلك الحيوانات ستتحرك إذا لم يتم دفعها عن طريق بعض الأكاذيب غير العادية؟ آه! كم تماديت في التفكير. وهنا تكمن عظمة نظرية المُنَجِّم: لا يتحرك الرجال إلا بالكذب. يعطي الباطل ما يستحقه الحق؛ الناس الذين لم يمشوا قط لتحقيق أي شيء، فصائل دمرت بسبب خيبة الآمال، يتم إحياؤها بسبب أكاذيبهم. ربما تريد أنت شيئاً أكبر؟ عليك أن تلاحظ أنه في الواقع يحدث نفس الشيء ولا أحد يدينه. نعم، كل الأشياء عبارة عن مظاهر، أفهم؛ لا يوجد رجل لا يعترف بالأكاذيب الصغيرة الغبية التي تنظم كيفية عمل مجتمعنا.

ـ أي جرمٍ ارتكب المُنَجِّم؟ استبدل كذبة تافهة بكذبة بليغة وهائلة وعظيمة. المُنَجِّم بأكاذيبه لا يبدو رجلاً خارقاً، وهو ليس كذلك، وهو كذلك، هو كذلك؛ لأنه لا يستفيد شخصياً من أكاذيبه، وليس كذلك لأنه لا يفعل شيئاً سوى تطبيق مبدأ قديم تم استخدامه من قبل جميع المحتالين والذي حملوا على عاتقهم مهمة إعادة تنظيم البشرية. إذا كتب في يوم من الأيام تاريخ ذلك الرجل، فإن من سيقرؤه ولديه القليل من الدم البارد، سيقول: لقد كان عظيماً، لأنه وصل إلى ما وصل اليه أي دجال. وما يبدو لنا رومانسياً ومزعجاً ليس أكثر من قلق الأرواح الضعيفة والمتوسطة، التي تؤمن بالنجاح فقط عندما تكون وسائل تحقيقه معقدة وغامضة وليست بسيطة. ومع ذلك، يجب أن تعلم أن الأعمال العظيمة هي بسيطة، مثل اختبار كولومبوس للبِيض.

ـ حقيقة الكذبة؟

ـ هذا صحيح. ما لدينا الآن هو أننا نفتقر إلى الشجاعة لإنشاء شركات ضخمة. نتخيل أن إدارة دولة أكثر تعقيداً من إدارة منزل حديث، وفي خضم الأحداث نزيد من الروايات والرومانسية الحمقاء.

ـ لكن أنت في أعماق وعيك تشعر، أعني أن الواقع يعطيك انطباعاً بأننا سننجح؟

ـ تماماً، وصدقني سنكون على الأقل أصحاب البلد، إن لم يكن العالم. يجب أن نكون كذلك. ما يخططه المُنَجِّم هو طريق لتخليص أرواح الرجال الذين استنزفتهم ميكنة حضارتنا. لا توجد مثالية بعد الآن. لا توجد رموز جيدة أو سيئة. آخر اجتماع تحدث المُنَجِّم عن مستعمرات أسسها مُتَشَرِّدو العالم القديم الذين لم يكونوا بخير في بلادهم. نحن سنفعل الشيء نفسه، لكن مع إعطاء المجتمع إحساس لعبة حيوية، لعبة تأسر حتى نفوس أصحاب المتاجر عندما يذهبون إلى السينما لمشاهدة مغامرة رعاة البقر. ما الذي تعرفه، يا أخي، عن المشاكل التي نخطط للقيام بها؟ في النهاية سنزرع قنابل ثلاثي نتروتولوين لتسلية أنفسنا قليلاً بإرعاب أحد الأوغاد. من هم في رأيك رجال العصابات والبلطجية القدامى من الضاحية؟ هم الرجال الذين لم يجدوا قنوات لإطلاق طاقتهم، ثم قاموا بتفجيرها عن طريق تفجير عبوة أو قتل أحد الأتراك.

«انظر: كومودورو، بويرتومادرين، تريليو، إسكويل، أرويوبيسكادو، كامو تشيلينو، أنا على دراية بكل الطرق وكل البرايا، صدّق ذلك. سننظم فيلقاً شبابياً رائعاً»، كان على درجة عالية من الحماس. هل تعتقد أنه لا يوجد ذهب؟ إنك تُذكّرني بالمخلوقات الجالسة على طاولة والتي أعيُنها أكبر من بطونها. إن كل شيء في بلادنا هو ذهب.

شعر أردوسين بأنه مسحوب بحماس الآخر.

كان يتحدث المنقب عن الذهب بشكل متشنج، وهو يحدق، ويرفع حاجباً واحداً، ثم الآخر، ويهزُّه ودياً من ذراعه.

ـ صدقني يا أردوسين، هناك الكثير من الذهب، أكثر مما تتخيّل، لكن هذا ليس الواقع. هناك شيء آخر؛ ألا وهو أن الوقت يمر. إسكويل، أرويوبيسكادو، ريو بيكو، الريف التشيلي، الفراسخ، طرق لأيام وأيام... وأنت تعلم، تعلم أنه للحصول على رخصة حصان لا يساوي عشرة بيزو تمشي لأسابيع، الوقت لا يساوي شيئاً؛ كل شيء عظيم، هائل، أبديٌّ هناك. عليك

أن تقنع نفسك. أتذكر عندما كنت مع لا ماسكارا نمرُّ عبر أرويوبيسكادو. لم يكن هناك الذهب فقط، بل الذهب الأحمر، تُعالج الأرواح التي أعيتها الحضارة هناك. سوف نرسل كل ما لدينا إلى الجبال. انظر؛ أبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، وقد خاطرت بحياتي مرات عدة. ثم أخرج مسدسه. هل ترى ذلك العصفور؟ كان على بعد خمسين خطوة، فرفع المسدس إلى ذقنه، وضغط على الزناد، مع دوي الصوت ارتفع الطائر عمودياً عن الفرع. أرأيت؟ هذه هي الطريقة التي لعبت بها بحياتي عدة مرات. لا داعي للحزن. انظر، عمري سبعة وعشرون عاماً. أرويوبيسكادو، إسكويل، ريو بيكو، كامبوتشيلينو... كل البراري ستكون لنا، سنؤسس حراسة السعادة الجديدة، نظام فرسان الذهب الأحمر... تعتقد أنني أبالغ؟ لا يا رجل! يجب أن تكون هناك لتدرك ذلك. وفي ظل هذه الظروف، يتصور المرء الضرورات، الضرورات التي لا غنى عنها لأرستقراطية طبيعية. في تحدٍ للوحدة، والأخطار، والحزن، والشمس، وسهولة النهايات، يشعر المرء وكأنه رجل آخر؛ مختلف عن قطيع العبيد الذي يحتضر في المدينة. هل تعرف ما هي البروليتاريا والأناركية والاشتراكية في مدننا؟ قطيع من الجبناء. بدلاً من الذهاب إلى الجبال والحقول لكسر نفوسهم، فإنهم يفضلون الراحة والترفيه على العزلة البطولية في الصحراء. ماذا ستفعل المصانع ودور الأزياء والآليات الطفيلية للمدينة إذا ذهب الرجال إلى الصحراء، إذا نصب كل واحد منهم خيمته هناك؟ هل تفهم الآن لماذا أنا مع المُنَجِّم؟ نحن الشباب سنخلق حياة جديدة. نعم، نحن. سننشئ أرستقراطية اللصوص. سنطلق النار على المثقفين المصابين بحماقة تولستوي، والبقية سيعملون تحت إمرتنا. لهذا السبب أنا معجب بموسوليني. في ذلك البلد، كانت بلد الماندولينين فطبِّق استخدام العصيّ ومن ثم تحولت بين ليلة وضحاها من عهد الأوبريت الى كلب الدرواس في البحر الأبيض المتوسط. إن المدن هي سرطانات العالم. إنهم يقتلون الإنسان، ويرمونه بالجبن، والدهاء، والحسد، والحسد هو الذي يؤكد حقوقه الاجتماعية، ألا وهي الحسد والجبن. لو كانت تلك القطعان مكونة من وحوش شجاعة لكانوا قد أتو على الأخضر واليابس. الاعتقاد في الكثرة هو الاعتقاد بأنه يمكنك لمس القمر بيدك. انظر ماذا حدث للينين مع الفلاح الروسي. لكن كل شيء منظم بالفعل الآن وليس هناك شيء آخر يمكن قوله: في زماننا، من لا يشعرون بالراحة في المدينة فليذهبوا إلى الصحراء. هذا ما

يقترحه المُنَجِّم. إنه على حق تماماً. عندما شعر المسيحيون الأوائل بالسوء في المدن ذهبوا إلى الصحراء. هناك، على طريقتهم الخاصة، بنوا السعادة. أما اليوم، فإن رعاع المدن ينبحون في الهيئات.

ـ هل تعلم أنني أحب تشبيهك بالصحراء؟

ـ لكن بالطبع يا أردوسين المُنَجِّم يقول ذلك: أولئك الذين لا يرتاحون في المدن ليس لهم الحق في إزعاج من يستمتعون بها. بالنسبة للساخطين وغير المستريحين في المدن هناك الجبل والسهل وضفاف الأنهار الكبرى.

لم يتخيل أردوسين مثل هذا العنف في المنقب عن الذهب، وخمَّن الآخر تفكيره، لأنه قال:

ـ سنبشر بالعنف، لكننا لن نقبل منظري العنف في الخلايا، لكن من يريد أن يظهر لنا كراهيته للحضارة الحالية عليه أن يقدم لنا دليلاً على طاعته للمجتمع. هل تدرك الآن هدف المستعمرة؟ أليس الذهب أيضاً وهماً جميلاً؟ سوف يحولك الجهد إلى رجل خارق. ثم ستمنح الصلاحيات. أليس الأمر نفسه مع الرهبنة؟ أليست هذه هي نفس طريقة تنظيم الجيش؟ لكن، يا رجل، لا تنبس ببنت شفة! في نفس الشركات التجارية، على سبيل المثال، في منزل جاث وتشافيز، في هارودز، أخبرني الموظفون أن الموظفين يخضعون لنظام يكون الانضباط العسكري بجانبه لعبة. كما ترى، أردوسين، نحن لا نخترع أي شيء. نحن نستبدل نهاية متوسطة بنهاية غير عادية، لا أكثر.

شعر أردوسين بالإهانة أمام المنقب عن الذهب، وحسد العنف الآخر، وتضايق من حقائقه الجسيمة التي لا يسمح بالجدال فيها، وكان يود أن يناقضه، وهو يقول في نفسه: ـ أنا شخصية أقل درامية منك، أنا الرجل الدنيء والجبان في المدينة. لماذا لا أشعر بعدوانيتك وكرهك؟ نعم، كلامك صحيح. وأبتسم لكلماته، بحكمة، وكأني أخشى أن يصفعني، وذلك لأن عنفه يخيفني، وغضبه يغضبني.

ـ بماذا تفكر يا أخي؟ قال المنقب عن الذهب.

هز المنقب عن الذهب كتفيه قائلاً:

ـ تعتقد أنك جبان لأن الظروف التي تعيش فيها لم تجبرك على المراهنة على حياتك. أريد أن أراك في اليوم الذي تكون فيه حياتك معلقة على زناد المسدس، هل أنت جبان أم لا. ما هو موجود في المدينة لا يمكن أن يكون شخصاً شجاعاً. أنت تعلم أنهم إذا أفسدوا أحد البؤساء، فإن إجراءات الشرطة ستزعجك كثيراً لدرجة أنك تفضل أن تحصل على العدالة بنفسك. هذه هي الحقيقة. ويعتاد المرء على الاستسلام، على كبح النبضات.

نظر إليه أردوسين:

ـ هل تعلم أن الأمر واضح ويُفقد الشخص حذره، يا شريكي. سترى كيف ستفيق قريباً، وستجد بداخلك روح رجل شجاع، عليك أن تبدأ، ليس إلا.

في الواحدة بعد الظهر، ودَّع الرجلان بعضهما.

العرجاء

في ذلك اليوم، قبل أن يصل أردوسين مباشرة إلى آخر مرحلة من الدرج في كاراكول، ميز في مدخل الفندق، امرأة ملفوفة بمعطف طويل وغطاء رأس أخضر، وكانت تتحدث مع صاحبة البنسيون. «ها قد أتى»، جملة فهم منها أنه هو الشخص الذي كُنَّ ينتظرْنَه، وعندما توقفتا في الممر، قالت الغريبة له، وهي تلتفت بوجهها، المنمّش قليلاً: ـ هل أنت السيد أردوسين؟

ـ أين رأيت هذا الوجه؟ تساءل أردوسين بعدما أجاب بالإيجاب على الغريبة التي همت بتقديم نفسها بعد ذلك قائلة:

ـ أنا زوجة السيد إرجويتا.

ـ «آه! هل أنت العرجاء!»، فجأة، شعر أردوسين بالخجل من قولته التي تفتقر إلى الذوق مما أصاب صاحبة المكان بالذهول ما جعلها تنظر إلى قدمي الغريبة، فبادر أردوسين بالاعتذار: ـ آسف! ألجمتني المفاجأة... أنت تفهمين، لم أتوقع... هل تريدين الدخول؟

قبل فتح باب غرفته، اعتذر أردوسين مرة أخرى عن الفوضى التي ستكتشفها بعد الدخول، وأجابت هيبوليتا وهي تبتسم بسخرية:

ـ حسناً سيدي.

ومع ذلك، كان أردوسين غاضباً من تلك النظرة الباردة التي تسربت من خلال حدقتي المرأة الشفافتين ذاتي اللون الرمادي والأخضر. وفكر: ـ لا بد أنها امرأة منحرفة، لأنه لاحظ أن تحت الوشاح الأخضر، شعر هيبوليتا الأحمر الأملس الذي ينسدل على صدغيها في شريطين ناعمين يغطيان أطراف أذنيها. نظر مرةً أخرى إلى رموشها الحمراء الثابتة والشفاه التي بدت منتفخة انتفاخاً خجولاً مرضياً بوجهها المنمش. وقال في نفسه: «لم تختلف عن الصورة!».

توقفت أمامه تراقبه وكأنها تقول لنفسها:

«هذا هو الرجل»، وبينما هو قريب من المرأة، شعر بوجودها دون أن يفهمها، وكأنها لم تكن موجودة أو كأنها تبعد عنه العديد من الفراسخ عبر الطريق الداخلي. ومع ذلك، كانت هناك وكان لا بد من قول شيء ما، ولم يخطر بباله شيء آخر، على حد قوله، ثم بعد إشعال الضوء وتقديم كرسي للسيدة، بينما جلس هو على الأريكة: ـ إذاً أنت زوجة إرجويتا؟ جيد جداً.

لم يفهم تماماً ما كانت تفعله تلك الحياة، فجأة غرق في حيرته. أثارت في نفسه موجة من الفضول، لكنه كان يرغب في أن يكون غير ذلك، ليشعر بمظهر مألوف لوجه المرأة، التي تحتوي الخطوط البيضاوية لوجهها على لون أحمر نحاسي، مثل أشعة الشمس في يوم

ممطر، والتي تصور إنبات القديسين إلى ألف حزمة من بين قمة الغيوم. ثم قيل: ـ أنا هنا ولكن أين هي روحي؟ فقال مرة أخرى: «إذاً أنت زوجة إرجويتا، جيد جداً».

هي التي كانت قد وضعت قدماً على قدم، قامت بتمديد حاشية فستانها أقل بكثير من ركبتها، وتجمع القماش بين أصابعها الوردية، ورفعت رأسها كما لو أن تلك الحركة كلفتها مجهوداً كبيراً في غرابة البيئة. ثم قالت: ـ يجب أن تفعل شيئاً من أجل زوجي. لقد جن جنونه.

ـ «فضولي لم يتضح أنه تلقّى أي صدمة»، قال أردوسين لنفسه، واكتفى بالبقاء بدون إبداء أي ردة فعل مثل أحد هؤلاء المصرفيين في روايات كزافييه دي مونتبين، وأضاف، بفرح داخلي لكونه قادراً على تمثيل كوميديا الرجل الصامد: «إذاً لقد جن جنونه؟»، لكنه أدرك فجأة أنه لا يستطيع إطالة تمثيل هذا الدور، فقال: «هل تدركين ذلك يا سيدتي؟ لقد ألقيتِ عليَّ أخباراً غير عادية، ومع ذلك ظللت صامداً. من المؤلم أن أكون هكذا، خالياً من أي عاطفة؛ أود أن أشعر بشيء وأنا مثل الحصاة. عليك أن تعذريني. لا أعلم ماذا يحدث لي. ستلتمسين لي العذر، أليس كذلك؟ في وقت آخر، لم يكن الأمر كذلك. أتذكر أنني كنت مبتهجاً كعصفور. لقد تغيرت شيئاً فشيئاً. لا أدري، أنظر إليك، أود أن أشعر كأنني صديقك ولا أستطيع. إذا رأيتك تحتضرين، فربما لا أقدم لك حتى كوباً من الماء. أتفهمينني؟ وبعد...

ـ لكن أين هو؟

ـ في أوسبوثيو دي لاس مرسيدس.

ـ يا له من فضول! ألم تعيشوا في أثول؟

ـ نعم، لكننا هنا منذ خمسة عشر يوماً.

ـ ومتى حدث هذا؟

ـ قبل ستة أيام، لا أستطيع أن أشرح ذلك بنفسي. كما قلت حينما كنت تشير إلي في حديثك. آسفة لتضييع وقتك. فكرت فيك، وبأنك تعرفه، كان يتحدث معي دائماً عنك. متى كانت آخر مرة رأيته؟

ـ قبل الزواج، نعم، لقد حدثني عنك. يدعوكِ العرجاء... أو العاهرة.

بدا لأردوسين أن روح هيبوليتا كانت ستفر من مقلتيها. كان على يقين من أنه يمكنه التحدث معها عن كل شيء. كانت روح المرأة بلا حراك هناك، وكأنها تستقبلها بشكل طبيعي. كانت قد أراحت يديها المتصالبتين على تنورتها فوق ركبتيها، وهذا الوضع جعل من السهل عليه الحصول على ثقتها. نفس ما حدث في الصباح في منزل المُنَجِّم بدا بعيداً بالنسبة إليه، فقط القليل من الشجر وصور للسماء عبرت ذاكرته في لحظات، وكان انزلاق الصور المتقطع يترك متعة بطيئة وغير مبررة تستريح على ضميره. يفرك يديه برضا، ثم يقول: ـ لا تشعري بالإهانة يا سيدتي، لكني أعتقد أنه كان مجنوناً بالفعل عندما تزوجك.

ـ قل لي، هل تعلم إذا ما كان يقامر قبل زواجه مني؟

ـ نعم، بالإضافة إلى ذلك، أتذكر أنه درس الكتاب المقدس كثيراً، لأنه أخبرني، من بين أمور أخرى، عن العهد الجديد، والختم الرابع والكثير من الأشياء الأخرى.

إلى جانب ذلك، كان يقامر. كنت دائماً مهتماً باللعب لأنني رأيت فيه مزاجاً مسعوراً.

ـ هذا كل شيء. جنون. لقد جاء ليقبل رهاناً بقيمة خمسة آلاف بيزو على طاولة البوكر. باع مجوهراتي، قلادة أهداها لي صديق...

ـ لكن كيف؟ لم تعطِ تلك القلادة للخادمة قبل زواجك منه بقليل؟ لقد أخبرني بذلك؛ بأنكِ أعطيته العقد والأدوات الفضية، وشيك بعشرة آلاف بيزو الذي أعطاكِ إياه الآخر.

ـ لكن هل تعتقد أنني مجنونة! لماذا أعطي خادمتي عقداً من اللؤلؤ؟

ـ إذاً لقد كذب.

ـ هذا ما أعتقده.

ـ يا له من فضول!

ـ لا تتفاجأ. لقد كذب كثيراً. إلى جانب ذلك، كان تائهاً في الآونة الأخيرة. درس مارتينجال ليساعده في لعبة الروليت. كنت ستضحك لو كنت قد رأيت ذلك. لقد ملأ كتاباً بأرقام لم يفهمها أحد إلا هو. يا له من رجل! لم أستطع النوم من القلق. أهملت الصيدلية في بعض الأحيان، حدث أن انطفأت الأنوار ونمت وشعرت بضربة قوية على الأرض؛ كان هو الذي سقط من فوق السرير، وأضأتُ الأنوار، ورأيته يكتب بعض الأكواد التي يخشى أن تفر منه. لكن، إذاً أخبرك أنني قد أهديت عقد اللؤلؤ الخاص بي؟ يا له من رجل! ما فعله كان رهنَهُ قبل أن نتزوج. حسناً، كما كنت أقول، ذهب الشهر الماضي إلى ريـال دي سان كارلوس.

ـ وبالطبع خسر.

ـ لا، بسبعمئة بيزو فاز بسبعة آلاف. أرأيت كيف وصل. بهدوء، قلت لنفسي: أووه لقد خسر! ولكن الشيء الرائع هو أنه كان خائفاً من الحظ الذي كان لديه، هو نفسه حتى ذلك الحين كانت لديه ثقة نسبية في نظرية مارتينجال...

ـ نعم، أدرك ذلك، كان يفضل الإيمان بها على تجربتها.

ـ طبعاً، خوفاً من الفشل. لكني أخبرك، لبضعة أيام كان مستاءً نوعاً ما. أتذكر أحد الأيام، في وقت القيلولة، قال لي: «حسناً، يا سوداء، هل تتنحين عن منصبك كملكة العالم؟».

ـ دائماً هوس العظمة.

ـ أحذرك من أنني كنت أؤمن جزئياً أيضاً بعد ذلك بنجاح نظرية مارتينجال. لقد لعب حسب الأرقام التي ظهرت في جدول حسابه، حتى يرفع رصيده في البنك، سحب ثلاثة آلاف

بيزو من البنك، كانوا باسمي، على ما أذكر، بالإضافة إلى ستة آلاف وخمسمئة، ودفع بعض فواتير الصيدلية، ثم غادرنا إلى مونتي فيديو، وخسر كل شيء.

ـ كم من الوقت استغرق؟

ـ عشرين دقيقة. ظننت أنه أغمي عليه في الطريق، لكنه أخبرك أنني أعطيت قلادتي للخادمة؟ يا له من رجل!

ـ من شأنه أن يعطيني فكرة أفضل عنك. وكيف كانت رحلة العودة؟

ـ لا شيء، لم يقل كلمة واحدة. بالطبع، كانت عيناه متجمدتين، ووجهه كان نوعاً ما غير مرتاح، كما تعلم؟ حالما وصلنا إلى بوينس آيرس ذهب إلى الفراش، كان يوم الاثنين. بقي في السرير حتى حلول الظلام، ثم ذهبت إلى الشارع، لا أدري لماذا شعر قلبي أن شيئاً ما سيحدث. في الساعة العاشرة ليلاً لم يكن قد عاد بعد، ثم خلدت الى النوم؛ في حوالي الساعة الواحدة صباحاً، أيقظتني خطاه في الغرفة، كنت سأشعل الضوء عندما قفز وأخذني من ذراعي، أنت تعرف القوة المخيفة التي يتمتع بها، في ثوب النوم جذبني من على السرير ساحباً إياي عبر الممرات، ووصل بي إلى باب الفندق.

ـ وأنت ماذا فعلت؟

ـ لم أصرخ لأنني كنت أعرف أنني سأغضبه. عند باب الفندق حدق في وجهي وكأنه لا يعرفني، كانت جبهته متكتلة من التجاعيد وعيناه واسعتين. هبت رياح عاتية من شدتها تحني الأشجار، وغطيت نفسي بذراعي، وظل ينظر إلي دون أن ينبس ببنت شفة، عندما توقف أمامنا حارس، بينما كان البواب الذي استيقظ على ضوضاء الموقف يمسكه من ذراعيه من الخلف. حتى يكاد يسمع من ناصية الشارع: «إنها هي العاهرة التي أحبها الأشرار ذوو اللحم مثل لحم البغل...».

ـ ولكن كيف تتذكرين هذه الكلمات؟

ـ كل ما حدث أشعر كما لو أنني أراه الآن. هو، بين أحد مصراعي الباب، يشرع في الدخول؛ ومن الخارج كان الحارس يجره إلى الخارج، بينما كتفه البواب من حلقه ليفقده قواه، وكنت على الأرض منتظرةً انتهاء كل ذلك، وكان قد تجمع العديد من الأشخاص الذين بدلاً من مساعدة الحارس كانوا يستمتعون بأنفسهم بالنظر إلي. لحسن الحظ، كنت دائماً ما أرتدي ثوب نوم طويل. أخيراً، بمساعدة حراس آخرين أبلغهم النادل من الداخل بدعوات طلب المساعدة، تمكنوا من اصطحابه إلى مركز الشرطة. ظنوا أنه كان مخموراً، لكنها كانت نوبة جنون، هكذا شخَّصها الطبيب. لقد قال إنها نوبة تسمى بسفينة نوح...

ـ «حسناً، وكيف يمكنني مساعدتك؟»، مرةً أخرى، شعر أردوسين أن أهمية الشخصية عادت إلى الظهور في حياته كعنصر خيالي يجب الاهتمام به مثلما يتم الاهتمام برابطة العنق في اضطراب الرقص.

ـ حسناً، لقد أزعجتك لمعرفة ما إذا كان بإمكانك مساعدتي مؤقتاً. لا يمكنني الاعتماد على عائلته في أي شيء على الإطلاق.

ـ لكنك لم تتزوجي في منزله؟

ـ نعم، لكن عندما عدنا من مونتي فيديو بعد أن تزوجنا، ذهبنا ذات يوم لزيارة... تخيل... زيارة منزل كنت فيه خادمة.

ـ يا له من أمر جلل!

ـ سخط هؤلاء الناس لا يمكن أن تتخيله.

ـ يوم من الأيام معه... لكن لماذا نذكر مثل هذه التفاهات! ألا تعتقد ذلك؟ إن الحياة هكذا وهذا كل شيء.

طردونا وخرجنا. الصبر أو سوء الحظ.

ـ الغريب أنك كنت خادمة.

ـ لا غرابة في هذا الأمر على وجه الخصوص.

ـ أنت لست من هذا النوع.

ـ شكراً لك. الحقيقة هي أنني عندما غادرت الفندق كان عليَّ أن أرهن خاتماً، وأحتاج إلى بعض التجهيزات! ولدي القليل من المال.

ـ ماذا عن الصيدلية؟

ـ هناك شخص مسؤول عنها وهو أهل لهذه المهمة. لقد أرسلت له برقية لإرسال الأموال، لكنه ردَّ بأن لديه أوامر من عائلة إرجويتا بعدم إعطائي فلساً واحداً. على أي حال...

ـ وماذا سوف تفعلين؟

ـ هذا ما لا أعرفه؛ إما العودة إلى بيكو، أو الانتظار هنا.

ـ ما هذا الهراء!

ـ صدقني، لقد انتهيت.

ـ حسناً، الحقيقة هي أنه ليس لدي مال اليوم. في الغد، نعم، سأحصل...

ـ هل تعلم؟ أريد أن أدخر القليل من الأموال في حالة...

ـ وحتى ذلك الحين الذي تجدين فيه عملاً جاداً، إذا أردت يمكنك البقاء هنا. على وجه التحديد، توجد غرفة فارغة بجانبنا. وماذا تريدين أكثر من ذلك؟

ـ انظر إذا كان يمكنك إخراجه من المصحة.

ـ كيف سأخرجه وهو مجنون؟ سنرى.

ـ حسناً، ستبقين هنا الليلة. سوف أنام أنا على الأريكة، على الرغم من أنني ربما لن أنام هنا.

مرة أخرى، تفحصته المرأة من بين رموشها الحمراء، وعن طريق نظرتها الشيطانية الخضراء. كان الأمر كما لو كان يعرض روحه على إنسان، ليجمع نسخة كربونية من نواياه.

ـ حسناً، أنا أقبل.

ـ غداً، إذا أردت، سأمنحك المال حتى تتمكني من العيش بهدوء في فندق إذا كنت لا تفضلين البقاء هنا.

ولكن فجأة، غاضباً من هيبوليتا بسبب فكرة لاحت في ذهنه للتو، ثم قال:

ـ هل تعلمين أنه كان يجب عليك ألا تقعي في غرام إدواردو؟

ـ لماذا؟

ـ الأمر واضح. تأتين إلى هنا، ثم تروين لي كل هذه القصة الدرامية بهدوء مذهل، وبطبيعة الحال، إذاً... ما الذي سيفكر فيه المرء عنك؟

بقول هذه الكلمات، بدأ أردوسين يسير بخطى سريعة في المساحة الضيقة للغرفة. كان يشعر بعدم الارتياح، وأخذ في تفحص الوجه البيضاوي النمش بطرف عينه، والحاجبين الرقيقين الأحمرين تحت القناع الأخضر للقبعة، والشفاه التي تلوح كما لو كانت منتفخة، بينما كان جناحان من الشعر النحاسي يعانقان الصدغين، ويغطيان الأذنين، وترمي الحدقتان بأشعة شفافة بنظراتهما.

وفكر أردوسين: «ليس لديها نهدان تقريباً». ثم نظرت هيبوليتا حولها وسألته فجأة بينما تبتسم بلطف:

ـ ما الذي توقعته مني يا بني؟

انزعج أردوسين من دعوته «بني» التي جاءت في وقت غير مناسب، والتي انضمت إلى إخواتها العاهرات «الصبر، الحظ السيئ». ثم قال أخيراً: ـ لا أعرف، حسناً، لقد تخيلتك أقل هدوءاً، هناك أوقات تتركين فيها انطباعاً بأنك امرأة منحرفة... قد أكون مخطئاً، لكن... حسناً... ها أنت...

نهضت هيبوليتا قائلة:

ـ يا بني، أنا لم أتصنع الضحك أبداً. لجأت إليك ببساطة لأنني علمت أنك أفضل صديق له. ماذا تريد مني؟ هل أعكف على البكاء أمامك مثل ماجدلينا إذا لم تشعر بذلك؟ لقد بكيت بالفعل بما فيه الكفاية.

هي أيضاً وقفت. كانت تحدق به، لكن حصونها الصلبة المتجمدة تحت بشرة وجهها مثل درعها سوف تتحلل مع التعب. مع رأس مائل قليلاً إلى جانب واحد، ذكّرت أردوسين بزوجته، يمكن أن تكون هي، كانت عند باب غرفة مجهولة... القائد، غير مبال، شاهدها تسير إلى الأبد ولم يحاول منعها... انفتح الشارع أمامها... ربما ينتهى بها الأمر في فندق ذي جدران قذرة، ثم قال مشفقاً: ـ عفواً... أنا متوتر قليلاً. أنت في منزلك. الشيء الوحيد الذي أشعر به هو أنني مفلس. لكن غداً سيكون لدي المال.

عادت هيبوليتا إلى كرسيها، تحسس أردوسين نبضه أثناء سيره... كانت الأوردة تنبض بعنف. متأثراً بما حدث بعد ظهر اليوم السابق مع المُنَجِّم وبارسوت، قال بمرارة: ـ كم هي صعبة الحياة... هاه؟

حدقت الدخيلة بصمت في طرف حذائها الصغير. رفعت عينيها وشقت جبهتها المنمشة تجعيدة رقيقة. ثم قالت:

ـ يبدو أنك تشعر بأسى. هل هناك شيء ما؟

ـ لا شيء. أخبريني؛ هل عانيت كثيراً بجانبه؟

ـ بعض الشيء. إنه عنيف.

ـ يا له من فضول! أود أن أقدم نفسي له في غرفة المرضى النفسيين ولكن لن يمكنني ذلك. بالكاد يستطيع تمييز أي شيء... أحذرك من أنني شعرت بالكارثة.

ـ التقيت به ذات صباح، أخبرني بكل شيء وفجأة كان لدي انطباع بأنني لن أكون سعيدة معه.

ـ لكن لا بد أنك متعبة. لا بد لي من الخروج. سأخبر صاحبة المكان أن تقدم لك عشاءً هنا.

ـ لا، لا أريد.

ـ حسناً، إذاً أستميحك عذراً. ها هي الشاشة. اعتبري نفسك في منزلك.

عندما غادر أردوسين، رمقته العرجاء بنظرة واحدة، نظرة من المعجبات تتفحص جسد الرجل من الرأس إلى أخمص القدمين بشكل مائل، وتجمع في الظل كل الهندسة الداخلية لحياته.

في المغارة

في الشارع، لاحظ أردوسين أنه كان يسير، لكنه واصل المشي، مدفوعاً بالاستياء البليد، والمزاج السيئ لعدم القدرة على التفكير.

كانت الأحداث تزداد تعقيداً... وفي هذه الأثناء، ما هو الترس الذي تم اختياره من منتصف تروس حياته ليتم منعه من الدوران، ويغمسه أكثر فأكثر في الحياة، ويغرقه في مستنقع جعله يائساً؟ بالإضافة إلى ذلك، كان هناك... ذلك العجز عن التفكير والتفكير بخطوط

واضحة منطقية، كما هي الحال في لعبة الشطرنج، وعدم الترابط العقلي الذي جعله حانقاً على الجميع.

ثم انصب غضبه على سرور أصحاب المحال التجارية الوحوش، الذين يبصقون على أبواب محالهم على غفلة من المطر. لقد تخيل أنهم كانوا يخططون لأعمال خداع أبدية، بينما شوهدت نساؤهم المضلات من الغرف الخلفية، ينشرن مفارش المائدة على الطاولات العرجاء، يكتسحون حساءً خشناً، لحظة ما يتم اكتشافه في النوافير، وقد ألقوا برائحة الفلفل الحلو والشحم في الشارع، وبقايا خشنة من الميلانين معاد تسخينه.

سار عابساً، محللاً في غيظ بطيء، الأفكار التي من شأنها أن تفقس تحت تلك الجبهة الصغيرة، ناظراً بوقاحة إلى الوجوه الغاضبة للتجار، الذين تجسسوا من كوب أعينهم بشعلة من الضراوة على المشترين الذين كانوا قد انتقلوا في الأعمال التجارية الحدودية؛ وشعر أردوسين في بعض الأحيان بالدافع لإهانتهم، يهوى معاملتهم على أنهم هم الديوثون واللصوص وأبناء لأم عاهرة، وقال لهم إن لديهم سمنة زائفة بسبب الجذام، وإذا كان البعض منهم نحيفاً، فإن ذلك بسبب شعوره بالغيرة من النجاحات التي يحققها جيرانهم. وفي داخله كان يقوم بإهانتهم بشكل مروع. وإذ يتخيل أن التجار الذين أوشكوا على إعلان إفلاسهم بسندات إذنية مروعة، وأن المصيبة التي ألقت بهم إلى قاع اليأس ستحوم حول نسائهم القذرات أيضاً، اللواتي، بنفس الأصابع التي أزاحوا بها خرق الحيض، سيقطعون الآن الخبز الذي يلتهمونه بين اللعنات الموجهة إلى منافسيهم.

وبدون القدرة على إيجاد تفسير لذلك، قيل إن أكثر هؤلاء الأوغاد أدباً كانوا مخادعين ووقحين للغاية، وكلهم حقودون حتى النخاع وأكثر قسوة وعناداً من القرطاجيين.

وبينما كان يمر بجوار المراتب والمخازن والمتاجر، اعتقد أن هؤلاء الرجال ليست لديهم أمور نبيلة في الوجود، وأنهم أمضوا حياتهم في التلصص على خصوصيات جيرانهم، حالهم مثل حال كل الأوغاد، مبتهجين بأفراح شريرة. التلفظ بكلمات التعاطف الكاذبة مع المصائب التي حلت بهم، القيل والقال يميناً ويساراً حول مدى مللهم، وقد أدى ذلك فجأة

إلى غضب شديد لدرجة أنه قيل فجأة إن أفضل شيء يمكن لأحدهم أن يفعله هو المغادرة، وإلا فإنه سيعاني من إصابة مع هؤلاء المتوحشين، الذين تحت ظلالها رأوا روح المدينة ترتفع، موجهة، عنيدة وشرسة مثلهم.

لم يكن يمتلك هدفاً محدداً، فقد أدرك أن لديه روحاً قذرة بسبب مقدار اشمئزازه مدى الحياة، وفجأة عندما رأى الترام يمر باتجاه بلازا وانز، قفز على المنصة بقفزات واسعة. بالفعل في مكتب التذاكر، حجز تذكرة ذهاباً وإياباً إلى راموس ميخيا. كان ذاهباً إلى هناك بنفس الرغبة في السير في اتجاه آخر. متعب، مرتبك، على يقين بأنه ألقى بروحه في حفرة لا يستطيع أن يخرج منها مرةً أخرى. بينما تنتظره، العرجاء. ألن يكون من الأفضل أن أكون قائداً حربياً وأن أقود مدرعة خارقة؟ حيث تنبعث سيول الدخان من المداخن وعلى خط القيادة أتحدث مع قائد البرج، في حين أن صورة امرأة مرسومة في قلبي، التي قد لا تكون زوجتي. لكن لماذا هكذا هي حياتي؟ وحياة الآخرين أيضاً، أيضاً «مثل هذا» كما لو أن «مثل هذا» كان ختماً لسوء الحظ والذي كان أكثر وضوحاً عندما شوهد في شخص آخر.

ما الذي حدث لتلك الحياة القوية التي يحويها بعض الرجال في عبواتهم مثل دم الأسد؟ الحياة القوية التي تجعل الوجود فجأة يبدو لنا بدون أوقات التحضير السابقة ويتمتع بالسهولة الكاملة كما هي حال الاستعدادات السينمائية. ألم تكن صور الأبطال هكذا؟ من احتفظ بصورة للأبطال؟ من احتفظ بصورة لينين وهو يتجادل في سقيفة لندن، أو لموسوليني وهو يتجول في طرق إيطاليا؟ ومع ذلك، تم الكشف عنهم فجأة بداخل شرفة كان يقطنها حشد من الملتحين، أو بين الأعمدة المقطوعة لبعض الآثار الحديثة، مع أحذية رياضية، وقبعة هيبي جابا التي لا تقلل من ضراوة وجه الفاتح. وبدلاً من ذلك، شعر هناك، في حياته، أن الصور الصغيرة للعرجاء، القائد، زوجته، وبارسوت، كلها موجودة بمجرد أن لاحت أمام عينيه يستعيد البعد الضئيل لأجسادهم الذي يمنحه تلك المساحة له.

أمال رأسه على زجاج النافذة. انزلقت العربة ثم توقفت، عند صافرة حارس القطار الثانية، انطلقت القافلة، وأخذت تتصادم بشدة في القضبان التي زأرت بشراسة حينما تم دفعها

جانباً من حافة العجلات.

أذهلت الأضواء الخضراء والحمراء لمترو الأنفاق عينيه للحظة، ثم أغلقها مرةً أخرى. في الليل، نقل القطار خوفه إلى القضبان، وتضاعفت الكتلة بالسرعة، وأضفت أفكاره عليه دوخة من مسيرة عنيدة ومثيرة للدوار.

كرااك... كرااك.. كانت العجلات تزأر عند كل مفصل للسكك الحديدية، وهذا الإيقاع الأحادي الباهت والهائل يريحه من استيائه، ويجعل روحه أخف، بينما يترك الجسد نفسه في النعاس الذي تنقله السرعة إلى حواسه.

ثم اعتقد أن إرجويتا كان بالفعل مجنوناً. لقد تذكَّر كلمات الآخر عندما كان على حافة المحنة: «ابتعد، توريتو، ابتعد»، وحبس رأسه في الزاوية المبطنة لمسند الظهر، فكَّر في الأوقات التي مرَّت، وأغلق عينيه حتى يساعد ذاكرته على تمييز بعض الصور لإحدى الذكريات. تسبب ذلك في بعض المفاجأة، حيث إنها المرة الأولى التي لاحظ فيها أن بعض الشخصيات لها نفس البُعد الطبيعي الذي عُرفوا به في الواقع في ذاكرة ما، في حين أن الشخصيات أو الأشياء الأخرى صغيرة مثل جنود من الصلصال أو أنهم يمثلون فقط ملفاً شخصياً. يفتقر إلى العمق. وهكذا، بجانب بدانة رجل أسود، نسيَ يده على مؤخرة طفل صغير، رأى طاولة صغيرة، أما الدمى، التي قد تحطمت عليها رؤوس الرجال اللصوص الصغيرة، في حين أن السقف ذا الارتفاع الحقيقي يعطي مظهراً أكثر خراباً لمكان الذاكرة الرمادي.

انتقل حشد مظلم إلى هناك، داخل روحه؛ ثم حل الظل، مثل سحابة، وألمه قد غطته الرهبة، وإلى جانب الطاولة الصغيرة حيث ينام صغار اللصوص البالغون للتو، ينتصب في ضخامة وخجل مثل جمجمة الثور، وراحة نمط فوندا، مع أصابعه المطلية بكرات ذراعيه العضلية. وأظهرت له ذكرى أخرى مدى صحة شعوره بالسقوط الوشيك، حتى عندما لم يكن قد فكَّر حتى في تخييب أمل مصنع السكر، لكنه كان يبحث بالفعل عن الأماكن الشريرة وعن صورة لشخصيته المحتملة.

كم عدد المسارات الموجودة في رأسه! لكنه الآن يتجه نحو ذلك الذي يؤدي إلى المخبأ، المخبأ الضخم الذي قد أغرق مكعبه الصامت، مثل محل الجزارة، حتى آخر ثنايا عقله، وعلى الرغم من ارتياح هذا المكعب الذي نشأ في جبهته وانتهى في عنقه كان بحجم عشرين درجة، الطاولات الصغيرة التي يفترشها اللصوص الصغار البالغون لم تهوِ على الأرض كان منطقياً أن تهوي على الأرض ولكن ذلك لم يحدث، ولكن تم استخدام المكعب لعمل ثقل موازن لتلك الرجفة اللحظية، وهي التفكير فيه، وجلده قد اعتاد بالفعل على السرعة الضارية للقطار الكهربائي، فقد سمح لنفسه بأن يكون في حالة جمود مذهل؛ والآن بعد أن تغلبت حالة التذكر على القصور الذاتي لجميع الخلايا، ظهر المخبأ أمام عينيه، مثل شكل رباعي مقطوع تماماً. الذي بدا وكأنه يعمق خطوطه إلى داخل صدره، بحيث يكاد يعترف أنه إذا نظر إلى المرآة، فإن الجزء الأمامي من جسده يبين على شكل غرفة ضيقة، متعمقة نحو منظور المرآة. ثم سار داخل نفسه، على رصيف موحل به بصاق ونشارة خشب، وكان إطاره المثالي متجهاً نحو ما لا نهاية من الأحاسيس المتجاورة.

واعتقد أنه لو كانت العرجاء بجانبه، فإنه سيقول لها، متحدثاً عن ذكرى:

ـ لم أصبح لصاً بعد.

تخيل أردوسين العرجاء تنظر إليه، وبنبرة ملل تابع:

ـ بجانب مبنى «كريتيكا» القديم، في شارع سارمينتو، كان هناك نزل.

رفعت هيبوليتا عينيها كما لو كانت تستجوبه، فجأةً، وسط طقطقة السيارات الجهنمية أثناء عبورها اسطبلات كاباليتو، تخيّل أردوسين أنه شخصية كانت تعيش كقطاع الطرق، لكنها تجددت بالفعل، ثم تابع حديثه لمحاوره غير المرئي: ـ وكان هناك جمعٌ من بائعي الجرائد واللصوص.

ـ آه أجل؟

لمنع أعمال الشغب التي شكلها هذا الوغد من تحطيم نوافذ المتاجر، أبقى الرئيس الستائر المعدنية مسدلة.

كان يدخل الضوء إلى الغرفة من خلال الزجاج الملون باللون الأزرق، بحيث في ذلك الكهف ذي الجدران المطلية باللون الرمادي مثل تلك الموجودة في دكان الجزار التركي، كان يعم الظلام الذي جعل دخان السيجار حليبياً.

في ذلك المكعب الغامض، ذي السقف الذي تقطعه عوارض ضخمة، والذي غمر مطبخ النزل بضباب من الحساء والشحم، تحرك الضجيج المظلم، «مربى» من اللصوص، وجباههم مظللة بقبعات ذات أقنعة ومناديل بشكل فضفاض معقودة عند خط العنق من القمصان.

من الحادية عشرة إلى الثانية بعد الظهر، كانوا يتجمعون حول الطاولات الرخامية الدهنية، ويمتصون قذائف البطلينوس الفاسدة أو يلعبون الورق بين كؤوس من النبيذ.

في ذلك الضباب النتن، أكدت الوجوه الإيماءات المارقة، وكان يُنظر إليها على أنها ممدودة بسبب عنف الخنق، والفكين المتدليين، والشفاه المخففة على شكل قمع أسود مع عيون خزفية وأطقم أسنان براقة بين أكوام من الشفاه، والتي تلامس مؤخرة غير البالغين، تجعل أسنانهم ترتجف؛ لصوص و«مضاربون» بوجوه على شكل نمر، ذوو جبهة غارقة وحدقة متيبسة.

صراخ أجش أدى إلى تقيؤ تلك العناقيد المتناثرة على المقاعد وجميع الأنحاء على الرخام، ومن بينها انزلقت «الرماح»، وهم يرتدون بذلات نظيفة، وأعناق فضفاضة، وسترات رمادية، وقبعات من التي تتكلف سبعة بيزو. كان البعض قد غادر لتوه من سجن اسوكوينجا وكانوا ينقلون أخبار السجناء الجدد عن طريق إرسال رسائل، لبث الثقة بالنفس، ارتدى آخرون نظارات صدف السلحفاة، والجميع عندما دخلوا الى النادي عبروا المكعب بنظرات سريعة جداً. تحدثوا بأصوات منخفضة، وابتسموا بشكل متشنج، ودفعوا ثمن زجاجات البيرة لأصدقائهم الغريبين، وكانوا يدخلون ويخرجون مرات عديدة في ربع

ساعة، وهذا بسبب مهام غامضة. كان سيد هذا الكهف رجلاً ضخماً، له وجه ثور، وعينان خضراوان، وأنف كالبوق، وشفاه رفيعة جداً.

وأثار زئيره عندما كان غاضباً أعلى درجات الذهول لدى الوغد الذي خاف منه. كان يتعامل معه باستخدام عنف أعمى. قد يتسبب أحدهم في فضيحة أكثر من تلك التي تم تحملها ضمنياً، وفجأة اقترب الفونديرو، عرف البانجيرو أن الآخر سيضربه، لكنه ظل صامتاً، ثم ضرب العملاق بحافة قبضته ضربات قصيرة رهيبة على حافة جمجمة الجاني.

صاحبت العقوبة صمت فرح، وطُرد البائس إلى الشارع حافياً، وتجدد الصراخ أكثر ضرراً ورنيناً، مما أدى إلى دفع سحب الدخان باتجاه المربع الزجاجي للباب. في بعض الأحيان، يدخل الموسيقيون المسافرون إلى هذا الكهف، وغالباً ما يحملون الباندونيون والجيتار.

قاموا بضبط الآلات وصمت الانتظار ألزم كل وحشٍ رُكْنَه، بينما حرك الحزن موجاته غير المرئية في ذلك الجو المائي.

كان تانغو السجن يخرج حزيناً عبر الصناديق، ثم يحتضن البائسون، دون وعي، استياءهم ومصائبهم. بدا الصمت وكأنه وحش متعدد الأيدي يرفع قبة من الأصوات فوق رؤوس ملقاة في الرخام. ربما ما كانوا يفكرون فيه! وتلك القبة الرهيبة والمرتفعة التي تم إدخالها في كل الصدور ضاعفت لونغور الجيتار والباندونيون، مما جعل معاناة العاهرة والملل الرهيب للسجن الذي يخدش القلب عندما يفكر المرء في الأصدقاء الموجودين بالخارج «تقصيراً» تجاه الحياة.

ثم في الأرواح الأكثر رعباً، وتحت الرؤوس الأكثر قذارة، حدثت هزة غير معروفة. ثم مر كل شيء ولم تكن هناك منيد تقدم مساعدة، مسقطة عملة معدنية على قبعات الموسيقيين.

كان أردوسين يقول لمحاوره الافتراضي: «ها أنا ذا». بحثاً عن مزيد من الألم، وتأكيداً لمعرفة أنني ضائع وللتفكير في زوجتي التي كانت تعاني وحدها في منزلي بسبب الزواج

من شخص عديم الفائدة مثلي. كم مرة، حوصرت في ذلك النزل، تخيلت إلسا هاربة مع رجل آخر. وهبطت دائماً إلى الأسفل، ولم يكن هذا الكهف أكثر من مجرد توقع للأسوأ الذي سيحدث لي لاحقاً.

وفي كثير من الأحيان، عندما ينظر إليّ هؤلاء البائسون، كنت أخبر نفسي: ألن أصبح مثل واحد من هؤلاء؟ آه، لا أدري كيف، ولكن كان لدي دائماً شعور بما سيحدث لاحقاً. لم أكن مخطئاً أبداً، هل تدرك ذلك؟ وهناك، في الكهف، وجدته يوماً ما يتأمل في إرجويتا. نعم هو نفسه. كان بمفرده على طاولة، وينظر إليه بعض الصحفيين بدهشة، رغم أنه لا بد وأن آخرين قد اعتقدوا أنه لصّ حسنُ الملبس، لا أكثر.

تخيل أردوسين أن العرجاء تسأله الآن:

ـ كيف، هل كان زوجي هناك؟

نعم، وبوجه «الكلاب»، قضم قبضة عصاه، بينما كان رجل أسود يستجدي مؤخرة قاصر. لكنه لم ينتبه لأي شيء. يبدو أنه تم تثبيته على أرضية الكهف. صحيح أنه أخبرني أنه ذهب لانتظار أحد المتسابقين الذي كان عليه أن يمرر له بعض «البيانات» للسباق التالي، لكن الحقيقة هي أنه كان هناك، وكأنه شعر فجأة بالضياع ودخل ذلك المكان للبحث عن معنى للحياة. قد تكون هذه هي الحقيقة بالضبط. يبحث عن معنى للحياة بين الأحداث التي يمر بها هذا الوغد. هناك علمت لأول مرة عزمه على الزواج من عاهرة، وعندما سألته عن صيدليته، أجاب أنه ترك الصيدلة لشخص متخصص من بيكو كي يكون مسؤولاً عنها، لأنني في البداية افترضت أنه جاء للعب. لا أعرف ما إذا كنت تعلمين أنه قد طُرِد من النادي بسبب الغش. قيل إنه قام بتزوير الرموز، لكن لم يتم إثبات هذه المسألة أبداً. أخبرني عنك فقط عندما سألته عن صديقته، فتاة مليونيرة من كاشاري، وأنها كانت تحبه حباً جماً.

ـ أجاب: «لقد هجرتها منذ فترة».

ـ ولماذا؟

ـ لا أعرف... كان «يحدق» في وجهي... بينما كان يشعر بالملل.

ـ لكن لماذا تركتها؟ ألححت في السؤال. ضرب ضوءٌ حامض حدقتيه. أصر غاضباً، وهش الذباب الذي يدور حول قطعة البيرة الخاصة به: ـ كيف لي أن أعرف! كم هو ممل! كم أشعر بالملل! وتلك المسكينة أحبتني. لكن ماذا كانت ستفعل معي. إلى جانب ذلك، لم يعد هناك حَلّ.

ـ هل أخبرك إرجويتا أنه لم تعد هناك حلول؟

ـ نعم، سيدتي؛ قال على هذا النحو: «لقد فات الأوان، لأنني سأتزوج غداً».

ترك القطار الكهربائي وراءه فلوريس. يستذكر أردوسين، وهو منحنٍ على الكرسي، أنه نظر بجدية إلى الصيدلي، الذي كان وجهه ينشر تلك الحركة الملاحقة للعضلات التي تعطي وجهه تعبيراً خبيثاً.

ـ ومن ستتزوج؟

شحب وجه إرجويتا حتى أذنيه. وبينما كان يميل برأسه نحو أردوسين، غمز بجفن واحد، بينما حاولت العين الأخرى الجامدة أن تجمع كل المفاجأة التي ستأخذه في غضون ثانية إلى أردوسين: ـ سأتزوج من العاهرة. ثم رفع رأسه ولم يظهر سوى بياض عينيه، بينما لم أتحرك أنا.

انتاب وجه الصيدلي تعبيرٌ عن نشوة الطرب مثل تلك التي شوهدت في الألوان الثلاثية الشعبية، حيث يظهر القديس راكعاً وحافة يديه مستندة على صدره.

وتذكر أردوسين أنه في تلك الظروف، الرجل الأسود الذي كان يتحسس مؤخرة القاصر، وضع يديه الآن على أعضائه الحميمة، في حين أطلقت دائرة من الصحفيين صيحات

جهنمية، وعبر الراعي الضخم الغرفة بطبق حساء في يد واحدة. وآخر يخنة حمراء لمجموعة من لصّين كانا يلتهمان في زاوية.

ومع ذلك، فإن تصميمه لم يفاجئه. كان لدى أرغويتا تلك القرارات اليائسة للطبيعة المسعورة التي تطيع إمبراطورية الهواجس مع الغضب البطيء، وهو انفجار عميق لم يسمعوا عنه مع التدافع، حجم نموها يزيد من الغريزة. ومع ذلك، يظهر صفاء كبير: ـ العاهرة؟ ومن تكون تلك الزانية؟ تساءلت.

اندفع الدم إلى وجهه. حتى عيناه كانتا تبتسمان.

من هي من؟ إنها ملاك يا أردوسين. أمام عيني، في وجهي، قطعت شيكاً بألف بيزو تركه أحد أفراد الأسرة لها. وهبت للخادمة عقداً من اللؤلؤ تصل قيمته إلى خمسة آلاف بيزو. أعطت لشيالي الدار جميع المشغولات الفضية. قالت لي: «سأدخل منزلك عارية».

«لكن كل هذا كذب!»، لقد شعر الآن بما قالته هيبوليتا في ذاكرته.

ـ صدقته في تلك الظروف. واستمر في إخباري:

ـ إذا كنت تعرف فقط ما عانته تلك المرأة. ذات مرة، كان إجهاضها السابع، كانت يائسة لدرجة أنها ذهبت للقفز من النافذة من الطابق الرابع. فجأة، كم هو رائع، تشي... ظهر لها يسوع على الشرفة. مد ذراعه ولم يسمح لها بالمرور.

كان إرجويتا لا يزال يبتسم. فجأة مد يده إلى جيبه وقدم صورة لأردوسين. خمّن من يكون هذا المخلوق الفاتن.

لم تكن تبتسم هي. ومنخلفهاامتدت مساحات من الأرض مليئة بأشجار النخيل والسراخس. جلست على مقعد ورأسها منحنٍ قليلاً، ونظرت إلى مجلة كانت ممسكة بها بين ركبتيها وهي تلوي إحدى ساقيها على الأخرى. بهذه الطريقة، على مسافة قصيرة من العشب، تعلق

ذيل لباسها في جرس. تسريحة الشعر العالية والشعر الذي كان يتدفق من جذوره جعل جبهتها التي مثل القمر أفتح وأوسع. على جانبي الأنف الرقيق، كان قوس الحاجبين رقيقاً، كما يليق بالعيون المائلة قليلاً على وجه بيضاوي دقيق.

وبالنظر إليها، أدرك أردوسين فجأة أنه تجاه هيبوليتا لا يشعر أبداً بأي رغبة، وقد جعله هذا اليقين سعيداً للغاية لدرجة أنه فكر في بهجة في مداعبة ذقن الشابة الغريبة بأصابع متشعبة والاستماع إلى صوت الرمال تحت نعل حذائها الصغير. ثم تمتم: ـ كم أنت جميلة! لا بد وأنك حساسة للغاية!

كم كانت مختلفة في الواقع!

كان القطار الكهربائي الآن يعبر فيلا لورو. وسط جبال الفحم وأجهزة قياس الغاز التي يحجبها الضباب، تلمع الأقواس الفولتية بحزن. فتحت ثقوب سوداء كبيرة في حظائر القاطرات، وجعلت الأضواء الحمراء والخضراء، المعلقة بشكل غير منتظم على طول المسافة، صفيرَ أوناش القطارات أكثر كآبة.

يا لها من امرأة مختلفة تلك العرجاء في الواقع! لكنه تذكر قوله لأرغويتا:

كم هي لطيفة! يجب أن تكون لديها حساسية كبيرة!

ـ نعم، هكذا هو الأمر؛ لا بد وأنها ذات سلوك مرهف الحس. أحب المغامرة. انظر إلى ملامح أولئك الذين شككوا في شيوعيتي. لقد تركت امرأة رائعة، عذراء، حتى أتزوج من عاهرة. لكن روح هيبوليتا أهم من كل شيء. هي أيضاً تهوى المغامرة والقلوب النبيلة. معاً سنفعل أشياء عظيمة، لأن الزمان قد حان...

التقط أردوسين العبارة من الصيدلي:

ـ هل تعتقد أن الوقت قد حان؟

ـ نعم، يجب أن تحدث أشياء رهيبة. ألا تتذكر أنك أخبرتني ذات مرة أن الرئيس روزفلت قد أقام تأبيناً عظيماً للكتاب المقدس؟

ـ نعم، لكن منذ زمن طويل. رد أردوسين بمثل هذه الكلمات لأنه في الواقع لا يستطيع أن يتذكّر تحديداً موعداً من هذا النوع مع الصيدلي. الذي أكمل قائلاً: ـ لقد قرأت الكتاب المقدس بما يكفي في الخارج.

ـ لن يمنعك هذا من اللحاق «بالمدرسة».

ـ «هذا ليس من شأنك»، قاطعه إرجويتا بتجاهل.

نظر إليه أردوسين منزعجاً، ابتسم الصيدلي بابتسامته الطفولية، وبينما وضع الساقي نصف لتر آخر من البيرة على الرخام، قال: ـ لاحظ الكلمات الغامضة المكتوبة في الكتاب المقدس: «وأخلِّص الأعرج، وأجمع الضال، وسأضع لهم مدحاً وشهرة في كل أرض مشوشة».

ساد صمت غير عادي في النزل. حيث كانت فقط ترى رؤوساً منحنية أو مجموعات تنظر بتمعن إلى مجموعات الذباب تأتي وتروح في حالة من الفوضى على الطاولات. كان اللص يعرض على أحد الأعضاء خاتماً من الألماس وظل الرأسان متعلقين معاً على تفحص الأحجار. اخترق شعاع من ضوء الشمس الباب نصف المفتوح من الزجاج المعتم، مما أدى إلى قطع الضوء المزرق إلى قسمين مثل قطعة من الكبريت.

وكرر الآخر: «وسأخلص الأعرج، وسأجمع الضال»، ويصر ويغمز بشكل خبيث عند تكرار تلك المقولة: «وسأضع لهم مدحاً وشهرة في كل أرض مشوشة...».

ـ ولكن إذا لم تكن هيبوليتا عرجاء...

ـ لا، لكنها هي الضالة وأنا المحتال، «ابن الهلاك». لقد كانت تتنقل من بيت دعارة إلى بيت دعارة كي تبحث عن الحب من قلب الكرب. اعتقدت أن الحب الجسدي هو الذي أرشدني، وبعد قراءة هذا الكتاب أدركت أن قلبي كان يبحث عن الحب الإلهي. هل تدرك؟ القلب يوجِّه نفسه. أنت منشغل، وتريد أن تطبق إرادتك، وتفشل، لماذا تفشل؟ إنه لغز... ثم في يوم من الأيام، فجأة، دون أن تعرف كيف، تظهر الحقيقة. وانظر، أنا حي، ابن الهلاك، هذه هي حياتي. كتب لي أبي رسالة فظيعة، قبل موته في كوسكوين، كان يتقيأ دماً وفي نفس الوقت يحاكمني، أتعلم؟ ولم يوقع الخطاب باسمه، بل قال: «والدك الملعون». هل تدرك؟ ومرة أخرى غمز جفنه، ورفع حاجبيه بطريقة جعلت أردوسين يتساءل: ـ أليس هذا ضرباً من الجنون؟

ثم غادروا النزل. كانت السيارات تنزلق في شارع كورينتس متلألئة تحت أشعة الشمس، وذهب كثير من الناس في طريقهم إلى العمل، وتحت الستائر الصفراء كانت وجوه النساء وردية. دخلوا مقهى أمبوس موندوس. عجلات «القواد» أحاطت بالطاولات. لعبوا الورق أو النرد أو البلياردو. نظر إرجويتا حوله، ثم قال بصوت عالٍ وهو يبصق: ـ كل القواد. سيتعين شنقهم دون النظر إلى وجوههم.

لا أحد سينكر عليك ذلك.

كان أردوسين، عن غير قصد، يفكر في بعض أقوال الآخر.

«كنت أبحث عن الحب الإلهي». إذاً عاش إرجويتا حياة مسعورة وحسية. أمضى لياليه وأيامه في أوكار بيوت الدعارة، والرقص، والسكر، والدخول في معارك شنيعة مع ماليفوس وماكروس. قادته قوة عمياء إلى الدخول الى أكثر المآثر وحشية.

ذات ليلة، كان إرجويتا في ساحة بلازا دي لاس فلوريس، أمام محل نيرس للحلويات. كان هناك ديلافين السكران الذي تخرج كمحام قبل شهر والعديد من البلطجية الآخرين من نادي فلوريس. لقد أزعجوا كل من مر بهم. إذ فجأةً، رأى إرجويتا أحد سكان جاليسيا

يقترب، وقد فتح سحّاب بنطاله وعندما اقترب منه الآخر، أغرقه بتيار من البول. كان الرجل عقلانياً، واختفى مكتفياً بالتذمر. ثم قال الصيدلي وهو ينظر إلى ديلافين التي كانت تتفاخر بإفراط: ـ حسناً. ألا تبول على أول من يمر؟

ـ نعم، سأفعل.

ابتهج الجميع، ولأن الباسكي ديلافين كان متوحشاً. استدار الرجل وبدأ ديلافين في التبول. تنحى الغريب جانباً، لكن «الباسكي» كاد أن يدوسوه، وقد أغرقه كلياً. ثم حدث شيء رهيب. دون أن ينبس ببنت شفة، توقف الرجل الذي أسيء إليه، نظر أفراد العصابة وهم يضحكون ويصفقون، وفجأة سحب الرجل الغريب مسدسه، ثم سُمع دوي، وسقط ديلافين على ركبتيه، وهو يضغط على بطنه بيديه. كان عذاب «الباسكي» طويلاً ومؤلماً.

قبل وفاته، اعترف بنبل بأنه تسبب في تلك المأساة، وعندما كان إرجويتا في حالة سكر وتم تصفية ديلافين، الذي كان يركع ولسانه يرسم صليباً في التراب. أثناء تعجن السيجارة، أجاب الصيدلي على سؤال من أردوسين حول ديلافين: ـ نعم لقد كان ذا قلب نبيل، صديقاً فريداً. سأدفع ثمن فقده في يوم من الأيام. ولكن تحويل تفكيره إلى مصدر قلق أكثر آنية، فقال: «آه، لقد فكرت كثيراً في الأيام القليلة الماضية. وسألت نفسي إذا كان من العدل أن يتزوج رجل عقيم ومريض وشرير وفاسق الأخلاق من عذراء؟».

ـ هيبوليتا... هل تعرف؟

ـ نعم، إنها تعرف كل شيء. أيضاً، تستحق العذراء اسماً عذرياً، ورجلاً بجسده وروحه. لذلك سيكون يوماً ما. هل يمكنك تخيل ذكر جميل أعزب وقوي؟

همس أردوسين: «كان من المفترض أن تكون». نظر الصيدلي إلى ساعته.

ـ هل عليك أن تفعل؟

ـ نعم، بعد قليل سأعود إلى المنزل لأرى هيبوليتا.

أخبر أردوسين لاحقاً لمؤرخ هذه القصة: «تلك المرة أصابتني الدهشة». كان منزل عائلة إرجويتا فخماً وروح الناس الذين انتقلوا إليه مثل القواقع، كانت متحفظة وروتينية تماماً. سأله أردوسين: ـ كيف؟ هل أخذتها للمنزل؟

ـ يا لها من قصص تلك التي توجَّب عليَّ تأليفها! هي لم ترغب في الذهاب، بل من الأفضل القول بأنها وافقت على الذهاب، ولكن كما لو أن...

ـ هل استطعت؟

ـ لقد تمكنت من إقناعها في النهاية فقط. أخبرت والدتي أنني سرقتها عندما كانت تبحر مع أقرانها إلى أوربا... «بغله» أكبر من منزل.

ـ وأمك؟

كان أردوسين سيسأله عما إذا كانت والدته قد صدقت مثل هذه الكذبة، وكانت هيبوليتا قد كتبت على وجهها الأعمال التي أزعجت حياتها...

ـ كيف استقبلت والدتك الخبر؟

أخبرني أن آخذها على الفور. عندما قدمتها إليها عانقتها وقالت: «هل احترمك يا ابنتي؟»، فأجابت وهي تغمض عينيها: «نعم يا أمي». شيء صحيح. أود إعلامك بأن أمي وأختي سارة مسرورتان بهيبوليتا.

في تلك اللحظة شعر أردوسين أن هؤلاء التعساء قد أعدوا لأنفسهم كارثة مستقبلية. لم يكن مخطئاً، وعندما تذكر الآن في القطار الكهربائي اليقين بأنه لم يفشل، قال لنفسه وهو يمر عبر لينير: «إنه لأمر مضحك، الانطباعات الأولى لا تخدعك أبداً»، وعند سؤال إرجويتا متى تتزوج، أجاب: ـ غداً نتوجه إلى مونتي فيديو. سنتزوج هناك، إذ ربما لا يحدث بيننا

تفاهم. عندما قال هذه الكلمات، غمز بجفنه مرة أخرى، مبتسماً بتهكم، وأضاف: «أنا لست ساقطاً من سرير الأطفال، ها».

استاء أردوسين من تلك الرفاهية في اتخاذ التدابير الاحترازية. قال وهو غير قادر على كبح نفسه:

ـ كيف لم تتزوج إلى الآن وتفكر بالفعل في الطلاق؟ يا لها من سيئةٍ شيوعيتك! في أعماقك ما زلت اللاعب المخادع. لكن الصيدلي ابتهج في عجرفة المرابي الذي لا يمانع في الإهانة إذا كانت موجهة وقت دفع الفائدة. أجاب جوارانجو: ـ لا بد وأنك شخص تافه، يا هذا.

صُدِمَ أردوسين من تلك الوقاحة.

لقد فكر في المخلوقة الفاتنة وتخيّلها تدعم ذلك الوحش تحت سماء مظلمة بغيوم كثيفة مليئة بالغبار وتشتعل فيها الشمس الصفراء المشعة. كانت ستذبل مثل نبات مزروع في وقت الحصاد. الآن قام أردوسين بفحص الصيدلي مرةً أخرى ولكن بغضب.

لاحظ اللاعب حقد شريكه وقال:

ـ من الضروري فعل شيء ما ضد هذا المجتمع، يا رفيق.

هناك أيام أعاني فيها بشكل لا يُطاق. يبدو أن كل البشر أصبحوا وحوشاً. أشعر بأنك تريد الخروج والشروع في الإبادة أو وضع مدفع رشاش عند كل تقاطع. هل تفهم؟ الأوقات العصيبة قادمة.

«ينقسم الابن على الآب والآب على الابن. من الضروري فعل شيء ضد هذا المجتمع الملعون. لهذا السبب أنا سأتزوج عاهرة. يقول الكتاب المقدس جيداً: «وأنت يا ابن آدم، لن تحكم على مدينة الدماء وتريها كل رجسها». وهذه الكلمات الأخرى، انظر إلى تلك الكلمات الأخرى: «وقد تقع في حب الأشرار الذين لحمهم مثل لحم الحمير وانسيابهم مثل انسياب

الخيول». وأشار إلى القوادين، الذين كانوا يلعبون حول الطاولات، فقال: «ها هم هناك». دخل إلى رويال كيلر، ومارزوتو، وبيجال، ومايب، وستجدهم أينما ذهبت. القوات المفقودة. حتى هذا اللقيط يشعر بالملل في أعماقه. عندما تأتي الثورة، سيتم شنقهم أو إرسالهم إلى الصف الأول. كعلف للمدافع. يمكن أن أكون مثلهم وأستقيل.

الآن تأتي الأوقات العصيبة. لهذا يقول الكتاب: «وأنقذ الأعرج وأجمع الضال وأضعها في الثناء والشهرة في جميع أنحاء أرض الفوضى». لأن المدينة اليوم مغرمة بخبرائها وهم يغرقون، أعني العُرْج والضالعين، لكن عليهم أن يذلوا أنفسهم ويقبّلوا أقدام العُرْج والضالعين.

ـ لكن هل تحب هيبوليتا أم لا؟

ـ بالطبع أحبها. يبدو لي أحياناً أنها هبطت من القمر بواسطة سلم. أينما كانت تُشْعِر الجميع بالسعادة.

صدق أردوسين لوهلة أنها هبطت من القمر حتى ينعم كل الرجال ببساطتها وهدوئها.

وتابع الصيدلي:

ـ الآن تأتي أوقات الدماء، يا عزيزي، من الانتقام. الرجال في نفوسهم يبكون. لكنهم لا يريدون سماع صرخة ملاكهم.

والمدن مثل العاهرات، في حب الأشرار وقطاع الطرق. هذا لا يمكن أن يستمر على هذا النحو.

نظر إلى الشارع للحظة، وبعد ذلك بصوت داخلي يدعوه إلى الاهتمام، قال اللاعب بصوت مثير للشفقة في ذلك المقهى الممل:

ـ هناك رجل يجب أن يأتي، ملاك، لا أعرف. سوف يركع في منتصف أفينيدا دي مايو. ومن ثم تتوقف السيارات، سيظهر مديرو البنوك وأثرياء الفنادق في الشرفات ويلوحون بأذرعهم في سخط ثم يقولون له: «ماذا تريد أيها الرجل الضفدع؟ لا تسبب لنا أي ازعاج». لكنه سيستيقظ، وعندما يرون وجهه الحزين وعيناه تحترقان من الحمى، تتساقط أذرع الجميع، وسيخاطب الهمجيين، ويتحدث معهم، ويسألهم لماذا أخطأوا، لماذا نسوا اليتيم وسحقوا الرجل وجعلوا جحيم الحياة التي كانت جميلة جداً. ولن يعرفوا بماذا يجيبون، وسيتردد صوت الملاك الأخير بطريقة تجعلهم يصابون بقشعريرة، وحتى معظم المتوحشين سيبكون.

فم الصيدلاني كان يلوك الأسى؛ يبدو أنه يمضغ سمّاً مريراً نابضاً.

ـ نعم، من الضروري أن يأتي المسيح مرة أخرى. إن معظم البشر هزليون، ومعظم المتشككين اللطفاء ما زالوا يعانون. وإذا لم يأتِ، فمن سينقذنا؟

العائلة اسبيلا

توقف القطار في راموس ميخيا. كانت ساعة المحطة تشير إلى الثامنة مساءً. نزل أردوسين. وضباب كثيف يغطي شوارع المدينة الموحلة.

عندما وجد نفسه وحيداً في شارع سينتواريو، محجوباً من الأمام والخلف بجدارين من الضباب، تذكر أن بارسوت سيُغتال في اليوم التالي. لقد كان صحيحاً. سوف يغتالونه. كان يود أن تكون لديه مرآة أمام عينيه ليرى جسده القاتل، لذلك بدا من غير المرجح أنه (النفس) الذي بمثل هذه الجريمة كان سيفصل نفسه عن جميع الرجال.

احترقت الفوانيس في حزن، وتدفقت عبر شلالات الأنياب من الضوء القطني المتساقط على الفسيفساء، مما جعل المدينة غير مرئية لمدة خطوتين. اعترى أردوسين حزنٌ شديد، والذي كان يسير بيننا كان يكتنفه حزن أسوأ من الأبرص.

الآن لديه شعور بأن روحه قد انسحبت إلى الأبد من كل المحبة الأرضية.

وكان لديه أسى رجل يحمل بداخله كل أحقاد العالم، حيث من بين عظام الخطايا، تتثاءب نمور مطاطية ملطخة بالدماء، مؤكدةً قفزتها بنظرة عين.

وبينما كان أردوسين يتقدم، فكّر في حياته كما لو كانت حياة شخص آخر، محاولاً إدراك حقيقة أن تلك القوى المظلمة التي نبتت بداية من جذور أظافره حتى احتشدوا بالصفير في قضبانه مثل سيمون.

ملتفاً بالضباب الذي حمل قطرة من الرطوبة الثقيلة حتى آخر خلية في رئته، وصل أردوسين إلى شارع غاونا، حيث توقف لمسح جبينه المتعرق. طرق باباً خشبياً، المدخل الوحيد لواجهة مصنع ضخمة، بجانبه مصباح كيروسين معلق.

وفجأة، فتحت يده البوابة وتبع الشاب، الذي كان يغمغم بكلمات بذيئة، جوانب جدار على طول ممر من الطوب ينحني في الوحل تحت خطاه. توقف أمام زجاج الباب المضيء، وصفع يديه وصرخ في وجهه بصوت أجش: ـ إلى الأمام.

دخل أردوسين.

مصباح أسيتيلين مضاء، بلهب لامع، الرؤوس الخمسة لعائلة إسبيلا، التي كانت منحنية منذ لحظة فوق الصفائح. استقبلوه جميعاً بابتسامات وأصوات مرحة، بينما ركض إيميليو إسبيلا، الشاب الطويل النحيف غزير الشعر نحوه ليصافحه.

حيا أردوسين بالترتيب، أولاً: إسبيلا العجوز المنحنية بسبب السن ومغطاة بأردية سوداء؛ ثم الأختين الصغيرتين لوسيانا وإيلينا؛ ثم يوستاس الأصم، وهو عملاق أشيب الشعر ونحيف كما لو كان مصاباً بمرض السُّل، الذي، حسب عادته، يأكل وأنفه في الطبق، بينما عيناه الرماديتان تراقبان الهيروغليفية لمجلة ما، يفسرها على أنه يمضغ. شعر أردوسين بالانتعاش قليلاً من خلال ابتسامات لوسيانا وإيلينا الودية.

كانت لوسيانا طويلة الشعر وشقراء، ذات أنف مرفوع وفمها بشفتين طويلتين متعرجتين، متعرجتين مع اللون الوردي. كانت إيلينا ذات مظهر رهباني، بمظهرها البيضاوي الملون بالشمع وتنانيرها الطويلة، واليدين السمينتين والشاحبتين.

ـ هل تريد تناول العشاء؟ قالت العجوز.

ـ أجاب أردوسين، بينما كان ينظر إلى مدى انحناء النافورة، أنه قد فعل ذلك بالفعل.

ـ هل تناولتِ العشاء حقاً؟

ـ نعم، سأشرب بعض الشاي.

أفسحوا له مكاناً بجوارهم على الطاولة، وجلس أردوسين بين الأصم يوستاس الذي استمر في مشاهدة الهيروغليفية وإيلينا، التي وزعت ما تبقى من الحساء على إميليو والمرأة العجوز.

نظر إليهم أردوسين بشفقة. كان يعرف العائلة إسبيلا لسنوات عديدة. في وقت من الأوقات، احتلت الأسرة مكانةً راقية نسبياً، ثم ألقت بهم سلسلة من الكوارث في بؤس شديد، وقام أردوسين، الذي صادف أن وجد إيميليو في الشارع ذات يوم، بزيارتهم. لقد مرت سبع سنوات منذ أن رآهم، وقد اندهش عندما وجدهم جميعاً يعيشون في كوخ، هم الذين كانت لديهم خادمة وغرفة ومرحاض. كانت النساء الثلاث ينمن في غرفة مزدحمة بالأثاث القديم، وهو ما كان يفعله في ساعات العشاء أو الغداء، مثل غرفة الطعام، بينما لجأ إميليو والرجل الأصم إلى مطبخ صغير مصنوع من ألواح الزنك. لتوفير النفقات المنزلية، قاموا بأكثر الوظائف غير العادية: قاموا ببيع المرشدين الاجتماعيين، وآلات الآيس كريم محلية الصنع، وكانت الشقيقتان تقومان بالحياكة. في أحد أيام الشتاء القارس، كان الفقر شديداً لدرجة أنهم سرقوا عمود تلغراف وباعوه ليلاً. ومرة أخرى، قاموا بانتزاع جميع

أعمدة السياج، وقد أذهلته المغامرات التي قاموا بها حتى أوشكوا على الموت من أجل المال وشعر أردوسين تجاههم بالأسى لفترة من الوقت.

كان الانطباع الذي تلقيته في المرة الأولى التي قمت بزيارتهم فيها هائلاً. عاشت عائلة إسبيلا في منزل كبير بالقرب من تشاكاريتا، وهي تكنات من ثلاثة طوابق مع فواصل من الألواح الحديدية. كان للمبنى شكل عابرة المحيطات، وكان الأطفال يتدفقون منه كما لو كان المسكن عبارة عن كتيبة. لعدة أيام كان أردوسين يسير في الشوارع مفكراً في المعاناة التي كان على العائلة إسبيلا تحملها، لكي يستسلموا لتلك الكارثة، وبعد ذلك، عندما اخترع الوردة النحاسية، قيل إنه لرفع معنويات تلك العائلة كان من الضروري تطعيمهم بأمل ما، وبسرقة جزء من المال من مصنع السكر، اشترى مركماً مستخدماً، ومقياساً كهربائياً، وعناصر مختلفة لإنشاء ورشة عمل بدائية للطلاء بالكهرباء. وأقنع عائلة إسبيلا بضرورة تكريس أنفسهم لهذا العمل في أوقات فراغهم، لأنهم إذا نجحوا، فسيصبحون جميعاً أثرياء. وهو الذي كانت حياته خالية تماماً من الراحة والأمل، هو الذي شعر بالضياع لفترة طويلة، جاء ليقترح عليهم آمالاً قوية لدرجة أن عائلة إسبيلا وافقت على بدء التجارب، وكرست إيلينا نفسها بجدية شديدة لدراسة الطلاء بالكهرباء، بينما قام الرجل الأصم بتجهيز الحمامات وأصبح عملياً في هذا العمل لربط خيوط مقياس التيار في سلسلة أو توتر وفي التعامل مع المقاومة. حتى المرأة العجوز شاركت في التجارب ولم يشكك أحد في الفكرة، عندما تمكنوا من تكوين صفيحة من الصفيح، سيصبحون أغنياء في وقت قصير، إن لم تفشل خطة الوردة النحاسية.

تحدث أردوسين معهم أيضاً حول صنع الدانتيل الذهبي، والستائر الفضية، والشاش النحاسي، وحتى الخطوط العريضة لمشروع ربطة عنق معدنية التي أذهلتهم جميعاً. كانت خطته بسيطة في الأساس. سيتم تصنيع القمصان ذات المرايل المعدنية والأساور والياقات، مع الوضع في الاعتبار الجنس، والاستحمام في محلول ملحي وتعريضه لحمام الطلاء الكهربائي من النحاس أو النيكل. كان بإمكان جات، وشافيس، وهارودز، وسان خوان، شراء براءة الاختراع منه، وقد فكر أردوسين، الذي لم يؤمِّن إلا نصف هذه الطلبات،

في أحد الأيام أنه ذهب بعيداً في جعل هؤلاء الناس يحلمون، لأنه الآن، على الرغم من أنه لا يفعل ذلك. لم يدفع أي أموال لأحد، وكادوا يموتون جوعاً، أقل ما حلموا به كان من المقرر أن تستحوذ شركة أبان على سيارة رولز رويس وشاليه، ولا بد أن تكون موجودة في شارع ألفيار، وإلا فلن يكون مهتماً بها كممتلكات.انحنى أردوسين على فنجان الشاي، ثم ردت لوسيانا، التي كانت وردية قليلاً، على ابتسامة إميليو المتعجرفة بإشارة، لكن إميليو، الذي كان بلا أسنان بشكل غير عادي، لم يستطع التحدث إلا بالكثير من اللدغات، ثم قال: ـ أتَعيَم... إن الزهية هَي تم...

ـ نعم الحمد لله تمكنا من صنعها.

ـ لكن لوسيانا قفزت بنفاد صبر، وفتحت أحد الصناديق ومن ثم ابتسم أردوسين بحماس.

بين أصابع العذراء الشقراء كانت تقف الوردة النحاسية. في الكوخ البائس نبتت الزهرة المعدنية الرائعة بتلاتها الخميرية.

أدى ارتجاف شعلة مصباح الأسيتيلين إلى بروز ألوان حمراء شفافة، كما لو أن الزهرة تحركها حياة نباتية كانت قد أحرقت بالفعل بواسطة الأحماض والتي شكلت روحها.

رفع الرجل الأصم أنفه من على طبق الهندباء، وبصوت مصطنع هتف، بعد تفحص المجلة والزهرة:

ـ لا مجال للتراجع يا صديقي أردوسين، أنت عبقري!

عن طييق هذه الزهية سنصبح أغنياء.

ـ غمغمت المرأة العجوز: «اللهم تقبل منك».

ـ يكن يا أمي، يا تكوني بهذا الانزعاج.

ـ هل كلفك ذلك الكثير من العمل؟

شرحت لنا المرأة، بابتسامة جريئة وسلوك علمي.

ـ انظر، يا ريمو، لأن الوردة الأولى أعطيت شحنة زائدة، فقد احترقت.

ـ والحمام لم يمتصها؟

ـ لا، نعم، دعنا ندفئها قليلاً.

ـ لنمنحها حماماً؛ ستلتصق...

ـ هَي تَعيَم... حمام من الغراء الناعم... ناعم... فحص ريمو الوردة النحاسية مرة أخرى، معجباً بكمالها. كانت كل الأوراق حمراء وشفافة تقريباً، وتحت الطبقة المعدنية بالكاد يمكنك تحديد الشكل المضلع لورقة الزهرة الطبيعية، والتي أدت إلى اسمرار الجذع. كان وزن الزهرة خفيفاً، وأضاف أردوسين: ـ «يا لها من خفيفة! تزن أقل من نيكل». ثم لاحظ ظلاً أصفر غطى مدقات الزهرة، وخطوطاً مع تراجع البتلات، وأضاف:

ـ ومع ذلك، عندما تحملون الأزهار من الحمام، يجب عليكم غسلها بكمية كبيرة من الماء. هل ترون هذه الخطوط الصفراء؟ إنه السيانيد الموجود في الحمام الذي يهاجم النحاس.

ـ حوله جميع الرؤوس تشكل دائرة، واستمعوا إليه بصمت ديني. ثم تابع:

ـ يتكون من النحاس الذي يجب تجنبه وإلا فلن يهاجم حمام النيكل. كم من الوقت استمرت؟

ـ ساعة.

عندما رفع عينيه عن الوردة، التقت نظرته بعيون لوسيانا. كانت عينا البكر مخمليتين بدفء غامض وشفتاها تبتسمان وتكشفان عن أسنان لامعة. نظر إليها أردوسين بغرابة. كان الرجل الأصم يفحص الوردة، وكانت جميع الرؤوس المواجهة له تتبع بعناية الخطوط الصفراء للسيانيد. لم تخفض لوسيانا جفنيها. فجأة تذكر أردوسين أنه في اليوم التالي سيكون متورطاً في مقتل بارسوت، وحزنه الشديد جعله يخفض عينيه: ثم فجأةً، معادياً لأولئك المخدوعين الذين لم تكن لديهم أي فكرة عن معاناتهم والألم الذي ألمَّ بهم لأشهر، وتحملوه، نهض وقال: ـ حسناً، أراكم لاحقاً.

حتى الرجل الأصم نظر إليه مرتبكاً.

غادرت إلينا الكرسي ووقفت المرأة العجوز وذراعها ما زالت تحمل طبقاً كانت ستضعه أمام أوستاكيو.

ـ ما الأمر يا ريمو؟

ـ لكن مهلاً، أردوسين!

ـ نظرت إليه إيلينا بجدية: «هل هناك شيء ما بك يا ريمو؟».

ـ لا شيء يا إيلينا... صدقيني.

ـ هل أغضبك شيء؟ سألت لوسيانا، وعيناها ممتلئتان بدفء غامض وحزين.

ـ لا، لا شيء، أردت حقاً أن أراكم، والآن علي أن أذهب.

ـ هل أنت حقاً لست غاضباً؟

ـ لا سيدتي.

ـ إنها مشاعي القلق، أتفهمون؟

ـ اخرس أيها الشرير...

قرر الأصم التخلي عن الهيروغليفية وأصر على ما قاله من قبل.

ـ أحذرك أن عليك أن تأخذ هذا الأمر على محمل الجد، لأنك ستصبح ثرياً.

ـ ولكن ألم يصبك شيء ما؟

التقط أردوسين قبعته. شعر بالاشمئزاز الشديد من التلفظ بكلمات عديمة الجدوى. تم حل كل شيء. ما الذي سنتحدث عنه بعد ذلك؟ لكنه بذل مجهوداً ليقول: ـ صدقوني، أحبكم كثيراً كما في السابق، لست غاضباً، اهدأوا. عندي المزيد من الأفكار، الكلاب؛ سنبيع الكلاب المصبوغة باللون الأخضر والأزرق والأصفر والأرجواني. كما ترون، لدي الكثير من الأفكار، سوف تخرجون من هذا البؤس الرهيب، سأخرجكم، لدي الكثير من الأفكار. نظرت إليه لوسيانا برأفة وقالت: ـ سأرافقك، ومن ثم خرجا إلى الشارع معاً.

شكل الضباب في الزقاق دلواً انعكست فيه أضواء الفوانيس البترولية بحزن.

وفجأة، أمسكت لوسيانا بذراع أردوسين وقالت بصوت رقيق:

ـ أحبك، أحبك كثيراً!

نظر إليها أردوسين بسخرية، وتحول حزنه إلى قسوة. ثم نظر إليها قائلاً:

ـ أنا أعلم.

ثم تابعت:

ـ أنا أحبك كثيراً حتى أكون سبباً في إسعادك، فقد درست تصميم الفرن العالي ومحول بيسيمر. هل تريدني أن أخبرك ما هي الأحزمة وكيف يعمل التبريد؟

غلفها أردوسين بنظرة باردة مفكراً أنَّ هذه المرأة غير طبيعية.

وتابعت:

ـ لطالما كنت أفكر فيك. هل تريدني أن أشرح لك تحليل الفولاذ، وكيف يصهر النحاس، وكيف يتم صهره، وشكله، وطريقة غسل الذهب، وما هو الكثير؟

أردوسين، وهو يلاحق شفتيه بعناد، سار في الزقاق معتقداً أن الاحتياج لوجود الرجال أمر سخيف، ومرة أخرى تأجج الاستياء غير المبرر منه تجاه الفتاة اللطيفة التي ضغطت على ذراعه وقالت: ـ هل تتذكر تلك المرة التي قلت فيها إن هدفك الأسمى هو أن تكون رئيس فرن مرتفع؟ لقد دفعتني للجنون. لماذا لا تتكلم؟ لذلك بدأت في دراسة علم المعادن. هل تريدني أن أشرح الفرق بين التوزيع غير المنتظم للكربون والتوزيع الجزيئي المثالي؟ لماذا لا تتكلم يا عزيزي؟

كان يشعر بضجيج القطار الباهت الذي يمر من بعيد، ويتحول الضباب اللبني إلى ظلام على مسافة قصيرة بعيداً عن الفوانيس، كان أردوسين يريد أن يتكلم، ويشرح مصيبته، لكن هذا الورم الخبيث الأصم والمتصلب جعله جامداً أمام العذراء التي أصرت: ولكن ماذا عندك؟ هل أنت غاضب منّا؟ ومع ذلك، سوف ندين لك بثروتنا.

تفحصها أردوسين من رأسها إلى أخمص قدميها، وضغط على ذراع الفتاة وقال:

ـ أنا لست معجباً بك.

ثم أدار ظهره لها، وقبل أن تتجه نحوه، بخطوات مسرعة انصهر في الضباب.

لقد فهم أنه قد أغضب الفتاة عامداً، وهذا الاقتناع جلب له فرحة قاسية لدرجة أنه تمتم في أنفاسه:

ـ أتمنى أن ينفجروا جميعاً ويتركونني وشأني.

روحان

عند الساعة الثانية فجراً، كان أردوسين ما يزال يسير بين جدران من الرياح، عبر شوارع المركز، بحثاً عن ماخور.

يلهث صوت مكتوم في أذنيه، ولكن بعد جنون الغريزة سار في الظل الذي ألقته الواجهات العالية على المؤكدين. كان فيه حزن رهيب. في ذلك الوقت لم تكن لديه اتجاهات.

أثناء سيره أثناء نومه، سار، وعيناه غير متحركتين عن الأسهم المطلية بالنيكل التي كانت في خوذات الحراس تجعل أسطوانات الضوء التي تسقط من الأقواس الفولتية تلمع في التقاطعات؛ هذه هي الطريقة التي كان يأتي بها بلازا مايو، والآن، من خلال كانغالو، كان يودع من خلفه محطة الأحد عشر.

كان يؤوي حزناً رهيباً.

كرر تفكيره، غير متحرك في الواقع:

ـ لا فائدة، أنا قاتل. لكن فجأة، عندما ظهر المكعب الأحمر أو الأصفر من رواق أحد البارات، توقف، متردداً للحظة غمره ضباب ضارب إلى الحمرة أو الصفرة، ثم قال لنفسه: «سأدخل في وقت لاحق»، ثم واصل طريقه.

صامتاً، بجانبه، سيارة تدحرجت حتى اختفت مسرعةً، وفكر أردوسين في السعادة التي لن يحظى بها أبداً وفي شبابه الضائع، وسرعان ما تقدم ظله على البلاط، ثم فقد طوله، وبدأ بالدهس فوق ظله، تارة يقفز على ظهره وتارة يذوب في شبكة المجاري اللامعة، لكن

معاناته كانت تزداد ثقلاً في كل لحظة، كما لو كانت كتلة من الماء، متعبة من المد والجزر العمودي على أطرافها. على الرغم من ذلك، تخيل أردوسين أنه دخل بيتاً للدعارة لمنفعته والاعتناء به.

كانت صاحبة البيت تفتح له باب غرفة النوم، وكان يرمي بنفسه على السرير بملبسه. في الزاوية كان الماء من القدر يغلي على موقد الكيروسين... وفجأة تدخل الفتاة نصف عارية، توقفت في دهشة لسبب يعرفه هو وهي فقط، صاحت العاهرة: ـ آه! هل أنت؟ أنت! جئت أخيراً!

أجاب أردوسين:

ـ نعم، أنا... آه، إذا كنت تعرفين فقط كم بحثت عنك!

لكن بما أنه كان من المستحيل حدوث ذلك، فقد ارتد حزنه مثل كرة الرصاص على جدار مطاطي. وكان يعلم جيداً أن شوقه إلى أن يُشفَق عليه فجأةً، من قبل عاهرة مجهولة، سيكون دائماً غير فعّال مثل تلك الكرة على مدار الأيام، في محاولة لاختراق تلك الحياة الكثيفة. مرة أخرى تكرر: ـ آه! إنه أنت؟ أنت... آه! أخيراً أتيت، حبي الحزين... لكن كل هذا كان بلا طائل، لن يجد تلك المرأة أبداً، وطاقة قاسية من اليأس، اتسعت لها عضلاته، اندمجت مع كتلته التي تزن سبعين كيلو غراماً، وتحركها بخفة التوجه من خلال الظلام، بينما في مكعب صدره، حزن شديد جعل نبض قلبه ثقيلاً.

وفجأة وجد نفسه أمام بوابة المعاش التي كان يعيش فيها، ثم قرر الدخول. قلبه ينبض بفارغ الصبر.

على أطراف أصابعه، عبر الرواق، واقترب من باب غرفته، وفتحه خلسة. بعد ذلك، مد يده في الظلام، وذهبت إلى الزاوية حيث موضع الأريكة وجلس هناك ببطء، متجنباً صرير الينابيع. في وقت لاحق لم يجد شرحاً لهذا الموقف. مد رجليه على الأريكة ووقف لبضع

دقائق مع وضع مؤخرة رقبته على تقاطع يديه. وكانت هناك ظلمة في روحه أكثر مما كانت عليه في تلك اللحظة من الظلام، والتي ستتحول إلى مكعب ورق حائط إذا أشعل المصباح. أراد أن يصب تفكيره على شيء موضوعي، وهو أمر مستحيل. تسبب هذا في خوف طفولي معين. كان يقظاً للحظة، لكن لم يصله أي صوت، ثم أغمض عينيه. كان قلبه يعمل بنبض أجش، يدفع كتلة دمه، وقشعريرة من الماء جعلت شعر ظهره يقف حتى النهاية. مع جفون متصلبة وجسم صلب، كانت تنتظر حدثاً ما. فجأةً أدرك أنه إذا استمر في هذا الموقف، فسوف يصرخ خوفاً، ويحمل حذاءه، متربعاً مثل بوذا، ينتظر في الظلام. كان موقفاً شديداً، لكنه لم يستطع الاتصال بأحد، ولا يمكنه البكاء. ومع ذلك، لم يكن الأمر يتعلق بالاستمرار هكذا طوال الليل، جالساً القرفصاء. أشعل سيجارة ومنعته عن الحراك نزلة برد شديدة.

كانت كريبل واقفة على حافة الشاشة وتفحصها بنظرتها الباردة السامة. غطى شعرها المنقسم شريطين مستقيمين، وأذنيها بجناحيها الأحمرين، وشفتا المرأة كانتا مشدودتين.

كان كل شيء فيها ينم عن اهتمامٍ زائدٍ، لكن أردوسين كان خائفاً. ثم أخيراً تمكَّن من القول:

ـ أنت!

أحرق الفوسفور أظافره، وفجأة أوقفته دفعة هي أقوى من خجله. مشى نحوها في الظلام وقال:

ـ أنت؟ ألا تنام أنت؟

شعر أنها تمد يدها. أخذت يد المرأة ذقنه بين أصابعها وقالت هيبوليتا بصوت عميق:

ـ ماذا لديك كي لا تنام؟

ـ هل تداعبينني يا سيدتي؟

ـ لماذا لا تنام؟

ـ هل تلمسينني أنا يا سيدتي؟ ولكن يا لبرودة يديك!

ـ أشعل المصباح.

في الضوء العمودي، يحدق بها أردوسين. بينما جلست هي على الأريكة.

غمغم أردوسين بخجل:

هل تريدنني أن أجلس بجانبك؟ لم أستطع النوم.

أفسحت هيبوليتا مكاناً له، وبجانب الضيف، لم يستطع أردوسين احتواء القوة التي رفعت يديه، وبأطراف أصابعه كان يداعب جبهتها.

ـ لماذا أنت هكذا؟ سألها.

نظرت إليه المرأة بهدوء.

نظر إليها أردوسين للحظة في يأس صامت. وأخيراً، التقط يدها الجميلة. كان على وشك رفعها إلى شفتيه، لكن قوة غريبة اصطدمت بحساسيته، ثم بدأ في البكاء ثم انهار على تنورة المرأة.

كان يبكي بشكل متشنج في حضن الدخيل المستقيم ونظراتها المتصلبة على رأسه المهتز. كان يبكي بشكل أعمى، حياته مليئة بغضب أجش، تصد الصرخات التي جددت دموعه غير المكتملة آلامَه الرهيبة، وتدفق الأسى منه بشكل لا ينضب، وغمره بالمزيد من الحزن، الحزن الذي تصاعد في حلقه. فكان يتألم لعدة دقائق، يعض منديله حتى لا يصرخ، بينما صمتها كان له نعومة تتكئ عليها روحه المنهكة، ثم نفدت المعاناة الصارخة. دموعه على صدره، ووجد راحة في الاستلقاء بهذه الطريقة، مع الخدود المبللة، في حضن المرأة. غمره

إرهاق هائل، وانتهى الأمر بمحو صورة زوجته البعيدة من على سطح حزنه، وبينما بقي على هذا الحال، ألم به هدوء مشفق تسبب في نزعه من كل الكوارث التي تم إعدادها.

رفع وجهه المتورد، الذي خطته ثنايا القماش، وكان مبللاً بالدموع.

نظرت إليه بهدوء.

ـ «هل أنت حزين؟»، سألته.

ـ نعم.

ثم اعتراهما الصمت وأضاء وميض من البرق البنفسجي تجاويف الفناء المظلم، إذْ كانت تمطر.

ـ هل تريدنا أن نشرب القهوة؟

ـ نعم.

في صمت أعدّ الماء. حدقت بتجرد في النوافذ حيث كان المطر يتساقط، بينما كان أردوسين يجهز المشروب. ثم قال مبتسماً بالدموع: ـ أنا أطعمها على طريقتي. سوف تعجبك.

ـ لماذا أنت حزين؟

ـ لا أعرف... الألم... لم أعش بسلام منذ فترة طويلة.

كان يشرب القهوة في صمت، وفي الغرفة مع ورق الحائط المقشر في إحدى الزوايا، أصبحت شخصية المرأة أكثر كمالاً، ملفوفة في معطف فرو، وشعرها الأحمر ممشط في شريطين يغطيان أطرافها أذنيها.

وأضاف بابتسامة طفولية:

ـ عندما أكون وحيداً... اعتدت على الشرب أحياناً.

ابتسمت ودياً، واضعةً إحدى ساقيها فوق الأخرى، وظهرها منحنٍ قليلاً، وأحد الكوعين مستريح على راحة يدها وأصابع الأخرى ممسكة بالكوب، الذي رشف من حروفه المطلية بالنيكل ببطء.

وكرر أردوسين: «نعم، كان حزيناً». ولكن يا لبرودة يديك! هل هي دائماً شديدة البرودة هكذا؟

ـ نعم.

ـ هل تعطيني يدك؟

قامت الضيفة بالاعتدال في جلستها ومدت يديها له بشكل راقٍ تقريباً. أخذها أردوسين بحذر وجذبها إلى شفتيه، وحدقت فيه لفترة طويلة، ذابت البرودة في مقلتيها، وتحولت الى حرارة مفاجئة غمرت وجنتيها. ثم تذكر أردوسين الشخص المحكوم عليه بالموت، وبدون أن يتمكن من التغلب على البهجة الباهتة التي كانت فيه، قال: ـ انظر... إذا طلبت مني الآن أن أقتل نفسي، فسأفعل. أنا سعيد جداً.

لقد ضاعت الحرارة التي رجَّت مياه عينيه قبل قليل مرة أخرى في برودة نظراتها.

كانت المرأة تفحصه بفضول.

ـ أعني على محمل الجد. أنا ذاهب الآن، من الأفضل أن تطلبي مني قتل نفسي، أخبرنيي، ألا تعتقدين أنه من الأفضل لبعض الأشخاص أن يغادروا؟

ـ لا.

ـ حتى لو فعلوا أسوأ ما عندهم؟

ـ حكمهم بيد الله.

ـ إذاً، ليس ذا أهمية الحديث عن ذلك.

مرة أخرى رشفوا رشفة في صمت، عمَّ الصمت حتى يتمكن من الاستمتاع بمشهد المرأة ذات الشعر الأحمر، وهي ملفوفة في معطفها المصنوع من الفرو، ويداها الشفافتان تغطيان الركبة فوق الفستان الحريري الأخضر.

وفجأة، غير قادر على احتواء فضوله، صرخ:

ـ هل صحيح أنك كنت خادمة؟

ـ نعم، ما المميز فيها؟

ـ يا للغرابة!

ـ لماذا؟

ـ نعم هذا غريب. يبدو لي أحياناً أنني سأجد في حياة أخرى ما هو مفقود في حياتي هذه. وقد ورد لشخص ما أن هناك من اكتشف سر السعادة، وأنهم إذا ما أخبرونا بالسر فسنكون سعداء أيضاً.

ـ لكن حياتي بلا شك ليست سراً.

ـ ولكن، ألم تشعر أبداً بشيء غريب في الحياة؟

ـ نعم، نعم.

ـ أخبريني.

ـ كان ذلك عندما كنت طفلة صغيرة. كنت أعمل في منزل جميل في حي ألفير. كان هناك ثلاث فتيات وأربع خادمات. واستيقظت في الصباح ولم أدرِ أنني كنت أتنقل بين الأثاث الذي لا يخصني وأولئك الذين تحدثوا معي فقط كانوا ممن أعمل في خدمتهم. وفي بعض الأحيان بدا لي أن الآخرين كانوا عالقين بشكل قوي في الحياة، وفي منازلهم، بينما كنت أشعر أنني حرة، مشدودة قليلاً بحبل إلى الحياة. وأصوات الآخرين بدت في أذني كما لو أن المرء نائمٌ ولا يعرف إذا كان يحلم أو كان مستيقظاً.

ـ لا بد وأنك حزين.

ـ نعم، إنه لأمر محزن أن ترى الآخرين سعداء وأن ترى أن الآخرين لا يفهمون أن إحداهن ستكون تعيسة مدى الحياة. أتذكر أنه في وقت القيلولة كنت أدخل غرفتي الصغيرة وبدلاً من أن أرتق ملابسي، كنت أفكر: هل سأعيش خادمة طوال حياتي؟ ولم يكن يتعبني العمل، لكن ترهقني أفكاري. ألم تلاحظ كم هي عنيدة الأفكار الحزينة؟

ـ نعم، لا يغادرون أبداً. كم كان عمرك في ذلك الوقت؟

ـ ستة عشر عاماً.

ـ ألم تنامي حتى ذلك الحين مع رجل؟

ـ لا، لكنني كنت حانقة، حانقة على كوني خادمة مدى الحياة، أيضاً، كان هناك شيء أثار إعجابي أكثر من أي شيء آخر. كان هناك أحد الأطفال. كان يتواعد وكان كاثوليكياً جداً. لقد فاجأته وهو يداعب نفسه أكثر من مرة مع ابنة عمه التي كانت خطيبته، الآن أدركت ذلك: فتاة حساسة، وتساءل كيف كان من الممكن التوفيق بين الكاثوليكية والحماقة؟ انتهى بي المطاف بالتجسس عليه بشكل لا إرادي، لكنه، الذي كان شهوانياً جداً مع

صديقته، كان مستقيماً جداً معي. لاحقاً أدركت أنني كنت أرغب فيه، لكن الوقت كان متأخراً، كنت في منزل آخر.

ـ ثم؟

دائماً مع ثقل أفكاري. ماذا أريد من الحياة؟ إذاً أنت لا تعرف؟ في كل مكان كانوا لطفاء معي. فيما بعد سمعت أقوال سيئة عن الأغنياء، لكني لم أعرف كيف أرى هذا السوء. كانوا يعيشون هكذا. ما هو احتياجهم كي يكونوا سيئين، ليس صحيحاً؟ كنَّ الفتيات وأنا الخادمة.

ـ ثم؟

ـ أتذكر أنني ذات يوم كنت في الترام مصاحبة لإحدى ربّات عملي. كان هناك اثنان من النُدُل يتحدثان على المقعد المجاور. هل لاحظت أن هناك أياماً تبدو فيها كلمات معينة مثل أصوات الطبول في الأذنين، كما لو كان المرء دائماً أصمَّ ولأول مرة سمع الناس يتحدثون؟ جيد. أحد النُدُل قال: «المرأة الذكية، حتى لو كانت قبيحة، إذا وهبت نفسها لحياة سيئة، ستغتني، وإذا لم تقع في حب أحد ما، فقد تصبح ملكة مدينة. إذا كان لدي أخت، فإنني سأنصحها بنفس الشيء». عندما سمعت ذلك، كنت أشعر بالبرد في المقعد. هذه الكلمات أذابت خجلي على الفور وعندما وصلنا إلى نهاية الرحلة بدا لي أنهما لم يكونا غريبين، هما من تحدثا بهذه الكلمات، لكن أنا، وأنا التي لم أتذكرها حتى تلك اللحظة. ولأيام عديدة كنت منشغلة بمشكلة كيف أكون امرأة سيئة السمعة.

ابتسم أردوسين:

ـ رائع!

ـ أول راتب شهري صرفته على شراء الكثير من الكتب التي كانت تتحدث عن الحياة السيئة. كنت مخطئة، لأن جميعها تقريباً كانت كتباً إباحية... غبية... لم تكن هذه هي الحياة

السيئة، بل حياة المتعة السيئة... وصدقني، لم يستطع أي من أصدقائي أن يشرح لي، في الجوهر، ما هي الحياة السيئة.

ـ هيا! الآن لست متفاجئاً أن إرجويتا وقع في حبك؛أنت امرأة رائعة.

ابتسمت هيبوليتا بخجل.

ـ لا تبالغ... أنا امرأة عاقلة لا أكثر.

ـ احكِ أيتها المخلوقة اللذيذة.

أغلقت هيبوليتا طية صدر السترة من معطفها على صدرها قائلة: يا لك من فتى! كنت أعمل كما هي العادة، طوال اليوم ولكن كان العمل يبدو غريباً بالنسبة لي، أعني أنني خلال مسح الأرض أو ترتيب السرير كان تفكيري بعيداً وفي الوقت نفسه عميقاً جداً بداخلي، لدرجة أنه بدا لي أحياناً أنه إذا ما ازداد هذا التفكير لدرجة كبيرة الفكر فإن جلدي كان سيتضخم وينفجر. لكن المشكلة لم يكن لها حل. كتبت إلى محل لبيع الكتب أسأل عما إذا لم يكن لديهم أي دليل عن كيف تكون امرأة سيئة ولم يردوا علي، حتى قررت في يوم من الأيام مقابلة محام لتوضيح هذه النقطة. ذهبت إلى قاعة المحكمة وسرت كثيراً في الشوارع، كنت أنظر إلى لوحة، وأخرى، إلى أخرى، حتى توجهت إلى شارع جونكال، وتوقفت أمام منزل فخم، وتحدثت مع البواب، وأخذني لمقابلة دكتور في القانون.

أتذكر كما لو كان اليوم. كان رجلاً رقيقاً وخطيراً، كان لديه وجه متشرد بالكامل، لكن عندما ابتسم بدت روحه كأنها لطفل. لاحقاً، مع التفكير، توصلت إلى استنتاج مفاده أن هذا الرجل قد عانى كثيراً.

رشف رشفة طويلة من القهوة ثم أعادها فقال:

ـ كم هو حار هنا! هل تريدين فتح النافذة؟

فتح أردوسين النافذة. كانت لا تزال تمطر حتى ذلك الحين. ثم تابعت هيبوليتا:

ـ لم أتردد، قلت له: دكتور! أنا قادمة لرؤيتك لأنني أريد أن أعرف ما هي الحياة السيئة. الآخر ظل محدقاً بي في دهشة. بعد التفكير بضع لحظات، قال لي: «ما الغرض وراء معرفة ذلك؟»، شرحت أهدافي بهدوء وكان يستمع إليَّ باهتمام، عابساً، يفكر في كلامي. وأخيراً قال: «في النساء، تُسمَّى الأفعال الجنسية بدون حب وبغرض الربح حياة سيئة». ملخص الأمر، أي أنه من خلال الحياة السيئة، تتخلص المرأة من الجسد لتصبح حرة.

ـ هل أجبت على تساؤلاتك؟

ـ نعم.

ـ إنه لأمر غريب!

ـ لماذا؟

ـ ولاحقاً؟

ـ تقريباً دون أن أقول وداعاً، خرجت إلى الشارع. كنت سعيدة، لم أكن في يوم من الأيام أسعد من ذلك اليوم. الحياة السيئة يا أردوسين، كانت هي التخلص من الجسد، ولديك الإرادة الحرة للقيام بكل الأشياء التي يريد المرء القيام بها. كنت في حالة من السعادة العارمة لدرجة أن أي شاب كان سيمر بجانبي ويدعوني بكلمات جميلة، كنت سأسلم نفسي إليه.

ـ ولاحقاً؟

ـ يا لها من مفاجأة! عندما قام الرجل... لقد أخبرتك بالفعل أنه كان شاباً وسيماً، سقط مثل اللحم البقري بعد إخماد شهوته. أول ما خطر لي هو أنه كان مريضاً، لم أتخيل ذلك قط. لكن عندما أوضح لي الآخر أن هذا طبيعي في كل الرجال، لم أستطع كتم الرغبة في الضحك.

إذاً الرجل، الذي بدت قوته لا تُحصى مثل قوة الثور... حسناً، لم ترَ أبداً لصاً في مكان مليء بالذهب؟ في ذلك الوقت كنت، الخادمة، اللص في المكان الممتليء بالذهب. وفهمت أن العالم كان ملكي. في وقت لاحق، قبل أن أبدأ في امتهان الدعارة، قررت أن أدرس، نعم، لا تنظر إلي بدهشة، لقد قرأت عن كل شيء. لقد توصلت إلى الاستنتاج بقراءة الروايات التي أثبتت أن الرجل يكتنفه شعور استثنائي عند حبّه امرأة متعلمة، لا أعرف إذا كنت أفسر ما أريد قوله جيداً... أريد أن أخبرك أن الثقافة كانت قيمة تزيد من ثمن البضائع.

ـ هل وجدت متعة في الاستحواذ؟

ـ لا، لكن بالعودة إلى أول شيء: قرأت عن كل شيء.

كان أردوسين مسروراً بسخرية المرأة، وبتوسلٍ قال:

ـ هل تعطيني يدك؟

سلمتها له بطريقة جدية.

أخذها أردوسين بحذر. ثم جذبها إلى شفتيه ونظرت إليه لفترة طويلة؛ لكن ريموس تذكر فجأة الرجل المسلسل؛ سيكون الآن قد استيقظ في الإسطبل، ودون أن يتمكّن من التغلُّب على الحلاوة التي تغرق حواسه، قال: ـ انظري، إذا طلبت مني الآن قتل نفسي، فسأفعل ذلك سعيداً.

نظرت إليه لفترة طويلة من خلال رموشها الحمراء.

ـ أنا جاد. غداً، اليوم، من الأفضل... اطلبي مني أن أقتل نفسي، أخبريني بذلك، ألا تعتقدين أن بعض الناس يجب أن يحذفوا من على البسيطة؟

ـ لا، هذا لا يحدث.

ـ حتى لو أصبحوا قطاع طرق؟

ـ من يستطيع أن يحكم على آخر؟

ـ إذاً دعينا لا نتحدث بعد الآن.

ـ كانوا يرشفون الشراب في صمت مرةً أخرى. تذوّق أردوسين حلاوة أشياء كثيرة. فنظر إليها ثم قال:

ـ يا لك من مخلوق غريب!

ابتسمت بسبب الإطراء، ومن ثم دخلت حفلاً في روحه.

ـ هل تريد مني أن أضع المزيد من الحشيش؟

ـ نعم.

فجأةً نظرت هيبوليتا إليه بجدية.

ـ من أين لك بتلك الروح؟

كان أردوسين على وشك التحدث عن معاناته، لكنه امتنع في حياء، وقال:

ـ لا أدري، فكرت مرات عديدة في التطهير، كنت أتمنى أن أكون رجلاً نقياً، وتابع: شعرت بالحزن مرات عديدة لأنني لست رجلاً نقياً. لماذا؟ لا أعلم. لكن هل يمكنك أن تتخيّلي رجلاً بروح بيضاء، يحب لأول مرة، وأنهن جميعاً متشابهات؟ هل يمكنك أن تتخيلي مقدار الحب الهائل بين امرأة نقية ورجل نقي؟ ثم، قبل أن يسلما نفسيهما لبعضهما، كانا يقتلان بعضهما... أو لا؛ ستكون هي التي ستعرض عليه نفسها يوماً ما، ثم سينتحران، مدركين عدم جدوى العيش بدون أوهام.

ـ بلا شك، هذا غير ممكن.

ـ لكنه موجود. ألم ترَي كم عدد أصحاب المتاجر والحائكات الذين ينتحرون معاً؟ لقد أحبوا بعضهم... لا يمكنهم الزواج... يذهبون إلى فندق... هي تسلم له نفسها ثم يقتلان بعضهما.

ـ نعم، لكنهم يفعلون ذلك بغير وعي.

ـ من الجائز.

ـ أين تناولت العشاء الليلة الماضية؟

تحدث أردوسين عن العائلة إسبيلا، موضحاً لها كيفية سقوط هؤلاء الناس في بئر البؤس.

ـ ولماذا لا يعملون؟

ـ من أين يحصلون على عمل؟ يبحثون عنه ولا يمكنهم العثور عليه. هذا هو الشيء الفظيع. حتى أنني لاحظت أن البؤس قد دمر فيهم الرغبة في العيش. الأصم يوستاس لديه موهبة في الرياضيات؛ يعرف حساب التفاضل والتكامل. لكن لا فائدة تعود عليه من ذلك.

يعرف «دون كيشوت» ذلك أيضاً عن ظهر قلب، لكن يجب أن يكون لديه شيء خارج عن المركز في فهمه. هذه الحقيقة ستصوره لك: في سن السادسة عشرة أرسلوه لشراء حشيش وذهب إلى صيدلية بدلاً من الذهاب إلى المستودع. وبعد عدة تفسيرات قال إن العشب منتج طبي، هكذا كان قد درس في علم النبات.

ـ ليس له معنى عملي.

ـ هذا كل شيء. بالإضافة إلى ذلك، فهو لاعب ماهر؛ لحل لغزٍ ما سيكون قادراً على نسيان طعامه، وعندما يكون لديه القليل من البنسات يذهب إلى محال الحلويات لينغمس في

الحلوى.

ـ يا له من شخص غريب!

ـ من ناحية أخرى، إميليو ولد جيد. لقد قال لي، إنه على يقين من أن حالتهم العقلية، البائسة والغريبة، هي نتيجة وراثية، وانطلاقاً من هذا الأساس يتحكم في حياته كلها، فيتحرك ببطء سلحفاة. يمكن أن يستغرق ساعتين لارتداء ملابسه. يبدو أن كل ما يفعله يتمّ في جو من التردد غير العادي.

ـ والأخوات؟

ـ تفعل النساء الفقيرات ما بوسعهن؛ يخطن، يقدّمن رعاية في منزل صديق، يعتنين بصبي يعاني من مرض استسقاء الرأس الذي يجعل رأسه أكبر من البطيخ.

ـ يا له من أمر مروع!

ـ ما لا أفهمه هو كيف اعتادوا كل ذلك. لهذا السبب بعد أن قمت بزيارتهم، شعرت بالحاجة الكبيرة لتحفيزهم. وبما أنني تحدثت جيداً، فقد نجحت. وكرسوا أنفسهم للوردة النحاسية.

ـ ما هذا؟

شرح أردوسين تأملات اختراعه. في البداية، بعد فترة وجيزة من زواجه، كان يحلم بإثراء نفسه باكتشاف. احتل خياله ليالي الآلات غير العادية، وقطع غير مكتملة من الآليات التي تحول التروس المشحمة...

ـ ولكن إذاً أنت مخترع؟

ـ لا، ليس الآن، كان هذا مهماً بالنسبة لي.

كان هناك وقت كنت فيه جائعاً، الجوع الرهيب للمال، ربما سئمت من الجنون الذي تغير. الآن، عندما تحدثت معهم عن ذلك، لم يكن ذلك لأنني كنت مهتماً بالأمر مالياً، ولكن لأنني كنت بحاجة إلى رؤيتهم متحمسين، كنت بحاجة إلى أن أرى بأم عيني هؤلاء الفتيات الفقيرات اللائي يحلمن بفساتين حريرية، وعريس وسيم، وسيارة عند باب فيلا لن تكون لديهن. والآن أنا متأكد من أنهنَّ يؤمنَّ بكل ذلك.

«هل كنت دائماً هكذا؟».

ـ أحياناً لا. ألم يخطر ببالك في وقت من الأوقات أن تشعر بالرغبة في القيام بأعمال الرحمة؟ أتذكر الآن هذه الحقيقة الأخرى. أقول لك لأنك سألتني في وقت سابق عن روحي. أنا أتذكر قبل عام، كان يوم السبت، في الثانية صباحاً، أتذكر أنني كنت حزينة وذهبت إلى بيت دعارة. الغرفة مليئة بالناس الذين ينتظرون دورهم. فجأةً انفتح باب غرفة النوم وظهرت المرأة... تخيلوا وجهاً مستديراً لفتاة تبلغ من العمر ستة عشر عاماً؛ عينان زرقاوان وابتسامة تلميذة. كانت ملفوفة بمعطف أخضر وكانت طويلة إلى حدٍّ ما، لكن وجهها كان وجه تلميذة. نظرتْ حولها، كان الوقت متأخراً؛ قام رجل أسود بشع بشفاه من الورق المقوى، وبعد ذلك قامت هي التي لفّتنا جميعاً في وعد، تراجع بحزن نحو غرفة النوم، تحت نظر صاحبة الأرض القاسية.

توقف أردوسين للحظة، ثم تابع بصوت أنقى وأبطأ:

ـ صدقني... إنه أمر محرج للغاية أن تنتظر في بيت دعارة. لا يشعر المرء بالحزن أبداً مما هو عليه هناك، محاطاً بوجوه شاحبة تريد الاختباء بابتسامات كاذبة، يهرب، الإلحاح الجسدي الرهيب. وهناك أيضاً شيء مهين، لا تدري ما هو، لكن الوقت يمر في الأذنين، بينما الأذن المتحمسة تسمع صرير السرير هناك، ثم صمت، فيما بعد، ضجيج الغسل. ولكن قبل أن يأخذ أي شخص مكان الرجل الأسود، تركت مقعدي وذهبت إلى المقعد الآخر.

كنت أنتظر وقلبي ينبض، وعندما ظهرت على العتبة قمت.

ـ دائماً إنَّ... واحداً تلو الآخر.

ـ نهضت ودخلت، وأغلق الباب مجدداً؛ تركت النقود في المغسلة، وعندما كانت على وشك فتح ثوبها، أخذتها من ذراعها وقلت: «لا، لم آتِ للنوم معك».

الآن اكتسب صوت أردوسين سيولة نابضة بالحياة.

ـ نظرت إليّ وبالتأكيد أول شيء اعتقدته هو أنني لم أكن شريراً؛ لكن بالنظر إليها بجدية، صدقني، لقد تأثرت، قلت: «انظر، لقد دخلت لأنني شعرت بالأسف من أجلك». جلسنا الآن بجانب وحدة التحكم في مرآة مذهبة، وكانت هي، بوجه تلميذتها الصغيرة، تفحصني بجدية. أنا أتذكر!

كما لو كانت الآن. قلت: نعم، لقد شعرت بالأسف من أجلك. أعلم بالفعل أنك ستربح ألفين أو ثلاثة آلاف بيزو شهرياً، وأن هناك عائلات يسعدها أن تحصل على ما ترميه في الأحذية، أعلم، لكنك أعطيتني شفقة، مؤسفٌ جداً رؤية كل شيء جميل تمقته في نفسك.

كانت تنظر إلي بصمت، لكنني لم أشم رائحة النبيذ.

ثم ظننت... خطرت لي بمجرد دخول الأسود، لتترك لك ذكرى جميلة، وأجمل ذكرى خطرت لي بتركك كانت هذه، للدخول وليس اللمس. أنت، وأنت لاحقاً ستتذكر دائماً تلك اللفتة.

لاحظ أنه بينما كنت أتحدث، كان رداء البغيّ قد انفصل عن ثدييها، بينما كان على ساقيها المتقاطعتين... فجأة، نظرت إلى نفسها في المرآة، تدارَكَتْ، وسرعان ما خفضت الفستان على ركبتيها، وأغلقت صدريتها. لقد تركت هذه الإيماءة انطباعاً غريباً عني، كانت تنظر إليّ دون أن تنطق بكلمة واحدة. من يعرف ما كنت أفكر فيه... فجأةً طرقت صاحبة الأرض بقبضتها على الباب، نظرت في هذا الاتجاه بضيق، ثم التفتت بوجهها الصغير نحوي، نظرت إليّ للحظة، نهضت، أخذت البيزوات الخمسة وكافحَت لوضعها في جيبي وهي تقول: «حارس المرمى». كنا نقف، كنت على وشك الخروج من الباب الآخر، وفجأة، مع نظرتها إلى

نظري، شعرت بذراعيها مربوطتين حول رقبتي، كان لا يزال ينظر إليّ في عيني ويقبّلني في فمي... ماذا أقول لك عن تلك القبلة! مرّر يده على جبهتي وعندما كنت على العتبة قال: وداعاً أيها الرجل الكريم!

ـ ولم تعد؟

ـ لا، لكني آمُل أن نلتقي ذات يوم. من يعرف أين، لكنها، لوسيان، لن تنساني أبداً. ستمر الأزمنة، وستتجول في أكثر بيوت الدعارة بؤساً، ستصبح وحشية، لكنني سأظل دائماً فيها كما اقترحت، كأغلى ذكرى في حياتها. كان المطر يدق على ألواح الباب وفسيفساء الفناء. امتص أردوسين رفيقه ببطء.

نهضت هيبوليتا، وذهبت نحو النافذة، ونظرت إلى الفناء الأسود للحظة. ثم استدارت قائلة:

ـ هل تعلم أنك رجل غريب؟

فكر أردوسين للحظة.

ـ أنا صادق، لا أعرف ما الذي سيحدث في حياتي، لكن صدقيني، لم يكن في يدي أن أكون رجلاً صالحاً. لقد لوتني قوى الظلام الأخرى، جذبتني للأسفل.

ـ والآن؟

ـ الآن سأقوم بتجربة. لقد وجدت رجلاً رائعاً مقتنعاً تماماً بأن الأكاذيب هي أساس السعادة البشرية وقررت أن أؤيده في كل شيء.

ـ وهل يجعلك هذا سعيداً؟

ـ لا، لقد أيقنت منذ فترة طويلة أنني لن أكون سعيداً مرةً أخرى.

ـ ولكن هل تؤمن بالحب؟

ـ لماذا نتحدث عن ذلك!

لكن فجأة أومضت في رأسه لمحة عن سبب كل التناقضات التي كان يقولها قبل بضع دقائق، وقال، «ما سيكون رأيك عني إذا غداً، أعني أيّ يوم، إذا علمتِ في أي يوم أنني قتلت رجلاً ما؟

هيبوليتا، التي كانت جالسة، رفعت رأسها ببطء وأسندتها إلى ظهر الأريكة، ونظرت إلى السقف لفترة طويلة. ثم قالت وهي تحدق بعينين وتنطلق نظرة باردة بين رموشها الحمراء:
ـ أعتقد أنك كنت غير سعيد للغاية.

ترك أردوسين كرسيه، ووضع المدفأة، والحشيش والقهوة في درج الخزانة، حينئذٍ قالت له هيبوليتا:

ـ تعال هنا... عند قدمي.

شعر بحلاوة هائلة تملأ جسده. جلس على السجادة حيث كان جانبه مستريحاً على ساقيها، وأسقط رأسه على ركبتيها، وأغمضت هيبوليتا عينيها.

كان على ما يرام في هذا الوضع. استراح على حجر المرأة، ودفء جسدها قد اخترق النسيج، ويدفئ خده. بدا هذا الموقف أيضاً طبيعياً جداً بالنسبة له؛ ارتسمت له الحياة ذلك الجانب السينمائي الذي طالما سعى إليه، ولم يخطر بباله أن يفكر في هيبوليتا، متيبسةً على الأريكة، كانت تفكر فيه، كان ضعيفاً وعاطفياً.

التيك تاك الناتج عن الساعة كان يباعد بين الفاصل الزمني في ترسها، قطرة من الصوت سقطت على التوالي مثل طحلب بطيء في الصمت المكعب للغرفة. فقالت هيبوليتا لنفسها: ـ الحياة كلها لن تفعل أكثر من الشكوى والمعاناة. ما فائدة فتى مثل هذا بالنسبة

لي؟ يجب أن أحتفظ به. ويجب أن تكون الوردة النحاسية أمراً سخيفاً. من هي المرأة التي سترتدي زخارف معدنية ثقيلة سوداء اللون في قبعتها؟ كلهم هكذا، مع ذلك. الضعفاء والأذكياء وعديمو الفائدة والآخرون، هم خشنون ومملّون. لم أجد بينهم بعد من يستحق التحكم في حياة الآخرين، أو أن يكون طاغية. أنا أشفق عليهم.

غالباً ما كان يفكر بهذه الطريقة، حيث طمس الواقع الدُّمى التي صبغها خياله بحياة متغطرسة لوهلة. كان بإمكانه أن يشير إليهم بإصبعه.

كان هذا الشخص العالة والمعطّر والقاسي الذي اشتهر في أيام الأسبوع باحتجابه وصمته، كان بذيئاً بذيئاً، وكان الآخر الصغير والمتواضع، اللطيف دائماً، الرصين والمعقول، ضحية لتلك الرذائل الفظيعة، تلك الوحشية مثل العربة والقوية مثل الثور والأقلّ خبرةً من تلميذ في المدرسة، وهكذا مروا جميعاً أمام عينيه المعقودتين برغبة مماثلة لا تنطفئ، لقد تركوا جميعاً للحظة رؤوسهم على ركبهم العارية، في حين أنها، غافلة عن الأيدي الخرقاء والجنون العابر الذي أثارته الأشباح الحزينة، التي كانت تحتاج بقسوة الى الإحساس بالعيش مثل الشعور بالعطش في الصحراء.

ـ هكذا كان. كان الجوع والشهوة والمال فقط هم ما يحرك الرجال، هكذا كانوا.

منزعجةً، أخبرت نفسها أن الشخص الوحيد الذي كان مهتماً بها هو الصيدلي، القادر على النهوض لبضع لحظات فوق جثته العنيفة، لكن اللعبة الرهيبة اختفت آليتها، والآن أصبحت محطمة أكثر من الدُّمى الأخرى.

يا لها من حياة! في أوقات أخرى، عندما كانت فتاة صغيرة لا حول لها ولا قوة، اعتقدت أنها لن يكون لديها مال أو منزل مزين بأثاث جميل، أو أوانٍ فخارية لامعة، وقد أحزنها استحالة امتلاكها للثروة بقدر ما أحزنها اليوم معرفة أنه لا يوجد رجل يمكنه النوم معها بدون أن يكون الدافع أن يصبح طاغية أو فاتحاً لأراضٍ جديدة.

الحياة الداخلية

ـ نعم لقد كنت أحلم!

مرت أيام على تخيله لقاءً مثيراً، وعلى رجلٍ كان قد أخبره عن الأدغال وكان لديه أسد مستأنس في منزله. سيكون عناقه لا يعرف الكلل وهي تحبه كعبدة؛ ومن ثم ستجد المتعة حتى في تشميع إبطها أو تلوين ثدييها. متنكّرةً في زيّ صبيّ، سافرت معه عبر الأنقاض حيث ينام السكولوبندرا والمدن التي يقيم فيها السود أكواخهم بداخل شقوق الأشجار. لكن لم يجد في أي مكان أسوداً، بل كلاباً من نوع البرغوث، وكان الفرسان الأكثر ميلاً إلى المغامرة مصلوبون على شوكة وممسوخون في أوانٍ. وقد انسحب من هذه الحياة الغبية في اشمئزاز.

على مدار الأيام، لم تكن الشخصيات النادرة التي واجهها في الرواية مثيرة للاهتمام كما هي حالهم في الرواية، لكن تلك الصفات التي جعلتهم حادّي الطباع في الرواية كانت على وجه التحديد الجوانب البغيضة التي جعلتهم مثيرين للاشمئزاز في الحياة. ومع ذلك فقد أعطوا لها.

لكن، بعد أن شعروا بالشبع، ابتعدوا عنها وكأنهم شعروا بالإهانة لأنهم عرضوا عليها مشهدَ ضعفهم. الآن هو منغمس في عقم معيشته مثل منطقة رملية مستكشفة جغرافياً.

مثلما كان من المستحيل تحويل الرصاص إلى ذهب، كان من المستحيل تحويل روح الإنسان. كم مرة سقطت عارية في أحضان شخص غريب وكنت أقول له: «ألا ترغب في الذهاب إلى إفريقيا؟»، قفز الآخر كما لو أن هناك أفعى صافرة بجانبه. وبعد ذلك كان لديه انطباع بأن تلك الجثث المتسلحة بالعظام، والمصابة في العضلات، كانت أضعف من أجساد الأطفال الرقيقين، أكثر ترويعاً من أطفال الغابة.

النساء كن مكروهات بالنسبة اليها. لقد رأوها تغرق في شهوانية الذكور لتعرض عليهم في كل مكان قبح بطنها المنتفخ. كانت لديها القدرة على تحمل المعاناة حصرياً، كان هذا عالماً من الناس المرهقين، أشباح مستيقظة بالكاد تفوح منها رائحة الأرض بنعاسهم الشديد، كما في العصور الأولى الوحوش الكسولة والعملاقة. ومن ثم شعرت روحه الطائرة أنها قد سحقت بأكملها بسبب عدم نفع الأصدقاء.

لأن هيبوليتا أرادت التحرك في عالم أقل كثافة، عالم خفيف مثل فقاعة الصابون حيث لا تتعرض المادة للجاذبية، وتخيلت متعة السفر في جميع مسارات الكوكب، متحولةً بإرادتها. معطيةً الأيام لعبةً واقعيةً عوَّضت عن تلك التي افتقدتها في طفولتها.

تم حرمانها من كل شيء عندما كانت صغيرة. لقد تذكرت أن أحد أحلام طفولتها هو أن تكون أسعد مخلوق في العالم إذا عاشت في غرفة مغطّاة بورق الحائط.

كان قد رأى في النوافذ الزجاجية الملساء لمخازن الأجهزة الجدارية التي في مخيلته الصغيرة ظناً منها أنها ستجعل حياة أولئك المحيطين بها حلماً، خلفيات تشبه زروع «غابة المسحورات» في منزل، بأزهارها العشوائية ذات اللون الأزرق والملفوفة نحو الداخل. خلفيات مخططة بالذهب، وكان حلم السنوات السبع هذا قوياً للغاية فيها، حيث طرحت لاحقاً الفكرة التي تمّ تناولها حول المتعة التي ستشعر بها إذا كان بإمكانها امتلاك سيارة رولز رويس، التي كان تنجيدها الجلدي ثميناً في خيالها، كما كان ورق الجدران المستحيل الذي لا يتكلف سوى ستين سنتاً للفة.

وقد تراجعت منذ زمن بعيد. وتتذكر الآن، مع رأس الرجل المستريح على ركبتيها، تلك الأمسية يوم الأحد عندما ـ فجأةً ـ اكتظت الأجواء ودفع النسيم البارد عشيقاته من الحديقة إلى الغرفة. وقلبت المطر على النوافذ، ولجأت إلى مطبخ كي تقوم بالتنظيف، ومن خلال الغرف نما إلى سمعها صوت الزوار، وكانت السيدات تتحاورن بينما كانت الفتيات تقفزن عند مشاهدة المجلات التي تحتوي على صور مراسم زفاف، أو يعزفن البيانو.

وبينما هي جالسة على الطاولة، مع طرف مئزرها يلف تمثال نصفيها المائل قليلاً بين أصابعها، سمحت لنفسها أن تخترقها الأصوات، التي كانت محزنة لها دائماً، على الرغم من أنها كانت تتحدث عن أشياء سعيدة.

مثل الأبرص، شعرت بالعزلة عن السعادة. جلبت لها الموسيقى منظر أماكن مختلفة، وفنادق في الجبال، وأنها لن تكون أبداً المتزوجة حديثاً التي تنزل إلى غرفة الطعام بصحبة زوجها الوسيم، بينما ترن الأطباق وتتطاير الطيور حول النوافذ حيث تتمكن هي من رؤية شلال يتساقط منه الماء.

قامت بلف طرف المئزر ببطء بين أصابعها، بجبهة مثنية، وقدمين متقاطعتين. لن يكون لها زوج مثل مارسيلو أبداً.

ولن تنشر عباءتها على درابزين مخملي للصندوق، بينما تتألق الماسات في آذان الدوقات والكمان قبل الصعود على خشبة المسرح بهدوء.

كما أنها لن تكون سيدة، واحدة من هؤلاء الشابات اللواتي قد قامت بخدمتهن واللاتي يحتضن أزواجهن بلطف بينما يتقدم الحمل في بطونهن المعانية. ونما حزنها باستمتاع كنمو الظلام في الشفق.

ـ الخدمة... الخدمة دائماً!

ثم تسللت الضغينة إلى معاناته، كانت جبهته ثقيلة وسقطت جفونه الحمراء، مُتسببة في استسلامه.

وفي غرفة المعيشة، جعل البيانو الدول المختلفة تمر بالبيئة الحالمة التي يرسمها وتخيلت أن تعليم هؤلاء الشابات يجب أن يجعل أرواحهن أكثر جمالاً واستساغة لرغبة العشيق، وأن تزن رأسه كما لو أن جمجمته قد تحولت إلى خوذة من عظام من الرصاص.

كل ما كان يحيط بها؛ الأواني والمواقد، والخشب النظيف لأرفف المطبخ، والمرايا في الحمام والمصابيح الحمراء، بدا وكأنه يمثل قيمة تجعل هذه الأشياء بعيدة عن متناولها إلى الأبد. يبدو لها أن السجاد، وكذلك دراجة ثلاثية العجلات للأطفال، قد تم إنشاؤها لإضفاء السعادة على الكائنات ذات العجينة المختلفة عن تلك التي تشكلت هي منها.

بدت فساتين الفتيات ذاتها، والأقمشة الخفيفة التي تزين أجسادهن الثمينة، والدانتيل والأشرطة، ذات طبيعة مختلفة عن تلك التي يمكن أن تشتريها هي بنفس المال. هذا الشعور بالعيش بشكل مؤقت مع أناس يعيشون في عالم مختلف عن ذلك العالم الذي تنتمي إليه أزعجها لدرجة أن اليأس لاح كوصمة عار على وجهها.

ماذا يمكن أن تكون إلا خادمة، خادمة دائماً!

الرفض الأصم أنشأ في قلبها أسى، استجابة للشبح الخفي الذي عانقها. حياتها كانت مقاومة مستديمة ضد الحياة المنزلية. لم تكن يعرف كيف تفر من هذه السلسلة من المصائب، لكنها لم تكف عن تكرار أن هذه الحالة مؤقتة، ومع ذلك جاهلة بما كان سيأتي إليها. وواصلت ملاحظة آداب السيدات ودراسة كيف يَحنين رؤوسهن، كلما قُلْنَ وداعاً لأصدقائهن على أبواب منازلهن، ثم محاولة استنساخ تلك التحيات أمام المرآة والإيماءات التي تتذكرها. وهذه الأعمال التي قامت بها في العزلة في غرفتها تركت لبضع ساعات على الشفاه وفي الروح شعوراً بالسعادة والحساسية ثم عادت إلى الانغلاق من جديد، كما لو أن تلك الصور السالفة كانت على حساب شخصيتها السيدية الحقيقية والحالية.

لساعات قليلة كانت حياتها ملتهبة برقة دخيلة وناعمة مثل رائحة كريم معطر، مع الفانيليا، وبدا أنها تشعر بأصوات «نعم» و«لا» في حلقها حتى توهمت أنه كانت ترد على محادثة مبهجة، ولديها فرو ثعلب أزرق حول رقبتها.

أعيد ملء غرفتها كخادمة بأشباح موحية، وجلست على كرسيٍّ بذراعين مبطّن بحرير بلون التمساح، واستقبلت صديقاتها اللاتي جِئنَ ليقُلْنَ وداعاً للذهاب إلى «باريس دي

فرانس» وتحدثنَ عن المغازلة. «لم تسمح لها والدتها بالذهاب إلى ز... للتصييف هذا العام؛ لأنها ستقابل ن...، ذلك الطائش الذي كان يحاصرها بشكل مفرط. أو أنها كانت تعبر البحر، بحراً هادئاً مثل بحيرات باليرمو، جالسة على كرسي من الخوص كما رأته في صور جسور الأهرامات الفاخرة، عندما كانت تتجول في الشوارع لتتسوق في السوق. كان لديها كوداك مهجور على تنورتها بينما كان شاباً يحمل قبعته في يده ويميل نحوها يتحدث معها بخجل.

روحها كخادمة كانت مليئة بالسعادة. فهمتْ أنَّ هذا كَانَ جميلاً جداً، أجمل من أنْ تستمتع به حيث إن متعتها ستكُونُ لا نهائية. وكانت ترى نفسها في غروب الشتاء وهي تمشي في زقاق مظلم، ملفوفة في معطف بيتيغريس، بحثاً عن يتيمة، ابنة رجل أعمى. لقد جلبت لها الطمأنينة، وجعلت منها ابنتها بالتبنّي، وفي يوم من الأيام قامت اليتيمة بالخروج على المجتمع؛ ثم أصبحت شابة رائعة؛ وكشفت عن كتفيها البارزتين أسفل القماش الشفاف، وعلى جبهتها النظيفة، توجد موجة من الشعر الأشقر من شأنه أن يتطابق مع دقة عينيها اللتين كانتا في حجم اللوزتين.

وفجأة دعاها صوت:

ـ هيبوليتا! عليك تقديم الشاي.

جريمة

رفع أردوسين رأسه بحدة، وقالت هيبوليتا، كما لو كانت تفكر فيه:

ـ أنت أيضاً... أنت أيضاً كنت حزيناً جداً.

أخذ أردوسين يد المرأة الباردة، ووضع شفتيه عليها. بينما واصلت هي ببطء:

ـ في بعض الأحيان تبدو هذه الحياة وكأنها حلم سيئ. الآن بعد أن شعرت بك، ظهر لي حزن الأوقات الأخرى ثانية. دائماً، في كل مكان، هناك معاناة.

ثم تابعت:

ـ ما الذي يجب فعله لتجنب المعاناة؟

ـ إننا نحمل تلك المعاناة بداخلنا. بمجرد أن ظننت أنني أطفو في الهواء، كانت فكرة سخيفة؛ لكن الحقيقة أن عدم الارتياح موجود داخل الشخص.

كانا صامتين. كانت هيبوليتا تمشّط شعرها ببطء، وفجأةً أبعدت يدها عن رأسها، وشعر أردوسين أن المرأة تضغط بيدها على شفتيها.

جلس أردوسين بجانبها، غمغم:

ـ قل لي، ماذا فعلت لك كي تشعرني بكل تلك السعادة الجمة؟ ألا تفهم أنك هبطت من السماء من أجلي؟ لم أشعر قط بهذا القدر من البؤس أبداً.

ـ ألم يحبك أحد؟

ـ أنا لا أعرف؛ لكن الحب لم يلح لي أبداً في شغفه الرهيب. عندما تزوجت كنت في العشرين من عمري وآمنت بروحانية الحب. فكر للحظة، لكنه سرعان ما قام، وبعد إطفاء الأنوار، جلس على الأريكة بجوار هيبوليتا. ثم قال: ـ ربما كنت شخصاً غير سعيد. عندما تزوجت لم أكن قد قبلت زوجتي إلى ذلك الحين. صحيح أنني لم أشعر أبداً بالحاجة إلى فعل ذلك، لأنني اختلط علي الأمر بين النقاء الذي سبَّبَ برودة الحواس وأيضاً... لأنني اعتقدت أن السيدات الشابات لا ينبغي تقبيلهن. كانت الأخرى تبتسم في الظلام. كان جالساً على حافة الأريكة ومرفقاه على ركبتيه، ووجنتاه بين راحتي يديه.

أضاء البرق البنفسجي الغرفة.

ثم تابع ببطء:

ـ كان مسمَّى الفتاة في مفهومي أصدق تعبير عن النقاء. أيضاً، لا تضحكي، كنت متواضعاً، وفي ليلة اليوم الذي تمّ زواجنا فيه، عندما خلعت ملابسها بشكل طبيعي أمام المصباح المضاء، أدرت رأسي في خجل، ونمت على السرير مرتدياً السروال.

ـ أحقاً فعلت ذلك؟ كان هناك حنق بادٍ في صوت المرأة.

ضحك أردوسين بحماس:

ـ لِمَ لا؟ وبينما كان يتحسس العرجاء بشكل غير مباشر قام بفرك يديه. لقد فعلت ذلك والعديد من الأشياء الأخرى. والأشياء التي قد فعلتها كانت... «لقد آن الأوان»، اعتاد زوجها أن يقول ذلك. أعتقد أنه على حق. بالطبع، تشير هذه الحلقات إلى وقت من حياتي كنت أعيش فيه مثل الأبله. أقول لك هذا حتى تكوني على يقين من أنه إذا اضطررت إلى النوم معك، فلن أفعل ذلك مرتدياً سروالي...

للحظة شعرت هيبوليتا بالخوف. لم يفعل أردوسين شيئاً سوى مشاهدتها من زاوية عينه وهو يفرك يديه. وأضافت بحذر: ـ لا بد وأن ما حدث هو أنك مريض مثلي عندما كنت خادمة. كنت أعيش بين السماء والأرض...

ـ هذا فعلاً، بين السماء والأرض، هذا بالضبط. نعم، أتذكر عندما كان يتم معاملتي كالأحمق.

ـ أنت أيضاً؟

ـ نعم، في وجهي؛ كنت أنظر إلى الشخص الذي أهانني، وبينما كانت كل عضلاتي مسترخية في تراخٍ هائل، تساءلت عما فعلته، لا أعرف في أي وقت فعلته، حتى أتحمل الكثير من الإذلال والجبن. لقد عانيت كثيراً لدرجة أنني شعرت أكثر من مرة بإغراء تقديم نفسي كخادمة في منزل رجل غني، هل يمكنني تجرع المزيد من العار؟ ثم شعرت بالرعب،

خوف مروع من عدم وجود شيء نبيل في حياتي، حلم كبير، والآن وجدته أخيراً. لقد حكمت على رجل بالموت، فقط اجلس هناك، غداً لأنني لم أعترض، سيُقتل رجل ما.

ـ إن هذا غير ممكن!

ـ نعم هذا صحيح. رجل الكذب، الرجل الذي أخبرتك عنه سالفاً، كان بحاجة إلى المال لتنفيذ مشروعه. هذه هي الطريقة التي سيتم بها ذلك، لأنني أريد أن يحدث ذلك. غداً سوف يعطيني شيكاً لأصرفه نقداً. عندما أعود سيكون قد تم إعدامه.

ـ لا، إن هذا غير ممكن.

ـ نعم، وإذا لم أعد فلن يقتلوه، لأنه بدون المال تكون الجريمة بلا فائدة. إنها خمسة عشر ألف بيزو... يمكنني أن أهرب بها... فليذهب المجتمع الى الجحيم... وسيتم إنقاذ الرجل. هل تدركين ذلك؟ كل شيء يعتمد على أمانتي الجنائية.

ـ يا إلهي!

ـ أريد خوض تلك التجربة، هل تفهمين؟ بعض المفاهيم تُحوِّل المرء إلى إله. لقد كنت مصمماً على قتل نفسي لفترة طويلة. إذا كنت قد وافقتُ من قبل، عندما أخبرتك، كنت سأقتل نفسي. لو كنت فقط تعرفين مقدار الروعة والعظمة اللتين أشعر بهما! لا أذكر المزيد عن الآخر، لقد تم حلُّه بالفعل، حتى أنني سعيد بالتفكير في البئر التي أغرقها. أنت تدرك ذلك! وفي أي نهار... لا، لن يكون نهاراً... أي ليلة، عندما أسأم من كثرة الصور المزيفة وعدم التجانس بينها، سأذهب.

تجعد متشعّب على جبين هيبوليتا. لم يكن هناك شك. كان ذلك الرجل مجنوناً. روح المغامرة لديه تُنبئ بأحداث مستقبلية.

قالت لنفسها: «مع هذا الأبله لا بد من المُضيّ بحكمة». وسألت بينما تشد ذراعيها فوق المعطف وكأنها تشك في ذلك:

ـ هل لديك الشجاعة لقتل نفسك؟

ـ ليس هذا ما يجب أن يقال. لم يعد هناك شجاعة أو جبن. أشعر في أعماق نفسي أن الانتحار يشبه في سهولته اقتلاع السّن. عندما أفكر بهذه الطريقة، يهدأ كل شيء داخلي. صحيح أنني فكرت في رحلات أخرى وأراضٍ أخرى، حياة أخرى. هناك شيء داخلي يسعى لأن يكون كل شيء رقيقاً وجميلاً. فكرت في ذلك مرات عديدة. لنضع الخمسة عشر ألف بيزو التي سأجمعها غداً... يمكنني الذهاب إلى الفلبين، إلى الإكوادور، لبدء حياتي من جديد، والزواج من فتاة مليونيرة ورقيقة... سنكون هناك أثناء القيلولة مستلقين على أرجوحة شبكية تحت أشجار جوز الهند، بينما يقدم لنا السود شرائح البرتقال. وسوف أنظر للأسف إلى البحر... هل تعرفين؟ هذا اليقين الذي يخبرني أنه أينما ذهبت سأنظر بحزن إلى البحر، هذا اليقين أنني لن أكون سعيداً مرة أخرى، في البداية يدفعني ذلك الأمر إلى الجنون، ثم بعد ذلك أتنازل عن الأمر كله.

ـ إذاً لماذا ستقوم بالتجربة؟

ـ هل تعلمين؟ لم أصل إلى قاع نفسي بعد، لكن الجريمة هي أملي الأخير، والمُنَجِّم يعرف ذلك، لأنني عندما سألته اليوم إذا كان لا يخشى أن أهرب، فأجابني: «لا، في الوقت الحالي، لا... أكثر من أي شخص آخر، أنت بحاجة إلى هذا العمل حتى تترك ذلك الإحساس بالأسى...»، أترين إلى أي مدى وصلت!

ـ لا يمكنني تخيل مثل هذا الشيء أبداً. وهل ستقتلونه في تمبرلي؟

ـ نعم. ومع ذلك... ماذا أعرف أنا غير الأسى! هل تعرفين ما معنى الحسرة؟ أن يكون الألم متأصلاً في العظام مثل مرض الزهري؟ انظري، كان هذا قبل أربعة أشهر: كنت أنتظر القطار

في محطة قروية. سيستغرق الأمر ثلاثة أرباع الساعة للوصول إلى هناك، ثم عبرت إلى ميدان كان في مواجهتي. في غضون بضع دقائق من الجلوس على مقعد، جاءت فتاة، كانت في التاسعة من عمرها لتجلس بجواري. بدأنا الدردشة، كانت ترتدي مريلة بيضاء، كان يعيش في أحد المنازل عبر الشارع... ببطء، غير قادر على احتواء نفسي، حولت الحديث نحو موضوع فاحش، ولكن بحذر، اقتحمت حدودها. استولى فضول شنيع على ضميري. تلك المخلوقة، المنومة بواسطة غريزة نصف اليقظة، تستمع إليَّ وهي ترتجف، وببطء، في تلك اللحظة يجب أن يكون لديَّ وجه مجرم. لاحظت أن اثنين من الحراس كانا ينظران إلي باهتمام من خلال عيونهما، كشفت لها عن اللغز الجنسي، وقد قمت بتحريضها على تكريس نفسها لإفساد صديقاتها.

ضغطت هيبوليتا بأصابعها على صدغيها.

ـ لكنك وحش!

ـ الآن وصلت إلى الهدف؛ حياتي مرعبة، أحتاج إلى خلق تعقيدات رهيبة، أحتاج إلى ارتكاب الخطيئة. لا تنظري إليّ. من المحتمل أن... أترين... لقد فقد الناس معنى كلمة خطيئة، الخطيئة ليست ذنباً، لقد أدركت أن الخطيئة هي فعل يكسر الإنسان من خلاله الخيط الضعيف الذي كان يجمعه مع الله. الله قد حرمه من ذلك للأبد. حتى لو صارت حياة ذلك الرجل بعد الخطيئة أنقى من حياة أنقى قديس، فلن يتمكن من الوصول إلى الله أبداً. سوف أكسر الخيط الضعيف الذي ربطني بالعناية الإلهية. أنا آسف. من الغد سأكون وحشاً على الأرض! تخيلي مخلوقاً، جنيناً، جنيناً؛ جنيناً له فضل العيش خارج الرحم... لا ينمو أبداً... شعر... صغير... بدون أظافر، يمشي بين الرجال دون أن يكون رجلاً، هشاشته تروع العالم من حوله، لكن لا توجد قوة بشرية يمكنها إعادته إلى الرحم المفقود. هذا ما سيحدث لي غداً. سأبتعد عن الله إلى الأبد. سأكون وحدي على الأرض. روحي وأنا، نحن الاثنين. اللانهاية في الأمام. دائماً وحيدان. وبين ليلة وضحاها، دائماً ما توجد شمس صفراء. هل

تفهمين؟ تنمو اللانهائية... في الأعلى شمس صفراء.. والروح التي خرجت من العناية الإلهية تمشي وحيدة وعمياء تحت الشمس الصفراء.

رجّة عنيفة هزت الأرض، وفجأةً حدث شيء غير عادي. صمت أردوسين في رعب.

كانت هيبوليتا راكعةً عند قدميه، أمسكت بيده وأغرقتها بالقبلات. صاحت المرأة في الظلام:

ـ دعني، دعني أقبّل تلك الأيدي المسكينة. أنت أتعس رجل على وجه الأرض.

ـ قفي يا هيبوليتا.

ـ شعر أن ذراعيها تشدان ساقيه. لا، أنا أريد تقبيل قدميك. أنت أتعس رجل على وجه الأرض. كم عانيت يا إلهي! كم أنت كبيرا! كم هي كبيرة روحك!

رفعها أردوسين بحلاوة لا متناهية. شعر أنه محاطٌ بشفقة لا نهائية، ثم جذبها إلى صدره، وصقل شعرها على جبهتها، وقال:

ـ لو تعلمين الآن فقط كم سيكون من السهل عليَّ الموت. سيكون مثل لعبة.

ـ يا لها من روح!

ـ ولكن هل أنتِ محمومة؟

ـ يا لك من رجل مسكين!

ـ لماذا؟ إذا كنا الآن نحن مثل الآلهة... هيا اجلس بجانبي. هل أنت بخير الآن؟ انظري أيتها الأخت الصغيرة، كل ما عانيت منه تم دفع ثمنه بكلماتك. الآن سنحيا مرة أخرى.

ـ نعم كأصدقاء.

ـ فقط في اليوم المهم ستكونين زوجتي.

ـ أنا أحبك كثيراً! يا لها من روح تلك التي تمتلكها!

ـ ومن ثم سنذهب.

ومنذ ذلك الحين لم ينبسا ببنت شفة. ورأس هيبوليتا ساقطٌ على صدره. كان الوقت قريباً من الفجر.

ثم ثنى أردوسين ذلك الجسم المتعب على الأريكة، وابتسمت هي في إنهاك؛ ثم جلس ريمو على السجادة، انحنى رأسه على حافة الأريكة، ثم نام.

شعور اللاوعي

نصف مسند على أريكة، وذراعاه مطويتان وقبعته على جبهته، فكر المُنَجِّم في مخاوفه في تلك الليلة، في ظلام المكتب. كان المطر يضرب على زجاج النوافذ، لكنه لم يستمع إلى صوتها بسبب انغماسه في العديد من المشاريع. إلى جانب ذلك، كان يحدث له شيء غريب.

تسارع اقتراب الجريمة المراد ارتكابها في المساحة العادية من الزمن في وقت معين آخر. وهكذا كان لديه شعور بالحساسية الموجودة مرتين. أحدهما طبيعي لجميع حالات الحياة الطبيعية، وآخر سريع الزوال وثقيل في دقات قلبه، يفر من بين أصابعه المقفلة بالتأمل مثل الماء في سلة.

المُنَجِّم المحجوز داخل عقارب الساعة، كان يشعر بالوقت الآخر ينزلق سريعاً جداً ولا نهاية له داخل عقله، والذي يبدو مثل فيلم سينمائي، من خلال انزلاقه بشكل دوار، يؤذي حساسيته بالصور التي يقترن بها، بطريقة غير دقيقة ومتعبة. حتى قبل إدراك واضح لفكرة ما سرعان ما تختفي لتحل محلها فكرة أخرى. لدرجة أنه عندما نظر إلى الساعة التي

تضيء فوسفورياً، تحقق من أن الوقت المنقضي كان دقائق، بينما في فهمه، كان لتلك الدقائق الميكانيكية، التي تسارعت بسبب قلقه، طولٌ آخر لا يمكن لأي ساعة قياسه.

الإحساس الذي كان قد حبسه في الظلام، على أمل. كان قد أدرك أن أي خطأ قد يرتكبه في تلك الحالة يمكن أن يكون مدمراً له لاحقاً.

قتل الرجل المدعو ببارسوت لم يكن يعنيه بشكل أساسي، بل ما يعنيه هو الاحتياطات التي يجب أن يتخذها حتى لا تكتسب هذه الحقيقة أهمية لا داعي لها. وعلى الرغم من أنه كان ينوي إعداد حجة الغياب، إلا أن ذلك الأمر كان صعباً. انتابه شعور بأنه لم يكن هو الذي يغرق في الظلام، لكنه كان يفكر في شخصيته المزدوجة، المزدوجة المزورة بالعاطفة والتي كان تُضفي عليه ذلك المظهر الدقيق، بوجه على شكل معين، وذراعين متصالبتين، وقبعة علوية ملقاة فوق جبهته. ومع ذلك، لم يستطع إدراك طبيعة أفكار هذا الثنائي المرتبط به ارتباطاً وثيقاً وبعيداً جداً عن إدراكه. لأنه رأى أن إحساسه بالوجود كان في تلك اللحظات أكثر فاعلية من وجود جسده. في وقت لاحق، شرح هذه الظاهرة، وقال إن وعيه بالاختلاف في سرعة الزمن سببه هو أن عواطفه استمرت، خلال ذلك الزمن الميكانيكي الآخر، مثل أولئك الذين يقولون: «تلك الدقيقة بدت لي قرناً».

استحالة التفكير في أن الأمر لا يزال مهماً، حيث كان الأمر يتعلق بإنهاء حياة رجل، وشل الدورة الدموية التي يبلغ مقدراها خمسة لترات، وتقوم بتبريد جميع خلايا الجسد، ومحوه من الحياة مثل بقعة على ورقة بيضاء، مما يزيل كل آثاره الموجودة على وجه البسيطة. نظراً لأن مثل هذه المشكلة الخطيرة لم يغفل عنها المُنَجِّم، فقد شعر بنفسه في الوقت الميكانيكي للساعة، هو الرجل الماديّ، بينما في السرعة البطيئة للوقت الآخر بحيث لا يمكن لأي ساعة أن تتحكم بقرينه، كان يقع، متأملاً، مبهماً، غامضاً أصلياً، يستعد لأي حجج من شأنها أن تفاجئ ذلك الرجل الذكي فيما بعد.

إن اليقين من أنه أصبح، بسبب قرب الجريمة، شخصيتين مزدوجتين مع بُعدين مختلفين تماماً من الإدراك للوقت، واثنين من القصور الذاتي المختلفين تماماً، يلوحان في الأفق في

الظلام.

غمر التعب الشديد عضلاته وأطرافه القوية ومفاصل عظامه.

حمل المطر الضفادع على توجيه عتادها القصير نحو الخنادق، لكنه، رجل العمل، خفف من توتره كما لو أن عظامه قد هشت ولم يستطع الوقوف، قال لنفسه: «أنا، رجل أفعال، أبقى هنا، فأنا إذاً ضمن الإطار الزمني الميكانيكي الخاص بي، وأتأرجح في وقت آخر ليس هو وقتي وهذا يريحني من أجل توخي الحذر. لأنه لا شك في أن قتل الرجل هو مثل ذبح شاة، ولكن ليس للآخرين، ورغم بُعدهم ورغم أن سلوكي هو لغز بالنسبة لهم، فإن هذا الطقس غير الطبيعي يجعلهم أقرب إليّ، وأنا لا يمكنني الحراك تقريباً، كما لو أنهم هناك، قابعون في الظل، يتجسسون علي. سيجعلني وقت التوتر عديم الفائدة، أو المُنَجِّم تحت اللاوعي الذي يحتفظ بأفكاره ويتركني مضغوطاً مثل برتقالة لتصور الأفكار التي أحتاجها الآن. إلا أنه بعد وفاة بارسوت ستستمر الحياة وكأن شيئاً لم يحدث... ولم يحدث شيء إذا لم يتم اكتشاف ذلك».

أشعل عود ثقاب مرة أخرى. كانت الغرفة مليئة برؤوس الظلال المتحركة. لم تمر دقيقة. كانت أفكاره متزامنة ومضمنة في حقائق الوقت التي كانت تحتاج إلى شهور وسنوات لتكون حاضرة في الوقت الذي جمعهم. وهكذا كان قد ولد منذ ثلاثة وأربعين عاماً وسبعة أيام، وكان ذلك الماضي يقضي على روحه باستمرار في الحاضر، والحاضر سريع الزوال، لدرجة أنه كان دائماً هوالمُنَجِّم للدقيقة التالية، في وقت الدقيقة أو الثانية التالية. ركزت حياته الآن على حقيقة لم تكن موجودة بعد، لكنها ستكتمل في غضون ساعات قليلة، وتمتد ضمن زمن ميكانيكي مثل القوس، الذي شمل العنف المحتوي لوقت الساعة التوتر غير العادي لذلك الوقت الآخر من القلق.

وعلى الرغم من أنه قيل مرات عديدة إنه إذا أتيحت له الفرصة لاغتيال شخص ما فلن يضيع هذه الفرصة، فقد أوقف مخاوفه مرة أخرى في تلك الأوقات الغامضة. ثم قفز من هناك إلى خيال الدكتاتورية، التي ستدعمها حالة الرعب الناتجة عن عمليات الإعدام

العديدة، وكانت وسائل إبطال هذا الانطباع اللحظي المثير للاشمئزاز هي تصوير أولئك الذين تم إطلاقهم على أنهم رجال أفقيون. في الواقع، لقد تخيل في وسط السهل جسداً صغيراً لرجل كاذب، وعند مقارنة طول المقتول مع طول آلاف الكيلومترات التي تسعها أرض الاستبداد، توصل الى يقين بأن حياة المرء غير ذات قيمة.

الآخر سوف يتعفن تحت الأرض، بينما هو، الذي يقضي على العائق البشري الذي يبلغ طوله جزءاً من المليون من مساحة ملكه، سيتقدم نحو كل الفتوحات.

ثم فكر في لينين، الذي كان يفرك يديه، مكرراً للمفوضين السوفييت:

«هذا جنون! كيف نصنع الثورة بدون إطلاق النار على أحد؟»، وهذا أبهج قلب المُنَجِّم. من شأنه أن يؤسس هذا المبدأ في المجتمع. سيتم تعليم الآباء المستقبليين للأجناس بمعيار يحوي مبادئ القتل الذي لا يرحم؛ ومرة أخرى اتسعت آماله. ثم أدرك أن كل مبتكر كان عليه أن يناضل بأفكار قديمة، التي تم ختمها بالعرف في نفسه، وأن كل تأملاته الحالية كانت نتيجة تناقض بين المبادئ التي يجب اعتمادها وتلك المسلم بها.

مر الوقت من بين أصابعه، المحبوسة في الفكر.

قاتل اليوم سيكون هو فاتح الغد، لكن ذلك فقط طالما أنه يحمل ضغينة الحاضر الممزوجة بالأمس. ثم نهض في حالة من الغضب. كانت لا تزال تمطر. صعد إلى الدرج، حيث توقف، يحدق في الظلام الدامس، يهزّه الماء الذي كان كثيفاً وبطيئاً. بدت السحب هناك كما لو أنها جزء من وحش يلهث بشدة في الظلام. لقد تحولت الأرض المبتلة إلى الاصفرار، كأن هناك رجلاً صامداً في الليل، فناناً للأحداث العظيمة، ومع ذلك لم ينهض شبح من الغابة لإقرار موقفه. الآن يتساءل عما إذا كان الرجال من الأعمار الأخرى قد عانوا من ترددهم، أو إذا ساروا لتحقيق غاياتهم وهم مقتنعون بأن الموت سيوفر لهم سمكاً من الدروع لقراراتهم. لكن هل كان الموت مهماً؟ قيل إنه ككيان فلسفي، الشيء الوحيد الذي يمكن أن يثير

اهتمامه هو النوع، وليس الفرد، ولكن أولئك الذين حاصروا بدقة هي مشاعره، والتي ضاعفت الوقت المطلوب رغماً عنه، في زمانين غريبين.

ضرب البرق مسافات زرقاء بين كتل الجبال السحابية.

توقف الرجل الذي رأى القابلة عند جانب الدرج وهو مبلل ذو شعر أشعث. آه! قال المُنَجِّم:

ـ نعم؛ أردت أن أسألك ما هو رأيك في هذا التفسير للآية التي تقول: «جنة الله». هذا يعني بوضوح أن هناك سموات أخرى ليست من الله.

ـ ممن إذاً؟

ـ أعني أنه قد تكون هناك سماوات لا يوجد فيها الله. لأن الآية تضيف: «وستنزل أورشليم الجديدة». القدس الجديدة؟ هل ستكون الكنيسة الجديدة؟

فكر المُنَجِّم للحظة. لم يهمه الأمر، لكنه علم أن عليه أن يحافظ على هيبته أمام الآخر، فأجاب:

ـ نحن المستنيرين نعلم سراً أن القدس الجديدة هي الكنيسة الجديدة. ولهذا يقول سويدمبورغ: «بما أن الرب لا يستطيع أن يظهر نفسه شخصياً، وبعد أن أعلن أنه سيأتي ويؤسس كنيسة جديدة، يترتب على ذلك أنه سيفعل ذلك من خلال رجل لا يمكنه فقط قبول العقيدة من تلك الكنيسة، ولكن أيضاً ينشرها من خلال الصحافة...». ولكن لماذا، بصرف النظر عن كتاب مقدس آخر، تصل إلى التسليم بوجود عدة سماوات؟

نظر برومبرغ، الذي لجأ إلى الرواق، إلى الظلمة اللامعة التي يهزها المطر، ثم أجاب:

ـ لأن السماوات تشعر بالحب.

نظر المُنَجِّم إلى اليهودي بدهشة، الذي تابع:

ـ إنها مثل الحب. كيف تنكر الحب إذا كان الحب فيك وتشعر أن الملائكة تقوى حبك؟ نفس الشيء ينطبق على السماوات الأربع. يجب الاعتراف بأن كل كلمات الكتاب المقدس غامضة، لأنه إذا لم يكن الأمر كذلك، فسيكون الكتاب سخيفاً. في الليلة الماضية قرأت سفر الرؤيا بحزن. ظننت أنني مضطر لاغتيال جريجوريو، وسألت نفسي إذا كان مسموحاً بإراقة دماء البشر.

أجاب المُنَجِّم: «عندما تخنق لا تسفك الدماء».

ـ وعندما وصلت إلى جزء «جنة الله» فهمت سبب حزن الرجال. حرمتهم الكنيسة المظلمة من سماء الله، ولهذا السبب أخطأ الناس بشدة.

في الظلام، بدا صوت برومبرغ الصبياني حزيناً للغاية كما لو كان يأسف لأنه قد تم استبعاده من الجنة الحقيقية. قال المُنَجِّم: ـ الرجل المجنح الذي يكلمني في أحلامي قال لي إن نهاية الكنيسة المظلمة قريبة.

ـ هكذا يجب أن يكون الأمر؛ لأن الجحيم ينمو يوماً بعد يوم. لم يبقَ سوى عدد قليل جداً لدرجة أن الجنة في مجاورتها للجحيم أصغر من حبة الرمل عند مقارنتها بالمحيط. سنة بعد سنة ينمو الجحيم، والكنيسة المظلمة، التي كان ينبغي أن تنقذ البشرية، تسمن الجحيم يوماً بعد يوم، وينمو الجحيم الحزين، دون أية إمكانية لتصغيره. وتنظر الملائكة بخوف إلى الكنيسة المظلمة والجحيم الأحمر المنتفخ مثل بطن مريض الاستسقاء.

أجاب المُنَجِّم، متبلوراً بلهجة عالية في الكلام:

ـ لهذا قال لي المجنح: «اذهب أيها الرجل المقدس لتبني الناس وتعلن البشارة. وأبيدوا ضد المسيح واكشفوا أسراركم وأسرار القدس الجديدة لبرومبي رجال يهودي». وفجأةً أخذ المُنَجِّم بذراع رفيقه وقال له: ألا تتذكر عندما تحدثت روحك مع الملائكة وقدمت لهم خبزاً

أبيض على جانب الطريق وجعلتهم يجلسون عند الباب من مقصورتك وقاموا بغسل أقدامهم؟

ـ أنا لا أتذكر ذلك.

ـ حسناً، يجب أن تتذكر. ماذا سيقول الرب عندما يعلم ذلك؟ كيف سأرد على روحك أمام ملائكة الكنيسة الجديدة؟ حينما يقولون لي: ما مصير ذلك الابن العزيز، يا ألفون التقي؟ وماذا سأقول لهم؟ أنك مثل طائر العوسق. وأنك قد نسيت الأوقات التي صنعت فيها عملاً ملائكياً، وأنك تقضي اليوم كله في صومعة تخرج الريح مثل البغل.

اعترض برومبرغ، وهو عابس بشدة:

ـ أنا لا أطلق الريح.

ـ حسناً، أنت تطلق ريحاً صاخبة، لكن لا يهم؛ يعرف ملاك الكنائس أن روحك تتأجج في إخلاص صادق، وأنك عدو لملك بابل، وللبابا الضعيف، ولهذا السبب تم اختيارك لتكون صديقاً للإنسان الذي سيؤسس الكنيسة الجديدة على الأرض بتفويض من الرب. دوى المطر بهدوء على أوراق شجر التين، وارتجف كل الظلام الحامض والهادئ في الليل برائحة نباتية رطبة. توقع برومبرج بجدية: ـ والبابا، نفس البابا المذعور سيخرج إلى الشارع حافي القدمين، والجميع سيبتعد عنه في رعب وهرج، وعلى الطرقات ستمتلئ السياجات بالورود عندما يمر الحمل المقدس.

تابع المُنَجِّم: «هذا هو الوضع تماماً. وسيُعرض في السماء نصف المفتوحة لجميع الخطاة التائبين، البوابات الذهبية لأورشليم الجديدة». لأن محبة الله لا تُحصى، عزيزي ألفون، بحيث لا يمكن لأي شخص أن يتعامل معها بشكل مباشر دون أن يسقط على الأرض بعظام إسفنجية.

ـ لهذا السبب سأقدم للبشر تفسيري ليوم القيامة وبعد ذلك سأذهب إلى الجبال للتوبة والصلاة من أجلهم.

ـ هذا هو ألفون، ولكن الآن اخلد للنوم لأنني يجب أن أتأمل وهذا هو الوقت الذي يأتي فيه الرجل المجنح للتحدث في أذني. عليك أيضاً أن تنام لأنه غداً، إذا لم تفعل ذلك، فلن تكون لديك القوة لخنق المفسد.

ـ وملك بابل.

ـ هكذا هو.

ببطء، غادر الرجل الذي رأى القابلة الدرج. دخل المُنَجِّم المنزل، وصعد سلماً إلى جانب واحد من القاعة، ودخل غرفة طويلة للغاية، حيث كانت ألواح سقفها مدعومة في الأعلى بواسطة عوارض أفقية، حيث امتد جناحه المائل هناك.

لم يكن هناك نقش على الجدران المتكسرة. في أحد الأركان كانت ترقد بقايا جريجوري وبارسوت وتحت الكوة سرير خشبي مطلي باللون الأحمر. كانت البطانية السوداء عبارة عن خليط من الملاءات البيضاء. جلس المُنَجِّم متأملاً على حافة السرير. انفصل معطفه عن صدره المشعر. كالشوكة، نشر أصابعه على شاربه، وهو عابس يحدق في البقايا التي في الزاوية. لقد أراد أن يجعل أفكاره تقفز إلى حداثة خارجية، إن كسر الإيقاع الأحادي لأحاسيسه سيعيد له حضور العقل الذي كان فيه قبل العزم على اغتيال بارسوت.

فكر: «إنها عشرون ألف بيزو، عشرون ألف بيزو ستُستخدم في إقامة بيوت الدعارة والمستعمرة... المستعمرة...».

ومع ذلك فهو لا يرى بوضوح. لقد أفلتت منه الأفكار كالظلال، تلاشت أفكاره بفعل الصدمة الدائمة التي جعلت كل تركيزه عقيماً. فجأة صفع نفسه على جبهته وذهب بفرح إلى العلية المباشرة يسحب درجاً، تطاير غبار كثيف من غطائه، الذي لا تحتفظ به الشرائط جيداً.

بدون الاعتناء بأكمام المعطف المليئة بالأرض البيضاء، كشف الدرج. كان هناك جنود مختلطون مع دمى خشبية، وكان ذلك حشداً من البلهاء، والجنرالات، والمهرجين، والأميرات، والوحوش السمينة الغريبة ذات الأنوف المكسورة وأفواه الضفادع.

أمسك بقطعة من الحبل واتجه إلى الزاوية قام بربطها بمسمارين، وبذلك ربط الزاوية التي شكلها الجداران بمنصف مرتجل. بعد ذلك، أخذ عدة دمى من الدرج ورماها على السرير. بقطع من الحبال، ربط حلق كل رومبير، وانغمس في العمل لدرجة أنه لم يلاحظ أن الرياح كانت تدفع مياه الأمطار التي زادت من خلال النافذة المفتوحة.

عمل بحماس. عندما كان قد لف حلق الدمى بخيوط من الخيوط قطعها من الأكبر إلى الأصغر، قادها إلى الزاوية، وربطها بالحبل. انتهى عمله، حدق فيه. تحركت الدمى الخمس المعلقة بظلالها على الحائط الوردي.

الأول، بيبروت بدون بنطلون، لكن ببلوزة ذات مربعات سوداء وبيضاء؛ والثاني، صنم من الشيكولاتة ذو شفاه قرمزية، وجمجمته في حجم البطيخ وفي مستوى قدمي البيروت؛ والثالث، السفلي الساكن، كان طائراً آلياً، وله صفيحة برونزية عالقة في بطنه ووجه قرد؛ الرابع كان بحاراً مصنوعاً من عجينة الورق المقوى الأزرق، والخامس رجل أسود بلا أنف يظهر قرحة من الجص من الشريط الأبيض لطوق أرستقراطي. راضياً، فكر المُنَجِّم في عمله. كان ظهره للمصباح، ووصل ظله الأسود إلى السقف. تكلم بصوت عال: ـ أنت يا بيروت أنت أردوسين. أنت أيها السمين المنقب عن الذهب، المهرج، أنت الروفيان؛ وأنت أيها الأسود ألفون. اتفقنا.

بعد الانتهاء من خطابه، فصل دمية بارسوت عن الحائط، ووضعها أمام الدمى، وجلس أمامهم. وهكذا بدأ حواراً صامتاً، جاءت الأسئلة منه، وتلقى الجواب بداخله عندما ركز نظره على الدمية المشكوك فيها.

انتاب تفكيره وضوحٌ مدهش. لقد احتاج إلى التعبير عن أفكاره عبر جهاز التلغراف، مهتزة، ومقاطعة، كما لو كان عليه كله أن يطابق إيقاع الأفكار مع ارتعاش غامض من الحماس. فكَّر: ـ إن من الضروري إنشاء مصانع للغاز الخانق. صناعته كيميائياً. خلايا، بدلاً من السيارات والشاحنات. أسطح صلبة. مستعمرة في الجبال، أهذا هراء أم لا. نعم، لا، تقع بارانا أيضاً على حدود المصنع. الذي يصنع دروع السيارات الكروم الصلب والنيكل. الغازات الخانقة الهامة. سوف تندلع الثورة في الجبال وفي تشاكو. حيث توجد بيوت الدعارة، قتل أصحابها. عصابة من القتلة المأجورين في الطائرة. كل ذلك ممكن. كل خلية الإبراق الراديوي. تغيير الشفرة والموجة بشكل متزامن. الحصول على التيار الكهربائي عن طريق المياه المتساقطة. توربينات سويدية. أردوسين على حق. ما أعظم الحياة! من أنا؟ مصنع العصيات الدبلي والتيفوس الطفحي. إنشاء أكاديمية للدراسات المقارنة بين الثورة الفرنسية والروسية. أيضاً مدرسة الدعاية الثورية. عنصر مهم في التصوير السينمائي. انتبه. علينا إيجاد مصور سينيمائي. أردوسين يتولى أمر دراسة الباقة. طبقت السينما على الدعاية الثورية. هذا صحيح. هذا كل شيء.

الآن بدأ إيقاع الفكر في التباطؤ. قال لنفسه:

ـ كيف أضع في كل وعي لدي الحماس الثوري الذي في داخلي؟ هذا، هذا، هذا. بأي كذب أو بأي حقيقة؟ ما هي سرعة الوقت في المرور! يا لمقدار الحزن الذي بداخلي! لأن هذا حقيقة. أشعر بحزن شديد لدرجة أنهم إذا عرفوا ذلك، فسيذهلون. وهو يحمل فقط كل شيء مستلقياً على الأريكة. كان يشعر بالبرد. كانت عروقه تنبض بقوة في صدغه.

ـ الوقت الذي ينفد منه. أنه هذا. هذا. وكل من تبقى سيتم إسقاطه مثل الحقائب. لا أحد يريد الطيران. كيف تقنع أولئك الحمير بضرورة الطيران؟ ومع ذلك فإن الحياة مختلفة. الروح مثل المحيط يتماوج داخل سبعين كيلو غراماً من اللحم. ونفس اللحم الذي يريد أن يطير. كل شيء فينا يريد أن يصعد إلى السحاب، ليجعل بلاد الغيوم حقيقية، لكن كيف؟ تلك «كيف» تظهر دائماً وأنا... أنا هنا، أعاني من أجلهم، أحبهم كما لو وُلِدوا هناك، لأنني

أحب هؤلاء الرجال… أحبهم جميعاً. إنهم فوق الأرض لأنهم هكذا يجب أن يكونوا، حتى عندما يجب أن يكونوا على خلاف ذلك. ومع ذلك فأنا أحبهم. أشعر به الآن، أنا أحب الإنسانية. أحبهم جميعاً كما لو أنهم مقيدون إلى قلبي بخيط رفيع. ومن خلال هذا الخيط، فإنهم يحملون دمي وحياتي، ومع ذلك، على الرغم من كل شيء، هناك الكثير من الحياة في داخلي لدرجة أنني أتمنى أن يكون هناك ملايين آخرين كي أحبهم أكثر وأمنحهم حياتي. نعم، أمنحهم إياها. الآن اسمحوا لي أن أشرح المسيح. كم كان يجب أن يكون مقدار حبه للبشرية! ومع ذلك فأنا قبيح. وجهي الواسع الضخم قبيح. ومع ذلك يجب أن أكون لطيفاً ولطيفاً كإله. لكن أذناي مثل الكرنب وأنفي مثل عظم هائل كُسِر من لكمة. ولكن ما الذي يهم في ذلك الأمر. أنا رجل وكفى، وأنا بحاجة إلى الانتصار. هذا كل شئ. ولن أتنازل عن أي واحدة من أفكاري مقابل حب أجمل امرأة.

وفجأة ظهرت بعض الكلمات السابقة في ذاكرته، فبدأ المُنَجِّم في إخبار نفسه:

ـ مثلما قال أردوسين «لماذا لا؟ يمكننا صنع المدافع». الإجراء سهل. بالإضافة إلى ذلك، ليس من الضروري أن يكون لديهم مقاومة لآلاف القذائف. إن الثورة التي قد تستمر كل هذا الوقت ستكون فاشلة لا محالة.

تقف الكلمات في حلقه. في الظلام، ينفتح زقاق مضيء في جمجمته، مع جسور تعبر الفضاء وتجمع ما بين الحظائر، بينما في ضباب من الفحم، تشغل أفران الانفجار، بمنصات التبريد التي تظهر متأججة بالدروع الوحشية تملأ الفضاء. تفر سحب النار من المقطورات المدرعة وتكمن الغابة خلفها كثيفة وغير قابلة للاختراق.

يشعر المُنَجِّم أن شخصيته قد تعافت، وهو ما شعر به من تلك المدة الغريبة التي قضاها بعيداً.

فكر، ثم فكر في أنه من الممكن صنع فولاذ النيكل وبناء مدافع من الأنابيب الموصلة. لم لا؟ يتخطى تفكيره الآن العقبات بمرونة. ثم بعد ذلك، مع الأموال التي توفرها بيوت الدعارة،

سيتم شراء الأراضي في أجزاء مختلفة من الجمهورية بسعر بخس. هناك يضع أعضاء النزل القواعد الخرسانية المسلحة لإرساء قطع المدفعية، مما يحاكي بناء الصوامع لحفظ الحبوب.

وفي رأسه فكرة إمكانية إنشاء جيش ثوري داخل البلاد، ينهض عن طريق إشارة هاتف لاسلكي. لم لا؟ الصلب والكروم والنيكل. مثل التعويذة يقفز الكلمة في خيالك. الصلب والكروم والنيكل. سيكون كل قائد خلية مسؤولاً عن بطارية. ما هو المطلوب باختصار؟ دع المدافع تطلق خمسمئة أو أربعمئة قذيفة. وسيارات مزودة بمدافع رشاشة. لم لا؟ كل عشرة رجال مدفع رشاش وسيارة ومدفع. لماذا لا تتمرن؟

ببطء، في أعماق الليل الأسود، تنحني بيضة فولاذية عملاقة شديدة السخونة، بين عمودين، ببطء طرفها نحو قبة ما.

إنه محول بسمر مدفوعاً بمكبس هيدروليكي. سيل من الشرر والنيران المشتعلة يخرج من طرف البيضة الفولاذية. إنه الحديد الذي يتم تحويله إلى صلب، مذاب في القاعدة بواسطة نفاثة من الهواء بمئات الكيلوات من الضغط الجوي. الصلب والكروم والنيكل. لماذا لا تتمرن؟ تفكيره ثابت على مئات التفاصيل. منذ وقت ليس ببعيد سأله الصوت نابع من داخله: ـ ما السبب وراء أن السعادة البشرية لا تشغل سوى مساحة صغيرة جداً؟

هذه الحقيقة تحزن حياته. يجب أن يمتلك العالم قلة فقط. وهذه القلة تسير بخطوات عملاقة.

من الضروري خلق التعقيد. ثم بعد ذلك وضوح الرؤية. قتل بارسوت أولاً، ثم إنشاء بيوت الدعارة، ثم المستعمرة على الجبل، لكن كيف نجعل الجثة تختفي؟ أليس من الغباء أنه، الرجل الذي يجد سهولة في بناء مدفع وصنع الفولاذ والكروم والنيكل، لديه الكثير من الفشل في جعل جثة تختفي؟ صحيح أنه لا يجب أن يفكر... سيحرقها... خمسمئة درجة كافية لتدمير جثة موجودة في وعاء. فقط خمسمئة درجة.

يمر الوقت والتعب في ذهنه. لا يريد أن يفكر، وفجأة الصوت، الصوت المستقل عن فمه وإرادته، يهمس من الداخل ليشتت انتباهه قليلاً: ـ سوف تنفجر الحركة الثورية في نفس الوقت في جميع مدن الجمهورية. سنهاجم الثكنات. سنبدأ بإطلاق النار على كل من يمكنه إحداث ضجة. سيتم إطلاق بضعة كيلو جرامات من التيفوس والطاعون الدبلي قبل أيام في العاصمة. بالطائرات خلال الليل. ستقطع كل خلية على مقربة من العاصمة خطوط السكك الحديدية. لن نسمح للقطارات بالدخول أو الخروج. مع هيمنة الرأس، استخدام التلغراف في القمع، إطلاق النار على القادة، القوة لنا. كل هذا جنون محتمل، وهو يعيش دائماً في جو من الأحلام والسير أثناء النوم عندما يكون في طريقه لإنجاز الأمور. ومع ذلك، فإنه يتجه نحوهم ببطء شديد لدرجة أن كل شيء يسبب مفاجأة عندما يتم تحقيقه. لهذا فمن الضروري فقط امتلاك الإرادة والمال. نستطيع أن ننظم بعيداً عن الزنازين عصابة من القتلة والمهاجمين. كم عدد الطائرات التي ستكون في متناول الجيش؟ لكن مع انقطاع وسائل الاتصال لديهم، واقتحام الثكنات، ورمي الرؤساء بالنار، من الذي يحرك تلك الآلية؟ هذا بلد الوحوش. عليك أن تطلق النار. هذا ما لا غنى عنه. فقط من خلال زرع الرعب سوف يحترموننا. هذا الرجل جبان. رشاش. كيف سيتم تنظيم القوات التي يجب أن تقاتلنا؟ مع قطع التلغراف والهاتف، وقطع قضبان السكك الحديدية، يمكن لعشرة رجال ترويع عدد سكان يبلغ عشرة آلاف شخص. يكفي أن يكون لديهم مدفع رشاش. هناك أحد عشر مليون نسمة. الشمال مع اليربال سوف يجيبنا. توكومان وسانتياغو ديل إستيرو، مع مصانع السكر، سان خوان مع أنصاف الشيوعيين، الجيش فقط أمامنا. يمكن مداهمة الثكنات ليلاً مع سرقة مخزن الأسلحة، إطلاق النار على القادة وقطع الرقاب، مع عشرة رجال يمكننا الاستيلاء على ثكنة تضم ألف جندي طالما لدينا رشاش. هذا سهل جداً. والقنابل اليدوية، أين أضع القنابل اليدوية؟ فقط مفاجأة متزامنة في البلد كله، عشرة رجال في كل مدينة والأرجنتين هي ملكنا. الجنود شباب وسيتبعوننا. سنقوم بترقية العسكريين إلى ضباط وسيكون لدينا الجيش الأحمر المستحيل الذي عرفته أمريكا على الإطلاق. لم لا؟ من وراء الاعتداء على بنك سان مارتين، والاعتداء على مستشفى روسون،

والاعتداء على وكالة مارتيلي في مونتي فيديو؟ ثلاثة أخبار صحفية صماء وتم القضاء على مدينة.

ضغينة مملة تجعل عروقه تنبض. يندفع الدم عبر جسده القاسي المشدود في موقف هجومي. إنه يشعر بأنه أقوى من أي وقت مضى، قوة الشخص الذي يمكنه إطلاق النار.

يومض الضوء الكهربائي تحت صوت العاصفة، لكن المُنَجِّم جلس مسنداً ظهره إلى السرير، على الجذع، ورجلاه متقاطعتان، وذقنه على راحة يده، ومرفقه على ركبته. رفع عينيه نحو الدمى الخمس التي ارتجفت ظلالها الممزقة على الحائط الوردي.

خلفه، كون المطر الذي مر عبر النافذة بركة على الأرض، الأسئلة والأجوبة عبرت في صمت، في بعض الأحيان بعض التجاعيد غمرت جبين المُنَجِّم، ثم عيناه غير المتحركتين، في وجهه المعيني، ثم أومأ برأسه ببطء. في إجابة حسب رغبته، وبقي كذلك حتى طلوع الفجر، في الوقت الذي اعتدل فيه من جلسته، بسخرية أدار ظهره للدمى الخمس التي بقيت في عزلة الثكنات، مترنحة تحت الراية، مثل خمسة رجال مشنوقين.

تفكر للحظة، ثم نزل بسرعة على الدرج، وغادر البوابة، وبخطى سريعة توجه يشق الضباب نحو المخزن حيث يقبع بارسوت حبيساً.

لم تعد تمطر. ها قد انقشعت الغيوم، وكشفت عن بقعة صفراء من ضوء القمر بلون أزرق صافٍ.

الوحي

وقعت هذه الأحداث في غضون ذلك، في دار رعاية مرسيدس. دخل إرجويتا إلى ما أسماه فيما بعد «علم الله». هكذا سارت الأمور. استيقظ عند الفجر في غرفة المعيشة. وضع القمر خطوط متوازية مشكلاً مستطيلاً أزرق اللون على الجدار المطلي بالأبيض أمام سريره. من خلال قضبان النافذة المفتوحة، يمكنك رؤية السماء محاطة بإطار مضاد، سماء جافة

مسامية من اللون الأزرق مثل الجص الملون بالميثيلين. في شبكية الحديد، ارتعدت خيوط الماء من أحد النجوم.

خدش إرجويتا أنفه تماماً، رغم أنه لم يشعر بالقلق الشديد حيال ذلك. لقد فهم أنه في غرفة الجنون، لكن هذا «أمر لا يعنيه».

كان يقلقه إذا كانت روحه قد تم تسخيرها، لكن ما كان حبيساً في الواقع في غرفة الجنون هو جسده، جسده الذي يزن تسعين كيلو غراماً، والآن مع بعض الاستياء الذي لا يمكن تفسيره، تذكر أنه قد انخرط في عدة بيوت دعارة. ودون أن يتمكن من تجنب ذلك، استعرض الحياة الحسية التي كان يأنف منها على أنها مشهد مشين. ولكن ما علاقة روحه بهذا الجسد الغاضب؟

كانت هذه حقيقة واضحة لفهمه لدرجة أن حقيقة أن الأطباء لم يلاحظوا مثل هذا الاختلاف بعد قد أصابته بدهشة شديدة.

اندهش إرجويتا من اكتشافه. لم يعد رجلاً، بل كان روحاً، «إحساساً بالنقاء الروحي»، مع حواف مقطوعة بشكل حاد داخل الإطار اللحمي لجسمه، مثل الغيوم في الفضاء اللانهائي.

كان مبتهجاً قليلاً. في الليالي السابقة كان لديه يقين من أنه يستطيع فصل روحه عن جسده، وتركه مهجوراً مثل الملبس. عند اكتشافه، منحه هذا اليقين المفاجئ خوفاً خفيفاً. حتى في لحظات معينة كان يشعر في بشرته بأنه يلمس حواف روحه فقط، بحيث يشعر بأن كتلة جسده على وشك السقوط واتزان جلده يصيبه بالغثيان. كان الأمر كما لو كان يهبط بسرعة قصوى بداخل مصعد.

كما أنه يخاف من امتلاك الإرادة اللازمة للخروج من جسده، لأنه إذا هلك فكيف سيتمكن من الدخول؟ كان للممرض وجه مبتذل، وحتى لو أخبره عن بعض المسائل الحسابية من أجل «الاجتماع» التالي، فإنه لن يشعر بالأمان التام. ولكن بعد هذا الانطباع الأول كان

سعيداً باعتقاده أنه طفل ضعيف، الأمر الذي لم يمنعه من الضحك من فراشه على الكوميديا التي حاول بها تهدئة كيلو جراماته التسعين، غير واضع في الاعتبار أنه يستطيع الذهاب أينما شاء، ولكن لا، لم تكن مسألة لعب. طيبته لم تتمكن من الاعتراف بذلك. وكم كان جميلاً أن تشعر أنك محاط بالرحمة! انتشرت رحمته في العالم كسحابة فوق أسطح المدينة.

كان جسده ينخفض وينخفض.

الآن رأيته في أسفل الدرج، المصحة بين المكعبات البيضاء للمنازل كانت عبارة عن مكعب آخر، كانت الشوارع زرقاء بين أوراق الظلال، والأضواء الخضراء لـإف سي إسكانت تتوهج في خفوت، ودخل بداخله الفضاء مثل المحيط في إسفنجة، بينما قد توقف الزمن.

سقطت المرتفعات من خلال بهجته. شعر إرجويتا بالسكون، والاستحواذ على الخير لنفسه، بإرادة قوة خارجية. هذه هي الطريقة التي تستمتع بها البركة الجافة بالمطر الذي ترسله السماء. من الأرض التي تحولت إليها جمعيته الخيرية، رأى الحواف الخضراء المستديرة يلعقها الأثير الأزرق.

ولأنه لم يكن من الطبيعي أن يظل صامتاً، لم يسعه إلا أن يقول:

ـ شكراً لك... شكراً لك ربي!

لم يكن فضولياً. برزت قوة تواضعه في الامتثال.

في النعومة السماوية، لمح فجأةً منطقة صخرية مذهلة. غمر الضوء الذهبي الحجارة على الرغم من الليل، وسقط اللون الأزرق في الوديان العميقة للتلال الذهبية. إرجويتا منتصباً، مع استعادة جسده، تقدم بخطوات حكيمة، مسلطاً عينيه الناريتين على ملامحه الخاصة بالصقر.

وبطبيعة الحال، لم يشعر بالارتياح لأن جسده قد آذاه مرات لا حصر لها، ولأنه فهم أن وجهه، على الرغم من التعبير الخطير الحالي الذي يعتريه، كانت له ملامح نشطة وشراسة رجال الماليفوس، التي اعتاد تقليدها عندما كان صغيراً في الضواحي ومع الباتوتا.

لكن روحه كان يعتريها الندم وربما كان ذلك كافياً، وهو ما لم يمنعه من أن يقول لنفسه:

ـ ماذا سيقول الرب عن «مظهري»؟ كيف يمكنني عرض نفسي عليه؟ وعندما نظر ميكانيكياً إلى نفسه من أخمص قدميه إلى رأسه، وجد أنه مشوه، مما زاد من ارتباكه. ماذا سيقول الرب عن «مظهري» وعن وجه هذا الحمار والقواد؟ سيسألني عن خطاياي، سيتذكر كل الحيل التي فعلتها، وماذا سيكون جوابي حينئذٍ؟ لم أكن أعلم، لكن كيف سأخبره بذلك، إذا ترك الشهادة إلى جميع أنبيائه؟

مرة أخرى قام بفحص حذائه، متسخاً ومرقعاً.

ـ ويقول لي: «لقد صرت مغفلاً... مخجلاً، ولذلك ذهبت إلى الجامعة. لقد عزفت على «الحمير» ما كان يمكن أن يكون عزاءً لليتيم وللحياة، وحصلت على طين في عربدة الروح الخالدة التي أعطيتك إياها، وأبعدت ملاكك الحارس من خلال الانخراط في بيوت الدعارة وهو يبكي خلف بكائك، بينما كان لحم المؤخرة الكبير مليئاً بالرجاسات...»، وأسوأ ما في الأمر هو أنني لا أستطيع أن أنكره؛ كيف أنكر الخطيئة؟ يا لها من عصا يا إلهي!

كانت السماء فوقنا عبارة عن قبة زرقاء من الجبس. تدور حول الكواكب الإهليلجية البعيدة مثل البرتقال، ونظر إرجويتا بتواضع إلى الصخرة الذهبية.

فجأة حرج كبير أزعج تواضعه. رفع رأسه وعن يساره توقف على بعد عشر خطوات، رأى ابن الرجل.

الناصري، المغطى برداء سماوي، أعاد إليه صورة صقر قريش حيث أشرقت عينه اللوزية الهادئة.

عانى إرجويتا حزناً شديداً، لم يستطع الركوع، «لأن البقان يحافظ دائماً على الخط» ولا يركع أمام نجار يهودي، لكنه شعر بالنعاس يلف روحه، فمد ذراعيه بصمت متصل بأصابعه نحو الله الصامت.

لقد شعر أن كل خده كان مملوءاً بالإخلاص نحوه. نظر بهدوء إلى يسوع متوقفاً على الصخرة. اغرورقت عينا إرجويتا بالدموع.

وأعرب عن أسفه لأنه لم يكن هناك أحد يستطيع أن يضرب نفسه به ليُظهر للرب مدى حبه له، وبدا الصمت لا يطاق لدرجة أنه، وتغلباً على الإبادة الرهيبة، توسل بتواضع: ـ أود أن أكون مختلفاً، لكن لا يمكنني ذلك. كان يسوع ينظر إليه.

ـ صدقني... لا أعرف ماذا أقول لك ولا مقدار حبي لك. أدار إرجويتا له ظهره، مشى ثلاث خطوات، ثم استدار، توقف.

ـ لقد ارتكبت كل الذنوب والعديد من الماكا... الهراء... أود أن أندم عليه ولا أستطيع، أود الركوع، الحق، تقبيل قدميك، أيها المصلوب مكاننا... آه! إذا كنت تعرف كل تلك الأشياء التي أردت أن أقولها لك وتهرب مني... وأنا أحبك بلا شك. هل هذا لأننا رجل لرجل؟

كان يسوع ينظر إليه.

ابتسامة، نعمة جديدة لاحت على وجه يسوع.

سكت إرجويتا للحظة، ثم احمر خجلاً، غمغم بخجل:

ـ أوه! هتف إرجويتا بجنون كم هو رائع أنه أنت. يا للروعة! إنه لشرف لي أن تبتسم لي، أنا الخاطئ، هل ترى ذلك؟ لقد ابتسمت. إلى جوارك، صدقوني، أشعر وكأنني فتى، «بوريت». أود أن أحبك طوال حياتي، لأكون حارسك الشخصي. الآن لن أذنب بعد الآن، طوال حياتي سأفكر فيك، الرجل المسكين الذي يشك فيك... لقد كسرت روحه...

كان يسوع ينظر إليه.

ثم قال إرجويتا، وهو يريد أن يقدم أفضل ما لديه:

ـ «أركع أمامك». تقدم بخطوات قليلة ووصل أمام يسوع ثم أحنى رأسه، وركع على ركبة واحدة أمام الصخرة الذهبية، وكان يسجد عندما قدم يسوع يده المثقوبة، وأراحها على كتفه، ثم قال: ـ هيا. اتبعني دائماً ولا تخطئ بعد الآن، لأن روحك جميلة مثل روح الملائكة الذين يسبحون الرب.

أراد أن يتكلم، لكن الفراغ والصمت أصاباه بدوار. أدرك إرجويتا أنه دخل في معية الله. كان هذا واضحاً جداً، لأنه عندما التفت إلى الأصوات التي بدت في الغرفة المظلمة، صاح رجل مجنون أخرس منذ ولادته، ونظر إليه بغرابة: ـ يبدو أنك أتيت من الجنة. نظر إليه إرجويتا بدهشة.

ـ نعم، لأنك، مثل القديسين، لديك عجلة من النور على رأسك.

انحنى إرجويتا على الحائط بخوف خفيف. هتف رجل مجنون أعور، كان حتى ذلك الحين صامتاً:

ـ معجزات! أنت تصنع المعجزات. لقد أعدت إمكانية الكلام للعالم. جذبت تلك المحادثة انتباه شخص ثالث ممسوس، قضى أيامه في قتل القمل الوهمي بين أصابعه البالية، وقال الرجل الملتحي، الذي شحب وجهه: ـ لقد جئت لإحياء الموتى.

ـ ولإعطاء البصر للمكفوفين. قاطع العالم.

ـ وكذلك ذوو العين الواحدة، أكد المجنون الذي كان قد فقد إحدى عينيه، «لأنني الآن أرى من هذا الجانب».

تابع الرجل الأخرس، مسنداً صدره بكلتي ذراعيه على الفراش:

ـ أنت لست أنت بل الله الذي في جسدك.

تفاجأ إرجويتا، وأكد:

ـ هذا صحيح يا أخي، هذا لست أنا، لكن الله الذي في داخلي. كيف يمكنني، أنا الداعر البائس، أن أصنع المعجزات؟

ـ لماذا لا تصنع معجزة أخرى؟

ـ لم آت كي أفعل ذلك، بل لأبشر بفعل الله الحي.

قام قاتل القمل بجر إحدى قدميه الى ركبته وأصر بشكل خبيث:

ـ يجب أن تفعل معجزة.

وضع الرجل الصامت وسادته على أرضية غرفة المعيشة وجلس عليها، ثم قال:

ـ أنا لا أتكلم بعد الآن.

ضغط إرجويتا على معابده مندهشاً مما رآه. تأمل الرجل الأعور:

ـ نعم، كان يجب أن تقوم بإحياء ذلك الرجل الميت.

ـ لكن لم يكن من موتى هنا!

تقدم الرجل ذو العين الواحدة وهو يعرج تجاه إرجويتا، وأخذه من ذراعه بالكاد يسحبه نحو سرير على باب المدخل، حيث يرقد رجل صغير ذورأس مستدير وأنف ضخم، بلا حراك.

اقترب العالم، وشفتاه تتقلصان.

ـ ألا ترى أنه ميت؟

ـ «مات بعد ظهر اليوم». تذمر الرجل ذو العين الواحدة.

ـ «أقول لك إن هذا الرجل لم يمت». صرخ إرجويتا بانفعال، مقتنعاً أن الآخرين كانوا يسخرون منه؛ لكن قاتل القمل قفز من سريره، واقترب من السرير الآخر، انحنى على الرجل الصغير ذي الرأس المستدير ودفع الجسم غير المتحرك لدرجة أن الأخير، عندما سقط، تردد صدى ارتطامه على أرضية غرفة المعيشة، وبقي بين السريرين ورجلاه مرفوعتان، مثل شوكة شجرة تم تقليمها مؤخراً.

ـ هل اقتنعت بأنه ميت؟

وقف المجانين الأربعة في فزع حول الشوكة، محاطين بمستطيل القمر الأزرق السماوي، وأثواب نومهم منتفخة بفعل الرياح.

ـ هل اقتنعت بأنه ميت؟ كرر الرجل الملتحي.

قال الرجل ذو العين الواحدة: هيا اصنع معجزة. كيف سنؤمن بك إذا لم تقم بصنع معجزة؟ ما هي تكلفة القيام بذلك؟

أمال العالم، فجأة، رأسه، مقدماً لإرجويتا بوادر الإذعان.

انحنى بشدة على الجثة، وكان على وشك نطق كلمات الحياة، لكن فجأة حوّلت جدران القاعة خطط المكعب أمام عينيه، وهبت ريح سوداء في أذنيه، ريح مظلمة تعوي في أذنيه، ومرةً أخرى كان لديه الوقت لرؤية ثلاثة مجانين مؤطّرين بالمستطيل السماوي للقمر، مع ثياب النوم التي تضخمها الرياح، بينما كان ينزلق على الظل الذي يقطع زوبعة الظلام الدوامة، في حالة من اللاوعي.

الانتحاري

بقي أردوسين على قدمي العرجاء لمدة ساعة على الأرجح. كانت المشاعر السابقة تؤثر في نعاسه الحالي. شعر بالغرابة تجاه كل ما حدث على مدار اليوم. تصلب الكرب والحقد في صدره كالوحل في الشمس.ومع ذلك ظل بلا حراك، خاضعاً لقوة النعاس المظلم النابع من تعبه. لكن جبينه متجعد. ومن خلال الضباب والظلام نما يأسه الآخر، الخوف اليائس من الضياع مثل شبح على حافة سد من الجرانيت. المياه الرمادية رسمت أشرطة مختلفة الارتفاع تجري في اتجاهات معاكسة. تنقل القوارب الحديدية أشخاصاً ضبابيين إلى المحلات التجارية البعيدة. كانت هناك أيضاً امرأة ترتدي مثل الإناء الصغير، مع ذقن من الماس، واضعة مرفقيها على طاولة حانة وضغطت خديها بين أصابعها المرصعة بالجواهر. وبينما كانت تتحدث، حك أردوسين طرف أنفه. ولكن نظراً لأن هذا الموقف لم يكن قابلاً للتفسير، فقد تذكر أردوسين أن أربع فتيات صغيرات كن قد ظهرن بفساتين حتى ركبهن وشعرهن الأصفر أشعث حول وجوههن على شكل حصان. وأثناء مرور الفتيات الأربع عليه، كن يحملن صحناً. عندها تساءل أردوسين: «هل من الممكن أن يطعمن أنفسهن وهن يقمن بهذا فقط؟»، ثم أجابت النجمة، الكسر الصغير، التي كانت لديها لحية مزدوجة لامعة تحت ذقنها، بنعم، أن الفتيات الأربع يعشن بالتسول، وبدأت في الحديث عن أمير روسي، لديه صوت أنثوي جميل، أسلوب حياته على الرغم من محاولاته اللتلاعب به، ولكن لم يتفق مع ما كانت الفتيات الأربع الصغيرات يلبسنه. وفي الآونة الأخيرة، كان أردوسين قادراً على تفسير سبب حكّ أنفه بينما المرأة الجميلة تتحدث بشكل مرضٍ.

بالإضافة الى أن حزنه ازداد عندما رأى أولئك الناس الصامتين، يديرون رؤوسهم، يدخلون في عربات قافلة طويلة، كانت كل الستائر فيها مغلقة. لم يسأل أحد عن الطرق أو المحطات. على بعد عشرين خطوة، امتدت صحراء من الغبار حوافها المظلمة. لم تبد القاطرة في الأفق، لكنه سمع صوت صرير السلاسل عند تحرير الفرامل. كان بإمكانه الركض واللحاق بالقطار، بينما ينزلق ببطء، وتسلق السلم والبقاء لحظة على منصة آخر سيارة، ومشاهدة القافلة وهي تكتسب سرعتها. كان أردوسين لا يزال في الوقت المناسب

للابتعاد عن تلك العزلة الرمادية دون مدن مظلمة، لكنه توقف بسبب معاناته الهائلة، وقف هناك ينظر بعين النشوة في حلقه، آخر سيارة ذات نوافذ مغلقة بشدة.

عندما رآه يدخل منحنى القضبان التي يغطيها جدار الضباب، أدرك أنه قد تُرك وحيداً إلى الأبد في صحراء الرماد، وأن القطار لن يعود أبداً، وأنه سيستمر دائماً في الانزلاق بصمت، مع كل تلك الستائر على نوافذه وعربات مغلقة بشكل صارم.

ببطء سحب وجهه من فوق ركبتي هيبوليتا. لقد توقف المطر. كانت ساقاه باردتين، ومفاصله تؤلمه. نظر للحظة في وجه المرأة النائمة، غير واضح في الضوء الأزرق الذي دخل من خلال النوافذ، وتوقف بحذر استثنائي. كانت الفتيات الأربع بوجه حصان وشعر أصفر مجعد ما زلن بداخله. فكر: «كان علي أن أقتل نفسي...»، ولكن عندما نظر إلى الشعر الأحمر للمرأة النائمة، اتخذت أفكاره منعطفاً آخر أكبر. «لا بد أن يكون شريراً». ربما يقتلها، على أي حال، ضغط على مقبض المسدس الذي في جيبه، يكفي إطلاق رصاصة على الجمجمة. الرصاصة مصنوعة من الفولاذ وستحدث ثقباً صغيراً فقط.

بالطبع، ستخرج عيناها من تجاويفهما وربما تنزف أنفها. يا لروحها مسكينة! لا بد وأنها قد عانت كثيراً. لكن يجب أن يكون قاسياً.

كان يتملكه تجاهها حقد حذر. عندما نظر إلى المرأة النائمة، اكتسبت عيناه ثباتاً مجنوناً، بينما كان يرفع زر الأمان ويده في جيبه، وسحب الزناد. كان الرعد يدب من بعيد، وعدم الترابط الغريب ذلك الذي غطى دماغه كحجاب وابتعد عنه؛ وبعد ذلك، بعد اتخاذ الاحتياطات اللازمة، التقط سلاحه، وأغلق المصاريع، متأكداً من عدم صرير المفصلات، وخرج.

نزل الدرج، شعر بسعادة أنه جائع.

ذهب إلى أحد مطاعم المشويات العديدة المجاورة لسوق سبينيتو، وسار على عجل عابراً بضع بنايات.

يتدحرج القمر فوق السديم الكثيف لسحابة أرجوانية، والأرصفة تمتد على مدى البصر، في ضوء القمر، يمكن القول إنها مغطاة بألواح من الزنك، والبرك تتلألأ بأعماق الفضة الميتة، وبطنين دائري، جرى الماء، ولعق حبال الجرانيت. كان الطريق رطباً جداً لدرجة أن الأحجار المرصوفة بالحصى بدت ملحومة بالقصدير المصهور مؤخراً. دخل أردوسين وخرج من الظلال الزرقاء التي تقطع الواجهات بشكل غير مباشر. كانت رائحة البلل تنقل إلى عزلة الصباح بعض الخراب البحري.

بلا شك، لم يكن في عقله الصحيح. كان لا يزال منزعجاً بسبب الفتيات الأربع ذوات وجوه الحصان، والبحر الشرير بأمواجه الحديدية. الرائحة النتنة للزيت المحترق المنثور على الباب الأصفر لمصنع ألبان أصابته بالغثيان، وبعد ذلك، غيَّر رأيه، ذهب إلى بيت دعارة يتذكر أنه كان في شارع باسو، ولكن عندما وصل، كان الباب مغلقاً بالفعل، مرتبكاً يرتجف من البرد، وكان طعم فمه مثل كبريتات النحاس، دخل مقهى حيث تم رفع الستائر المعدنية للتو. بعد انتظار طويل، قدَّم له الشاي الذي طلبه.

فكر في المرأة النائمة. ضاق عينيه، وأمال رأسه على الحائط، وألقى على نفسه أكثر أحزانه.

لم يكن يعاني من أجله، الرجل المسجل باسمه في السجل المدني، ولكن ضميره، الذي تحول بعيداً عن ذلك الجسد، نظر إليه مثل شخص غريب، وقال: ـ من سيرحم هذا الرجل؟

وهذه الكلمات، التي نجحت في التقاط فكره، أزعجته، ملأته بالعشق المؤلم لجيران غير مرئيين.

ـ سقوط... يسقط دائماً. ومع ذلك، فإن الرجال الآخرين سعداء، ويجدون الحب، لكنهم جميعاً يعانون. ما يحدث هو أن البعض يدرك ذلك والبعض الآخر لا يدركه. يعزو البعض

ذلك إلى ما ليس لديهم. لكن يا له من حلم غبي! ومع ذلك، كان وجهها لطيفاً. ما كان منطقياً هو ما أخبرته عن الأمير المغامر. آه! فلتتمكن من النوم في قاع البحر بقطعة من الرصاص ذات زجاج سميك.

نم لسنوات وسنوات بينما تتراكم الرمال وتنام. هذا هو السبب في أن المُنَجِّم على حق. سيأتي اليوم الذي يقوم فيه الشعب بالثورة، لأنهم يفتقرون إلى الله. سيضرب الرجال حتى يجدوا الله.

وصلت إليه رائحة السيانيد المرة. وعندما أدرك ضوء الصباح اللبني من خلال جفنيه، شعر بأنه ضعيف كما لو كان في قاع البحر والرمل يرتفع إلى أجل غير مسمى فوق كوخه الرئيسي. شخص ما لمسه من الخلف.

فتح عينيه في نفس الوقت الذي كان يقول فيه نادل المقهى:

ـ لا يمكنك النوم هنا.

كان على وشك الرد، لكن النادل تنحى جانباً ليوقظ نائماً آخر. كان هذا رجلاً سميناً سقط رأسه الأصلع على ذراعيه المتصالبتين على الطاولة.

لكن النائم لم يستجب لأصوات النادل، ولذلك، متفاجئاً، اقترب صاحب المقهى، رجل لديه شوارب ضخمة مثل مقود الدراجة، وهز زبونه بطريقة جعلته ينحني على الكرسي. دون أن يسقط لأن حافة الطاولة منعت ذلك.

نهض أردوسين متفاجئاً، بينما نظر كل من المالك والنادل إلى الزبون الوحيد بارتياب. بقي النائم في وضع سخيف. انخفض رأسه تجاه كتف واحدة، وكشف عن وجهه المسطح، المليء بالدوائر السوداء لنظارات مدخنة. بقعة من الحمرة سال لعابه ملطخاً ربطة عنقه الخضراء، فاراً من شفتيه المزرقتين.

كان مرفق الغريب يضغط على ورقة مكتوبة على الطاولة. لقد فهموا أنه مات. اتصلوا بالشرطة، لكن أردوسين لم يتحرك من هناك، غاضباً من مشهد انتحار الرجل الشرير ذي النظارات السوداء، حيث غُطيت بشرته ببطء بالبقع الزرقاء. وبدا أن رائحة اللوز المر التي كانت لا تزال في الهواء تهرب من بين الفكين المفتوحين.

وصل ضابط شرطة، ثم رقيب، وبعد ذلك حارسان وضابط مفتش، وكان هؤلاء الناس يتجولون حول الرجل الميت، وكأنه ماشية. وفجأة قال المساعد مخاطباً المفتش: ـ ألا تعرف من هو؟

أخذ الرقيب من جيب الجثة بطاقة فندق، وعدة عملات معدنية، ومسدساً، وثلاثة أحرف مختومة.

ـ إذاً هذا هو الذي قتل الفتاة في شارع تالكاهوانو؟

نزعوا النظارات عن الرجل الميت، والآن كان يمكن لهم رؤية عينيه، حدقتاه تحدقان، قرنيته مرفوعة، جفونه ملطخة باللون الأحمر كما لو كان يبكي بدموع دامية.

ـ ألم أخبرك؟ تابع المساعد. هنا بطاقة الهوية.

ـ كنت ذاهباً إلى أوشوايا لمدى الحياة.

ثم تذكر أردوسين، عند سماعه هذه الكلمات، كما لو أنه قد قرأها منذ زمن طويل. (ومع ذلك بدون شك، في صباح اليوم السابق كان قد اكتشف ذلك في إحدى الصحف). كان الرجل الميت محتالاً. ترك زوجته وأطفاله الخمسة ليعيش في السر مع امرأة أخرى والتي كان قد أنجب منها ثلاثة أطفال، لكن قبل ليلتين، ربما سئم من الباراغانا، ظهر في فندق في شارع تالكا هوانو بصحبة فتاة صغيرة في السن ذات سبعة عشر عاماً، عشيقته الجديدة. وفي الثالثة صباحاً غطى رأسها برفق بوسادة، وأطلق رصاصة في أذنيها. في الفندق لم يسمع أحد شيئاً. ثم في الثامنة صباحاً، ارتدى القاتل ملابسه، وترك الباب نصف مفتوح، ونادى

النادلة، وطلب منها عدم إيقاظ السيدة حتى العاشرة، لأنها كانت متعبة جداً. ثم غادر، وفقط في تمام الساعة الثانية عشرة تم اكتشاف القتيلة.

لكن ما أثار إعجاب أردوسين بشكل غير عادي هو التفكير في أن القاتل قضى خمس ساعات في صحبة المرأة الميتة، خمس ساعات بجوار جثة الشابة في عزلة الليل، وأنه لا بد أنه أحبها كثيراً.

لكن ألم يفكر في نفس الشيء قبل ساعات أمام المرأة ذات الشعر الأحمر؟ هل كانت تلك ذكريات غير واعية أم أن الرغبة في الانتحار تضاعفت هناك؟

وصلت سيارة المساعدة العامة وتم تحميل جثة القتيل.

ثم استجوبوه. أعلن أردوسين عن القليل الذي يعرفه كشاهد، وخرج إلى الشارع مفتوناً. كان هناك سؤال غامض ومؤلِم في جعبته.

يتذكر الآن أن فم بنطال الجثة موحل، وقميصه متسخ ومبلل، وعلى الرغم من ذلك، كيف أصبح محبوباً من قبل الشابة التي قتلها؟ هل كان هناك حب إذاً؟ على الرغم من زوجتيه وأطفاله الثمانية المتناثرين وحياته المروعة كسارق ورجل محتال، أحبت هي هذا القاتل.

وتخيلته في الليل الكئيب، هناك، في ذلك الفندق الذي تتردد عليه البغايا وأفراد المهنة إلى أجل غير مسمى، في غرفة ذات ورق حائط ممزق، ينظر إلى الوسادة المبللة بالدماء على الوجه الشمعي للفتاة الباردة. خمس ساعات مظلمة يتأمل المرأة الميتة التي كانت تحمله بين ذراعيها العاريتين. بالتفكير بهذه الطريقة، وصل إلى بلازا أونزي، مصعوقاً بشكل مؤلم.

كانت الخامسة صباحاً. دخل محطة السكة الحديد ونظر حوله ولما كان نائماً لجأ إلى ركن في غرفة الانتظار.

استيقظ في الساعة الثامنة من نومه العميق على ضجيج أحد الركاب الذي يجرّ حقائبه. فركت قبضتاه جفنيه المتألمين. كانت الشمس مشرقة في سماء بلا سحب.

غادر، راكباً حافلة متجهة إلى كونستيتسيون. كان المُنَجِّم ينتظره في محطة تيمبرلي. ميّز أردوسين على الفور بشخصيته القوية المزخرفة، مع القبعة التي ألقيت على عينيه والشارب المتدلي على طريقة غالي.

قال المُنَجِّم: «إنك شاحب للغاية».

ـ أنا شاحب؟

ـ أصفر.

ـ لم أنم جيداً، وأسوأ ما حدث أني رأيت انتحاراً هذا الصباح.

ـ حسناً، هذا هو الشيك.

فحصه أردوسين. كانت قيمته خمسة عشر ألفاً وثلاثمئة وثلاثة وسبعين بيزو لحاملها، ولكن مع تأجيل الموعد يومين.

ـ لماذا أخرت الموعد؟

ـ سيوحي بمزيد من الثقة. يعرف موظف البنك أنه في حالة فقدان هذا الشيك، فإنه بحلول الوقت الذي تظهر فيه لصرفه، سيكون هناك بالفعل أمر مصادرة.

هل احتج؟

لا، كان يبتسم. هذا الرجل يظن أنه سوف يضعنا جميعاً في السجن. آه! قبل أن تذهب إلى البنك، اذهب إلى مصفف الشعر واحلق شعرك.

ـ وهل أبلغت الآخر؟

ـ لا، عندما يحين الوقت سنوقظه. كان يتبقى بضع دقائق فقط حتى وصول القطار. ابتسم أردوسين للمنجم وقال:

ـ ماذا ستفعل إذا هربت؟

الآخر، بأصابعه المتشعبة، يفرك شارب، ثم قال:

ـ هذا مستحيل مثل عدم توقف القطار هنا بعد وصوله.

ـ ولكن دعنا نعترف بذلك للحظة.

ـ لا أستطيع. إذا اعترفت بذلك للحظة، فلن تكون أنت من يصرف هذا الشيك. آه! من الذي انتحر هذا الصباح؟

ـ قاتل فضولي، لقد قتل فتاة صغيرة لم تكن تريد العيش معه.

ـ مجهودات مفقودة.

ـ وهل ستكون قادراً على القتل بنفسك؟

ـ لا، أنت تفهم أنني مقدر لي نهاية أعلى.

سأل أردوسين سؤالاً غريباً:

قل لي، هل تعتقد أن حمراوات الشعر قاسيات؟

ـ ليس كثيراً، لكنهن ضد الجنس؛ ومن ثم فإن البرودة التي يتفحصون بها الأشياء تترك انطباعاً سيئاً. أخبرني الروفيان ميلانكوليك أنه خلال مسيرته الطويلة كقوّاد التقى عدداً

قليلاً جداً من البغايا بشعر أحمر، كما تعلم. لا تنسَ أن تحلق. عليك الذهاب إلى البنك في الحادية عشرة، وليس قبل ذلك. ستتناول الغداء معي اليوم، أليس كذلك؟

نعم أراك لاحقاً.

بعد أردوسين، جاء الرائد الذي تلقى إشارة ودية من المنجم. لم يره أردوسين.

غارقاً بالفعل في كرسيه، فكر أردوسين:

ـ إنه رجل غير عادي. كيف عرف بحق الجحيم أنني لن أخدعه، إذا نجح في أشياء أخرى مثل نجاحه في هذه سينتصر، ويهزمه اهتزاز القطار الذي أصابه بالنعاس مرة أخرى.

خلفه كان الرائد. وهو بالفعل في البنك، وقلبه ينبض بشدة، اقترب من النافذة عندما نادى عليه موظف الدفع:

ـ هل تريد عملات كبيرة أم صغيرة؟

ـ كبيرة.

ـ وقع هنا.

وقع أردوسين على ظهر الشيك. كان يعتقد أنهم سيطلبون منه بطاقة هوية، لكن الموظف غير عاطفي، وذراعاه المحميتان بأكمام لامعة، أحصى عشرة آلاف بيزو من الأوراق النقدية، وخمسمئة والباقي بعملة أصغر. وعلى الرغم من أن أردوسين أراد الفرار خوفاً، فقد عدَّ النقود بدقة، ووضعها في محفظته، ووضعها في جيب بنطاله، وأمسكها بإحكام، وخرج إلى الشارع.

من بين غابات الغيوم البيضاء، ظهر كمعدن مغسول حديثاً، حلزون من السماء. (أردوسين) شعر بالسعادة. كان يعتقد أنه في مناخات أخرى وتحت مساحة زرقاء مثل تلك التي كان

ينظر إليها، يجب أن تكون هناك نساء مفردات، مع شعر فاخر ووجوه سلسة، مع عيون كبيرة على شكل اللوز، غامضة في ظلام الرموش الطويلة. وأن الهواء المعطر دائماً سيترك أزقة الصباح نحو أفواه المدن، متدحرجاً على أعشاب الحدائق، متجاوزاً بأبراجها الكروية قمم الحدائق والمدرجات.

وجه المُنَجِّم المعين، مع الخطوط الطولية المتساقطة على طول زوايا شفتيه، وقبعة المدرب المحبوكة، مما أثار حماسته؛ ثم ظن أنه قد انضم إلى المجتمع ليواصل اختباراته الكهروتقنية، والآن يعبر الشوارع كإمبراطور مدمر، دون أن يدرك أن وجوده أغوى عمال الكي الذين مروا بالسلات تحت أذرعهم، وأثار البنطلونات التي عادت من مخازن ذات حزم ثقيلة.

كان يخترع شعاع الموت، البرق البنفسجي الشرير الذي سيذيب عن طريق الملايين من الأمبيرات الفولاذ من دريدنوتس، كما يذيب الفرن عدس الشمع، ويحول مدن بورتلاند إلى ركام، كما لو كانت تثيرها براكين ثلاثين يتروتولوين. لقد رأى نفسه أصبح سيد الكون. بهيكل عظمي قاطع استدعى سفراء الدول. وجد نفسه في غرفة واسعة ذات جدران زجاجية، وسطها مائدة مستديرة. حول الكراسي، كان الدبلوماسيون القدامى، ورؤساء بدون شعر، ووجوه رصاصية، ونظرات صلبة وخفية. كان البعض ينقر على زجاج الطاولة بظهر قلمهم، وآخرون يدخنون بصمت، وكان عملاق أسود متجمد باللون الأخضر يقف بلا حراك بجوار المخمل الأحمر للستائر التي غطت المدخل.

وهوا! أردوسين، أوغستو ريمو أردوسين، اللص السابق، المحصل السابق للديون، كان ينهض. تمثال نصفي تميزه سترة متقاطعة سمراء كان له انعكاس في زجاج الطاولة مع أصابع اليد اليمنى الأربعة في جيبه، وعلى اليسار بعض الأوراق. واقفاً، كان يتفحص الوجوه الجامدة للسفراء بعيون جليدية. شحوب؛ شحوب رهيب شل حركته ببردها اللذيذ. نجا أبطال من جميع الأعمار فيه. عبر(أوليسيس)، و(ديميتريوس)، و(هانيبال)، و(لويولا)،

و(نابليون)، و(لينين)، و(موسوليني) أمام عينيه كعجلات مشتعلة كبيرة، وضاعت في انحطاط الأرض المنعزلة تحت الشفق الذي لم يعد أرضياً.

سقطت كلماته بأصوات قصيرة مع صدامات صلبة من الفولاذ. وإغراءات مسرحية العرض، وقال إنه يرى نفسه في مرآة خيالية، مهزوزة وغاضبة، مهتزاً وغاضباً.

فرض شروطاً.

وكان من المقرر أن تسلم الدول أساطيلها الحربية، والآلاف من البنادق والأسلحة، بعد كل سلالة يتم اختيار بضع مئات من الرجال، وعزلهم في جزيرة، وتدمير بقية البشرية. طار الشعاع نحو المدن، وتم تعقيم القرى، وتحويل الأجناس والغابات إلى رماد. سوف تضيع كل العلوم، من كل أنوع الفن والجمال من الذاكرة إلى الأبد. أرستقراطية ساخرة، قُطَّاع الطرق المتشبعون بالحضارة والشكوك، قد استولوا على السلطة، وهو على رأسهم. وبما أن الإنسان سعيد يحتاج لدعم آماله في كذبة ميتافيزيقية، ومن شأنها أن تعزز رجال الدين، وأن تشرع في إجراء تحقيق للحد من أي هرطقة من شأنها أن تقوض أسس العقيدة، أو وحدة الاعتقاد التي من شأنها أن تكون الوحدة المطلقة للسعادة البشرية، واستعادة الإنسان لحالته البدائية في المجتمع، وكما كان الحال في عهد الفراعنة، حيث كان يكرس نفسه للمهام الزراعية. الكذبة الميتافيزيقية من شأنها أن تعيد إلى الإنسان النعيم الذي جففته المعرفة في قلبه. سقطت كلماته بأصوات قصيرة وجافة، مثل اصطدام المكعبات الفولاذية. وقال للسفراء: ـ ستبنى مدينتنا نحن الملوك من الرخام الأبيض وستقع على شاطئ البحر. سيبلغ قطرها سبعة فراسخ ذات قباب من النحاس الوردي والبحيرات والغابات. سوف يعيش هناك قديسو المنصب، والبطاركة الأوغاد، والسحرة المحتالون، والآلهة الملفقة. كل العلم سيكون سحراً. سينزل الأطباء في الشوارع متنكرين بزي الملائكة، وعندما يتكاثر الرجال كثيراً، كعقاب لهم على جرائمهم، ستنثر التنانين الطائرة المضيئة اهتزازات الغضب الآسيوي في الهواء.

«سيعيش الإنسان في عصر المعجزات الكاملة، وسيكون مليونيراً في الإيمان. خلال الليالي سوف نعرض في الغيوم، مع عاكسات قوية، «مدخل خوستو إلى الجنة». هل يمكنك أن تتخيل؟ فجأةً، يرتفع شعاع أخضر وأرجواني فوق الجبال، وتغطي الغيوم حديقة حيث يطفو الهواء الأبيض مثل رقاقات الثلج. ملاك بأجنحة وردية يعبر أحواض الزهور، ويتوقف عند بوابة الجنة، ويستقبل بأذرع مفتوحة «جوستو»، رجل من العامة، بقبعة ممزقة ولحية طويلة وهراوة. هل تفهمون الأوغاد والمهنيين والمتشائمين والممتازين؟ هل تفهمون؟ يرحب الملاك ذو الأجنحة الوردية بالرجل الذي يتعرق ويعاني على الأرض. هل تدركون مدى عظمة فكرتي، ما مدى روعة المعجزة السهلة؟ وسوف يعبد الجموع الله على ركبهم، والشيء الوحيد الذي لن نملكه هو السماء، أي قطاع الطرق الحزانى الذين لديهم القوة والعلم والحقيقة غير المجدية!

كان يرتجف بينما يتحدث.

ـ سنكون مثل الآلهة. سوف نتبرع بالمعجزات الرائعة، والجمال اللذيذ، والأكاذيب الإلهية للناس، وسنمنحهم الاقتناع بمستقبل غير عادي للغاية، بحيث تتضاءل كل وعود الكهنة أمام حقيقة المعجزة المصطنعة. وبعد ذلك سيكونون سعداء. هل تفهمون أيها الحمقى؟

في اشتباك، ألقى به فاكين على الحائط.. توقف أردوسين في حالة صدمة، وضغط على المال بشكل متشنج في جيبه، ومتحمساً، وبهيج شديد، مثل نمر صغير طليق في غابة من الطوب، بصق على واجهة دار أزياء، قائلاً: ـ سوف تكون مدينتنا.

من خلفه كان يسير الرائد.

الغزوة

في تمبرلي، كان المُنَجِّم ينتظره. أضاءت ابتسامة لطيفة وجهه. كاد أردوسين أن يركض لمقابلته، لكن الآخر، الذي أمسكه من ذراعيه، أوقفه للحظة ينظر إليه في عينيه، ثم تخلى

عن الرسميات في مخاطبته له، وهو ما لم يفعله من قبل، قال: ـ هل أنت سعيد؟

انتاب أردوسين الخجل. في تلك اللحظة شعر بلغز مزدوج في وعيه. لم يكن هذا الرجل ليكذب، وشعر أنه قريب جداً منه لدرجة أنه كان يريد الآن التحدث إليه إلى مالا نهاية، ورواية التفاصيل الأكثر حميمية في حياته التعيسة، ولكن تمكن فقط من القول: ـ نعم، أنا سعيد جداً.

توقف المُنَجِّم للحظة على رصيف المحطة. الآن كان يناديه برسميات كالمعتاد.

ـ هل يعرف؟ كثير منا لديه رجل خارق بداخله.

الرجل الخارق هو الإرادة في أفضل حالاتها، حيث يتغلب على جميع الأعراف الأخلاقية وينفذ أفظع الأفعال، كنوع من الفرح الساذج؛ شيء مثل لعبة القسوة البريئة.

ـ نعم، ولم يعد الشخص ينتابه لا خوف ولا كرب، كأنه يمشي فوق السحاب.

ـ وبالطبع، فإن الطريقة المثلى هي أن يتم إيقاظ هذه الشراسة المرحة والساذجة في الكثير من الرجال. يعود الأمر إلينا لافتتاح عصر الوحش البريء. كل شيء سيتم إنجازه دون أدنى شك. إنها مسألة وقت وجرأة، لكن عندما يدركون أن أرواحهم تغرق في مرحاض هذه الحضارة، قبل أن يغرقوا، فإنهم سيحيدون عن الطريق. والواقع هو أن الإنسان لم يلاحظ أنه مريضٌ بالجبن والمسيحية.

ـ لكن ألا تريد تنصير الإنسانية؟

ـ لا، على العكس، ولكن إذا فشل هذا المشروع فسوف نسلك المسار المعاكس. لم نقم بوضع أي مبدأ بعد، والشيء العملي هو احتكار أكثر المبادئ تعاكساً. كما هو الحال في الصيدليات، سيكون لدينا أكاذيب كاملة ومتنوعة، معنونة بأروع أمراض العقل والروح.

ـ هل تعلم أنني أجدك كالمجنون في المصنع، كما أخبرك بارسوت بالأمس؟

ـ ما نطلق عليه جنوناً هو ما يتضح غير عادي في تفكير الآخرين. انظر، إذا اعترف ذلك المتغير بالأفكار التي تخطر له على بال، فسوف تحبسه في مركز تأهيل نفسي. بطبيعة الحال، كما يجب أن يكون هناك عدد قليل منا، فإن الشيء الأساسي هو أن نحصل على الحيوية والطاقة من أفعالنا. هناك يكمن الخلاص.

ـ وبارسوت؟

ـ لا شك في ما ينتظره.

ـ وكيف ستقضي عليه؟

ـ سوف يخنقه برومبيرج. لا أعرف، إنها قضية لا تشغلني.

تحت شعاع الشمس، متجنباً البرك، توجهوا نحو المسكن. وقال أردوسين في نفسه:

ـ ومدينتنا نحن الملوك ستكون من الرخام الأبيض وتكون على شاطئ البحر، وسنكون مثل الآلهة. ونظر إليه بعيون مشرقة، فقال لصاحبه: «هل تعلم أننا في يوم من الأيام سنكون مثل الآلهة؟».

ـ هذا ما لا يفهمه الوحوش. لقد ذبحت للآلهة. ولكن سيأتي اليوم الذي يركضون فيه تحت الشمس وهم يركضون على طول الطرقات هاتفين: «نريد الله، نريد الله». يا لهم من برابرة! لا أفهم كيف استطاعوا اغتيال الله. لكننا سنحييهم، سنبتكر آلهة جميلة متحضرة. يا لها من حياة تلك التي تنشأ بعد ذلك!

ـ وماذا لو فشل كل شيء؟

ـ لا يهم، سيأتي آخر، سيأتي آخر ليحل محلي. هذه هي الطريقة التي يجب أن يحدث بها. الشيء الوحيد الذي يجب أن نتمناه هو أن تنبت الفكرة في المخيلات. في اليوم الذي تتواجد فيه أرواح كثيرة، ستحدث أشياء رائعة.

اندهش أردوسين من هدوئه. لم يعد يخشى شيئاً، وتذكر مرة أخرى قاعة السفراء، وتراكمت نظرته الخبيثة في ارتباك الدبلوماسيين المسنين، والرؤوس الصلعاء، والوجوه الرصاصية، والنظرات القاسية والخادعة، وبعد ذلك، دون أن يكون قادراً على كبح جماحهم، صاح: ـ يا لمقدار «اللعنة» حتى نتمكن من ثني رقبة ذلك الوحش!

نظر إليه الآخر في دهشة.

ـ هل أنت عصبي أم أنك تغضب وحدك مثل الفيلة؟

ـ لا، أكاد أنفجر من هذا العبء من السخافات القديمة.

أجاب المُنَجِّم: «هكذا هم الأولاد الصغار. حياتهم تشبه حياة قطة بداخل باب نصف مفتوح».

ـ هل سيكون لي دور في التنفيذ؟

ـ هل أنت مهتم؟

ـ كثيراً.

ولكن بينما كان يسير عبر باب الفيلا، أصيبت معدته بغثيانٍ وشعر بردود الفعل المعدية المتمثلة في القيء في حلقه. بالكاد يمكنه الوقوف. كانت الرؤية في عينيه محجبة بضباب حليبي. كانت ذراعاه تتدلى من مفاصله بثقل أطراف من البرونز. مشى دون أن يدرك المسافة. بدا له أن الهواء مزجج، وتموجت الأرض تحت نباتاته، وفي بعض الأحيان أصبحت قمم الأشجار متعرجةً في عينيه. كان يتنفس بصعوبة، ولسانه جاف، وحاول عبثاً أن يبلل شفتيه الجافتين وفكيه المحترقين، ولم يبقه على قدميه سوى الخوف من العار.

عندما فتح نصف عينيه كان يهبط مع برومبيرج درج المرأب.

كان الرجل الذي رأى القابلة يسير مثل المذهول بشعره الأشعث. تم رفع سرواله بشكل مفرط حتى خصره، وتفلت من بين الأزرار قطعة من قميص أبيض مثل طرف منديل. وغطى فمه بقبضته، مانعاً تثاؤباً كبيراً. لكن نظرته النائمة الضائعة بدت غافلة عن موقفه الفظيع. كانت عيناه جميلتين وجديتين وغير مترابطتين مثل تلك التي عند الوحوش العظيمة، بين الجفون الوامضة التي ظللت دوائره المظلمة في وجه مستدير وجميل. نظر إليه أردوسين، لكن بدا أن الآخر لم يرَهُ، غارقاً في تناقضه الرائع. ثم حدق في المُنَجِّم، الذي أعطاه إيماءة وبعد فتح القفل دخل الثلاثة إلى الإسطبل.

قفز بارسوت: كان سيتحدث.

انحني برومبرغ في الهواء واندفع يحطم جمجمة الرجل على الألواح الخشبية في المرأب. في الغبار، امتدت الشمس راسمة معينات صفراء. جاء الشخير مكتوماً من الكومة عديمة الشكل. تابع أردوسين القتال بفضول قاسٍ، وفجأة من وسط برومبرغ، الذي كان رابضاً فوق بارسوت وذراعاه الهائلتان متصلبتان في قبضة على رقبته على الأرض، قام بنزع سرواله تاركاً أردافه البيضاء مكشوفة. قميص فوق الكلى. ولم يعد هناك من شخير مكتوم. ساد الصمت لحظة، بينما القاتل، نصف عارٍ، بلا حراك، ضغط بقوة أكبر على حلق الرجل الميت.

أردوسين شاهد، لا شيء أكثر.

انتظر المُنَجِّم والساعة في يده. وهكذا مرت دقيقتان، وهذا بالنسبة لأردوسين لم يكن لهما طول.

ـ كفى، هذا كل شيء.

أخرق، بشعره الملصق على جبهته، استدار برومبيرج، ودون أن يعلق نظراته غير المتماسكة على أي شخص، أمسك أطراف سرواله بخدود حمراء، وقام بارتدائه على عجل. خرج

القاتل من المرأب. تبعه أردوسين، والتفت المُنَجِّم، الذي كان الأخير، لينظر إلى الرجل المختنق.

ظل على الأرض، ورأسه يتجه نحو السقف، وفكاه منتفخان، ولسانه عالق في قمة شفتيه ملتوياً في زاوية تكشف عن أسنانه.

في هذا الظرف وقع حدث غريب لم يدركه أردوسين. توقف المُنَجِّم تحت عتبة المرأب، وأدار وجهه نحو الرجل الميت، ثم رفع بارسوت كتفيه إلى أذنيه، ومدد رقبته، ونظر إلى المُنَجِّم، غمز جفنه. ثم لمس حافة قبعته بإصبعه وخرج للقاء أردوسين، الذي كان غير قادر على احتواء نفسه، هتف: ـ هل هذا كل شيء؟

ألقى المُنَجِّم نظرة ساخرة عليه.

ـ لكن هل تعتقد أن «هذا» يشبه ما يحدث في المسرح؟

ـ كيف ستجعلها تختفي؟

ـ إذابته في حامض النيتريك. لدي ثلاثة أحواض. ولكن، بالحديث عن كل شيء قليلاً، هل سمعت عن الوردة النحاسية؟

ـ نعم، لقد نتجت في أفضل حالة. إن العائلة اسبيلا سعداء للغاية. الليلة الماضية رأيت عينة جيدة جداً.

ـ حسناً، سنتناول الغداء، لقد استحققناه جيداً. لكن عندما كانوا على وشك الدخول إلى غرفة الطعام، قال المُنَجِّم:

ـ كيف؟ ألن نغسل أيدينا؟

نظر إليه أردوسين في مفاجأة ورفع يديه بشكل غريزي إلى حيث عبرتا طية صدر سترته لينظر إليهما. ثم، على عجل، في صمت، ساروا إلى الحمام، وتخلصوا من حقائبهم، وفتحوا الصنابير. أخذ أردوسين قطعة من الصابون ولفها حتى المرفقين بشق الأنفس وفركها. ثم وضع ذراعيه تحت مجرى الماء وجففهما بقوة على المنشفة. لكن قبل المغادرة، قام المُنَجِّم بعمل غريب.

أخذ المنشفة، وألقى بها في قاع حوض الاستحمام، وأخذ زجاجة من الكحول، وصب محتوياتها عليها، ثم أشعل عود ثقاب، ولمدة دقيقة، أضاء وجهان في الغرفة المظلمة بنيران اللهب المزرق. قابلة للاشتعال استهلكت الأنسجة. بعد ذلك، بالنسبة للبقية، تركت رواسب سوداء هناك: فتح المُنَجِّم صنبوراً، ومرة أخرى جرى الماء، وسحب الكربنة الخفيفة، ثم غادر كلاهما إلى غرفة الطعام.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه أردوسين.

ـ إذاً فقد فعلت مثل بيلاطس، في؟

ـ هو محق، وبلا وعي.

في غرفة الطعام المظللة، كشفت الستائر عن الحديقة. زحفت السيقان الرقيقة من زهر العسل حتى أخشاب الإطار. انزلقت الحشرات الشفافة في الهواء بجانب شجرة الليمون وانعكست الجدران البيضاء في عتامة اللون الأشقر للأرضية الشمعية. أطراف مفرش المائدة معلقة حول أرجل الطاولة المربعة. في إناء إتروسكان، أعطت باقة من أزهار القرنفل رائحة الفلفل وأواني فضية متلألئة على الكتان والأرض؛ تتجعد الظلال مثل البكرات في التحدب الزجاجي للنظارات، أو تنتشر في خطوط مثلثة على الألواح. في طبق بيضاوي كان هناك جمبري بالمايونيز.

قدم المُنَجِّم النبيذ. أكلوا في صمت. ثم أحضر المُنَجِّم مرق صفار البيض، وصينية من سلطة الخرشوف، وبعد ذلك السمك. بالنسبة للحلويات كان هناك الريكوتا مع القرفة وقطع الفاكهة.

ثم سكب القهوة، وأعطاه أردوسين النقود. قال له المُنَجِّم:

ـ هذه ثلاثة آلاف وخمسمئة. اصنع لنفسك عدة أزياء. أنت رجل وسيم ومن المستحسن أن تبدو أنيقاً.

ـ شكراً جزيلاً لك. لكن مهلاً، أشعر بالرغبة الشديدة في النوم. هل أستطيع أن أذهب إلى النوم لفترة من الوقت. هل تريد إيقاظي في الخامسة؟

ـ «بالطبع، تعال». ورافقه المُنَجِّم إلى غرفة نومه. نزع أردوسين حذاءه، الذي استُهلك بالفعل، وألقى بحقيبته على ظهر السرير.

حرقت الحرارة الشديدة جفنيه وصدره مغطى بالعرق الكثيف ولم يفكر أكثر.

استيقظ، وكان قد حل الظلام بالفعل، على ضجيج المُنَجِّم وهو يفتح ستارة. استدار ببداية، وقال له الآخر:

ـ أخيراً! لقد كان نائماً لمدة ثمانٍ وعشرين ساعة. وحتى لا يدع مجالاً للشك، أعطاه المُنَجِّم الجرائد اليومية، وبالتأكيد كان قد مر يومان.

قفز أردوسين من السرير مفكراً في هيبوليتا.

ـ أنا بحاجة للذهاب.

ـ كنت نائماً كالميت. لم أر أحداً ينام هكذا، بمثل هذا الإرهاق، حتى نسيان الاحتياجات الطبيعية. ولكن، بالمناسبة، من أين لك قصة منتحر القهوة؟ لقد قرأت صحف الأمس وهذا

الصباح ولم أجد أي ذكر لتلك الأخبار. هل سمعت به في منامك.

ـ بدون شك، يمكنني أن أرشدك الى القهوة.

ـ حسناً، لقد حلمت بالمقهى إذاً.

ـ يمكن أن يكون... لا يهم... وذاك؟

ـ لقد انتهى.

ـ كل شيء؟

ـ كل شيء.

ـ وماذا عن الحامض؟

ـ سنقوم برميه في الحوض.

ـ إذاً لقد انتهى؟

ـ يبدو الأمر كما لو أنه لم يكن موجوداً من قبل.

ـ عند وداع المُنَجِّم، قال له:

ـ تعال يوم الأربعاء الساعة الخامسة. في الليل سيكون لدينا اجتماع. لا تنس شراء بدلة جاهزة بينما يتم صنع الآخرين لك. لا تتغيب، سيكون متواجداً ذلك المنقب عن الذهب، والروفيان وغيرهم، وغيرهم. سوف نتبادل الأفكار وتذكر أنني مهتم جداً بمسألة الغازات الخانقة. قم بعمل مشروع لمصنع لتخفيض الكلور والفوسجين. آه، وحاول معرفة ما إذا كان يمكنك اكتشاف ما هو غاز الخردل. تخلص من أي مادة لا يحميها مضاد للماء مبلل بالزيت.

ـ الفوسجين هو أوكسي كلوريد الكربون.

ـ لا تضيع الوقت يا أردوسين. مصنع صغير يمكن أن يكون بمثابة مدرسة كيمياء ثورية. تذكر أن أنشطتنا يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء. سيكون المنقب عن الذهب مسؤولاً عن الأمور المتعلقة بالمستعمرة، أنت عن الصناعات، وهافنر عن بيوت الدعارة. الآن بعد أن أصبح لدينا المال يجب ألا نضيع الوقت. يجب أن تشرع في العمل. ماذا يمكنك أن تخبرني إذا أسسنا مصنعاً سيصبح في الأرجنتين مثل مصنع كروب في ألمانيا؟ عليك أن تكون واثقاً. يمكن أن تخرج منا العديد من المفاجآت. نحن مكتشفون لا نعرف إلا بشكل جماعي إلى أين نحن ذاهبون (6). ومن يدري ماهيته!

ثبَّت أردوسين عينيه على الوجه المعيني للآخر لثانية، ثم قال مبتسماً ساخراً:

ـ هل تعلم أنك تشبه لينين؟

وقبل أن يجيبه المُنَجِّم، غادر.

(4) تحياتي باللغة الفرنسية

(5) هي جنس من القوارض تتبع فصيلة الشنشيلات من رتبة القوارض.

(6) تستمر شخصيات هذه الرواية في العمل في مسرحية «قاذفات اللهب» أو «المنجنيق».

1. الغلاف
2. المجانين السبعة
3. تقديم
4. مقدمة المترجم
5. الفصل الأول
6. الفصل الثاني
7. الفصل الثالث
8. كانت لوسيانا طويلة الشعر وشقراء، ذات أنف...

أحدب نوتردام

هوغو, فيكتور

9789922643120

pages 464

Buy now and read (Advertising)

في الرواية تجربة إنسانيَة فريدة تجمع الجمال إلى القبح. وتحمل مضامين كبرى عن العاطفة; عن التسامي والتضحية والحُبَ، عن الأحقاد والكراهية والانتقام. وهي واحدة من أشهر الروايات الرومانسيَة، لما تصوَره من عاطفة قوية تحرَكها الغجرية في قلوب الجميع لا سيما قارع الأجراس في كاتدرائية نوتردام والكاهن إنَها تراجيديا رائعة من القرون الوسطى عن الأقدار المشؤومة وسلطة الكنيسة، تدور أحداثها في عهد لويس الحادي عشر، ومسرحها تحفة معماريَة. ترنَ في أركان الكاتدرائية الأجراس والمصائر. يتوغل فيكتور هيغو في روايته، عميقا في عالم المشردين والمهمشين، وحتى الأسياد المنكسرين على أنفسهم أمام عالم يسوس فيه الظلم، ويعربد فيه المنافقون باسم التدين. ينتصر الكاتب الشاعر في هذا العمل للعاطفة الإنسانية كدافع جوهري لكل حراك اجتماعي يتوق للتحرر والانعتاق، فكأنما أحداث نوتردام في أواخر العصر الوسيط هذه، هي التي مهدت لبواكير الثورة الفرنسية في أواخر القرن 18، والتي أرخ لها فيكتور هيغو، في رائعته "البؤساء". نجح هيغو، من خلال هذه الرواية ذات الأحداث الآسرة، في حياكة قصة حب متشظية بين شخصيات تائهة، ولامس معادلة صعبة المنال وملتبسة المفاهيم، وهي مبنية على العلاقة بين ظاهر الشخصية وباطنها، بين قبح خارجي وجمال داخلي، وتؤسس لمفهوم فلسفي شديد التعقيد، وهو سؤال الجمال وعلاقته بالصالح والنفعي، وما يجب أن يكون.

Buy now and read (Advertising)

رواية

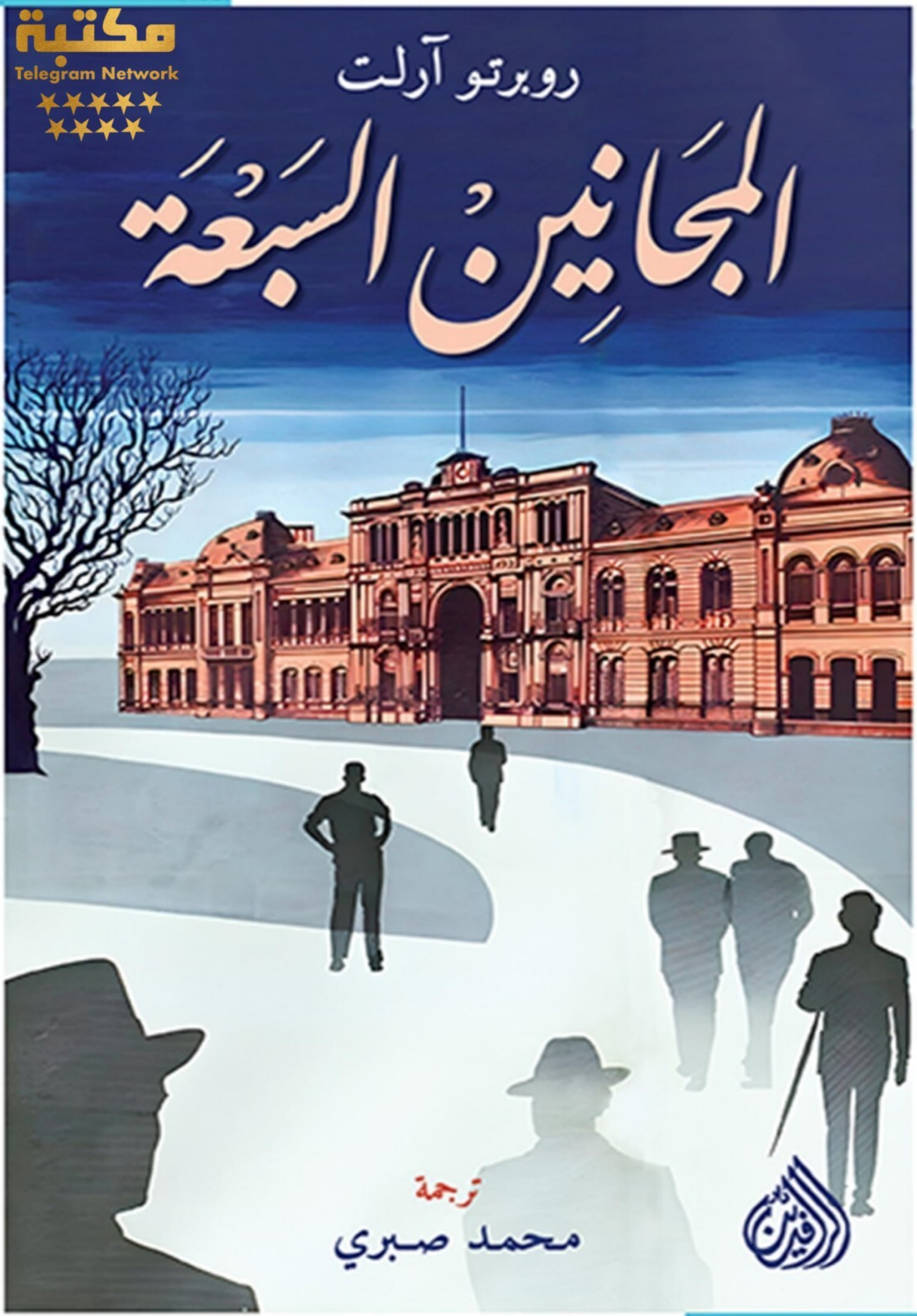
مكتبة
Telegram Network
روبرتو آرلت
المجانين السبعة
ترجمة
محمد صبري